JAMALNAJI

جمال ناجي

مخلفات الزوابع الأخيرة

رواية

فضاءات
للنشر والتوزيع

مخلفــات الزوابــع الأخيرة

الطبعة الأولى- ٢٠١٠

ر.إ ٢٠٠٩/٩/٤١٨٥

المؤلف: جمال ناجي - الأردن

ISBN ٩٧٨-٩٩٥٧-٣٠-١١٨-٧

فضاءات للنشر والتوزيع

دار فضاءات للنشر والتوزيع

عمان- شارع الملك حسين- مقابل سينما زهران

تلفاكس: ٤٦٥٠٨٨٥ (٦ -٩٦٢+)

هاتف جوال: ٠٧٧٧/٩١١٤٣١

ص.ب ٩٢٥٨٤٦ عمان ١١١٩٠ الأردن

Dar_fadaat@yahoo.com

/http://darfadaa.com

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه
أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي
شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق من الناشر.

تصميم الغلاف: نضال جمهور

الصف الضوئي والإخراج الداخلي: ***فضاءات للنشر والتوزيع***

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لاتعبر بالضرورة عن رأي دار ***فضاءات للنشر والتوزيع.***

جمال ناجي

مخلفـات الزوابـع الأخيرة

روايـة

فضاءات
للنشر والتوزيع

إهداء الطبعة الثالثة

إلى أمي العظيمة حيث هي

مقدمة الطبعة

لقيت هذه الرواية رواجا كبيرا عند صدور طبعتها الأولى في بيروت سنة ١٩٨٨، وحازت على جائزة الدولة التشجيعية في الاردن بعد عام من صدورها، وكتب عنها ما يزيد على خمسين دراسة نقدية ومقالة في الصحف والمجلات والمؤلفات النقدية العربية، ونال عدد من طلبة الدراسات العليا درجات الماجستير والدكتوراة استنادا إلى دراساتهم ورسائلهم العلمية التي أعدوها عنها، وقام المركز العربي بإنتاج مسلسل تلفزيوني مأخوذ عن قصتها تحت عنوان "وادي الغجر"، وعد بعض النقاد هذه الرواية أهم عمل يكتبه الروائي جمال ناجي منذ أن بدأ الكتابة وحتى تاريخ صدورها.

وحسب ما جاء في موسوعة ويكيبيديا فقد أقام الكاتب معماره الفني في هذه الرواية على نحو فريد، حيث قام بتصفير المكان والزمان، وبدأ بتشييد مدينة جديدة ببيوتها وشوارعها ومحالها التجارية وسكانها وعلاقاتهم الإجتماعية والإقتصادية والسياسية والعاطفية.

وقد تميزت هذه الرواية بجدة موضوعها، حيث تناولت جوهر حياة الغجر، بعيدا عن الصورة النمطية الممثلة في الرقص والترفيه عن الآخرين. فالروائي هنا يغوص في ميثولوجيا الغجر ونشأتهم وعاداتهم

وتقاليدهم وأسباب تشتتهم منذ ولادة جدهم الأول. يأتي هذا في سياق التداعي الغزير للذاكرة الغجرية، وهو ما يتم إبرازه خلال فترة انضمامهم إلى مدينة الوادي التي شيدها الروائي، واختلط فيها الغجر والفلاحون والبدو ليشكلوا بمرور الزمن مجتمعا مدينيا قادرا على التعايش رغم اختلاف الثقافات والمرجعيات خصوصا بين الغجر والآخرين.

إنها رواية الحياة في تنوعها وتجلياتها ومفارقاتها، وأغنية الأرض في عطائها المتجدد، ونشيد الإنسان وشدوه حين يكتشف بأن في الحياة ما هو أهم من يومياته الصغيرة التي تسبب الأرق وتُهجّر الحكمة. في الحياة أشياء تدعى: الحب والحرية والتمرد على ما تواطأت عليه المجتمعات التي كبلت الإنسان بسلاسل التقاليد التي لم تولد معه.

الناشر

الكتاب الأول

آخر الليلات

- ١ -

لو تعود المدينة بخوائها إلى الوراء، فإن الوادي سيعود مثلما كان قبل ارتحال "سبلو الغجري" إليه: مكاناً موحشاً، وملتقى للّصوص الذين اتخذوا من كهوفه حصوناً لهم، ومخابئ تستعصي على الانكشاف!

ستفهق المدينة أيضاً في فراغ جبالها ووديانها، ستُشهر أذرعتها العنكبوتية، وتزحف معلنة حربها الصامتة القاسية على فراغ مساحاتها.

هنا تزدحم الوجوه، فيطلّ "سبلو الغجري" وزوجته "بهاج" ثم ابنتهما " هاجار"، يطل " عثمان أبو بركة"* وزوجته وأولاده لا سيما "حامد" أصغرهم! يطلّون جميعاً لا لأنهم يريدون بث ما لديهم عبر هذه الرواية، ولا لأنهم أول من أقام في فراغ الوادي، وإنما لأنهم كانوا مقدمة للحشود التي اتخذت من الوادي موطناً لها.

---

* الكنية مرفوعة أينما وردت

- ٢ -

في أحد الصباحات، خرج "سبلو" عن عادات الغجر الذين لا يحسنون الابتعاد عن بعضهم.

لأمر ما ارتحل سبلو عن جماعة الغجر، فأعلن بذلك سابقة خطيرة تفرّد باحتمال نتائجها، وحين أقام في الوادي، سامر لصوص المدينة ذات ليلة مفزعة، عزف لطيشهم ولبأسهم، ولعن الموت مثلهم، لكنه لم يشاركهم غزواتهم على متاجر المدينة، وحظائرها.

- ٣ -

قبل عشرات السنين، لم يكن هنالك مكان اسمه " وادي الغجر"، ولم تكن هذه التسمية ممكنة، لأن حشود الغجر أقامت عند الأطراف الجنوبية للمدينة.

كل ما هنالك أن بيتاً واحداً كان يقبع في سفح الجبل الشمالي، ويضم فيما يضم:

عثمان أبو بركة وزوجته رحمة، وأولاده الأربعة، وبناته الثلاث.

كل ما هنالك أنّ سكان الأرباض، اعتادوا عبور الوادي بجمالهم، ليختصروا المسافات التي تفصلهم عن أقاربهم ومعارفهم في المناطق الأخرى، لكن تلك الجمال بوسيجها المتكرر في الوادي، أوجدت مسرباً خالياً من الأعشاب في القاع، وصار بمكنة من ينظر إلى القاع من أي بقعة في الجبال المحاذية، أن يرى بوضوح، ذلك المسرب الرفيع المتعرج.

هذا كل ما شاهده سبلو الغجري من آثار للحياة في الوادي يوم ارتحاله إليه.

آنئذ، لم تكن صخور الوادي قد رُوّضت، ولم تتخذ مساربه أشكالها الحالية المتفرعة من القاع المطمئن، إلى الأشفار المتأرجحة.

كان الشريطان الضيقان المحاذيان للقاع، يستقبلان كل عام بذور الحبوب التي تذروها أصابع عثمان أبو بركة وأسرته، والخضرة تطفر من الأرض، بعد أن تفض الأمطار بكارة ذينك الشريطين المزروعين. ما ان تذرف السماء أوجاعها، حتى يبتل التراب في الوادي، وترتوي بذور القمح والشعير، وتغتسل الحجارة والصخور وأشجار السرو غرباً، والمياه تتدفق من أقاصي الشمال، حيث التلال الزرقاء البعيدة، والعثن الكونيّ الساكن، ووحشة الفراغ الشاسع.

من أقاصي الشمال تبدأ رحلة الشتاء، وفي الشمال تبدأ قطرات المياه أولى خطوات الانقياد، فتتجمع وتندفع متخللة الصخور، جارفة معها الحصى والرمال وهشيم الفصول، وإذ تصل أجمة السرو غرباً، تنعطف نحو الشرق، تبعاً لاستدارات الصخور، ومسارب السيقان الباسقة.

يتجه السيل شرقاً، فيخفتُ هديره، وتتوزع مياهه في انبساطات القاع الذي يتسع كلما ابتعد عن ضيق المنعطف.

– ٤ –

سبلو الغجري اختار أن يقيم على بعد خطوات قليلة من بيت عثمان أبو بركة لأسباب، منها ابتعاد ذلك المكان عن مهابّ الرياح، وعن الكهوف التي أثارت تطيُّره حين شاهدها لأول مرة في الأعالي!

ومنها وجود امتداد صخري شبه منسبط، أعانه على اختصار الكثير من جهود وتكاليف أساسات بيته، لكن الأهم، أنه أراد باختيـــاره ذلـــك المكان، أن يرى بيته من أيّ بقعة في الوادي، وأن يرى أيّ رِجْلٍ غريبة قد تقترب من ذلك البيت، وقد أشار عثمان أبو بركة على سبلو بـــأن يعمّق أساسات بيته قبل الشروع بالبناء، وأن يستخدم الحجارة العريضة المنبسطة، لكي يزيد من سمك الجدران، كما أشار عليه بالإكثار مـــن كمّيات الإسمنت التي يريد شراءها من المدينة، لكي يكون البناء قويـــاً متيناً.

في البداية جمع الحجارة المنبسطة، ثم حفر أخدوداً بعمق شبرين، وامتثل لإرشادات عثمان أبو بركة بأن عالج انحناء الأرض بتعميق الأخدود في الجهة المرتفعة، وجَلَبَ الرمال البيضاء الناعمة والاسمنت من كسارات المدينة على ظهور الحمير المعفّرة، و لم يلتفت إلى ما قاله أحد أصحاب تلك الحمير، بعد أن فرغ حمولة الإسمنت عن ظهر حماره. فقد التفت ذلك الرجل حوله باحثاً عن أثر لحياة الإنسان في الوادي، وحين لم ير سوى بيت عثمان أبو بركة، قال لسبلو "ول! ضاقت الدنيا عليك حتى تعيش في هذا الوادي المنقطع؟"

– ٥ –

كان لمساعدة عثمان أبو بركة وأولاده الأربعة أثر كبير في نفس سبلو، فقد أحس بأن مساعدتهم له في بناء بيته، إنما هي دين عليه لا بد له من سداده في يوم ما.

أحس أيضاً بأن في موافقتهم على بقائه في الوادي، سابقة لم يعهدها خلال سني ارتحاله وقومه، فقد اعتادوا مشاهدة النظرات المزدرية في عيون " الفلاحين" حال اقترابهم منهم! لكنه لم يفكر بأن عثمان أبو بركة وأسرته، إنما كانوا يبحثون عمن يشاركهم وحشة الحياة في الوادي، وأنهم باندفاعهم لمساعدته إنما أرادوا توطيد وجوده المفاجئ في الوادي !

عمل سبلو بجبروت وقوة لا تتوافران إلا لكائن تخلّص من مُشَتِّتات جهوده العضلية والعقلية، وكان مثل رصاصة انطلقت نحو هدف محدد واضح، لذا لم يلتفت إلى تنهدات زوجته هاج، أو تبّرماتها المتكررة، أو حتى ملاحظاتها التي أبدتها حول ضرورة أن يريح جسمه، وأن يأكل جيداً، كما صمّ أذنيه المنتصبتين، فلم يعد راغباً في سماع صوتها.

كان يستمع فقط إلى صوت واحد، أو، هو لم يستمع، إنما سُيِّر بإيحاء غريب، مبعثه تلك الأصداء، العميقة الغامضة التي احتلته بعد هزيمته أمام " كياز الغجري."

لقد تحولت تلك الأصداء إلى محرك لاندفاعة سبلو التي لم تصدر عن قناعة بجدوى ارتحاله عن جماعة الغجر، وإنما عن تحرُّكٍ شبه مسمريّ أعقب هزيمته فاتّخذ هيئة: الحل !

– ٦ –

سبلو الغجري، سبلو الفأر، سبلو بن قدّاح.

ثلاث تسميات لرجل واحد أكهب البشرة، ضئيل الجسم، منتصب الأذنين، كأنما هو في حالة إصغاء متصلة لأصوات بعيدة .

ينحدر سبلو من أسرة غجرية تنقلت بين بلاد الهند، وإيران وشمال العراق وبلاد الشام، وقيل إن أحد أجداده فسخ عن تلك الأسرة، واتجه إلى بلاد مصر.

الاسم الحقيقي لهذا الرجل الضئيل هو: سبلو بن قدّاح بن جنّاس بن فا بن سونار، أما كلمة الفأر فليست سوى لقب أطلقه عثمان أبو بركة عليه بسبب هيئته ومشيته الغريبتين!

إن لقباً كـ(الفأر) لهو أنسب ما يمكن إطلاقه على سبلو! وهو يؤكد على تلك العلاقة الغامضة بين لقب الإنسان وبين هيئته!

لقب "الفأر" يؤكد أيضا ذلك التشابه غير الملموس بين شكل الإنسان، وبين أشكال الكائنات الأخرى على هذه الأرض! فرأس سبلو يشبه إلى حد بعيد رأس الفأر، سواء من حيث اندفاعة لحيته التي تتقدم وجهه الرفيع، أو من حيث الانتصاب الدائم لصيوانَيْ أذنيه! وهو قصير القامة، ضامر الجسم، خفيف الحركة، لكن مشيته تثير الاهتمام، ذلك لأن رأسه يظل غاطساً بين كتفيه أثناء سيره، كأنما هو قطعة وُضعت في ذلك المكان لاحقاً!

– ٧ –

حينما جمع سبلو المواد اللازمة، شرع وأبناء عثمان أبو بركة، بخلط الاسمنت مع الرمال بالمياه التي أحضروها من النبع الشرقي، وصبوا خلطتهم في الأخدود، ثم انتظروا يومين قبل أن يحكموا بناء الحجارة التي لم تذر للريح أو للمطر أو حتى لأصغر الحشرات فرصة التسرب من تلك الجدران!

كل ما هنالك أهم تركوا في الجدار الغربي فتحة مربعة، ثم أغلقوها بشباك خشبي، أما الباب والسقف، فقد اعتنوا بهما جيداً، حيث صنعوا الباب من الأخشاب السميكة القاسية، ووضعوا في منتصف حافته ترباساً حديدياً ثقيلاً، ثم غطوا السقف بقماش "الشادر" السميك، مما أضفى على تلك الغرفة المستطيلة مظهر الإتقان والاستقامة، وصار بمكنة من ينظر إلى بيت سبلو من أي مكان في الوادي، أن يرى بوضوح ذلك البيت الذي لا يبتعد سوى خطوات عن سلسلة الحجارة المحيطة بدار عثمان أبو بركة.

أما "بماج" فحسبها أن تصيح بزوجها عبر النافذة أو الباب، لتسمع أصداء صوتها، ثم صوت زوجها الذي يستجيب لها حتى ولو ابتعد وراء المنعطف!

لكن، لماذا يجازف سبلو بالابتعاد وراء المنعطف حيث أجمة السرو؟ لماذا تكبر الأشجار في تلك البقعة بينما يظل الوادي قاحلاً إلاّ من السنابل والأعشاب والزهور البرية؟

منذ أن ارتحل سبلو إلى الوادي، وهو يبحث عن طمأنينته في تساؤلاته الكثيرة، وفي استفسارات زوجته التي فكرت في الكثير من الأمور، وتوجست قبل أن تترل ابنتها" هاجار" من حضنها، غير أنه لم يدع لها فرصة التعمق في مخاوفها، وبدلاً من أن ينتظر رأيها، سارع بإنزال الشادر عن ظهر الحمار ذي الشعر الشوكي، وأنزل أعكام الملابس والصحون والأدوات، ثم الصندوق البنيّ الصغير حيث مساحيق

الحنّاء، والبهارات، والمسك، والطيب الذي تلقّته هاج هدية أخيرة من والدها العجوز " نظما " ليلة ارتحالها عن خيام الغجر !

في تلك الليلة قالت نظما العجوز لسبلو بلغتهما الغجرية " هل مسّك الجن؟" ثم تحسست ودعاتها الخمس في عب ثوبها، بينما تشاغل هو بعضعضة طفلته المتشبثة بقميصه البني الفضفاض "لكن يا سبلو، الغجري غريب إلاّ مع قومه" أضافت العجوز ثم طرحت ودعاتها على تراب الخيمة أمامها، فردّ مطلقاً سراح ابنته " يا عجوز الدنيا ملكنا، والأرض كلها للغجر" ثم أكمل مذكّراً العجوز بالأسباب التي دعته لاتخاذ قرار الرحيل " أما هنا فلا شيء سوى قتالنا مع بعضنا" وحينما فهمت العجوز ما يرمي إليه، عادت لِتَلَمُّسِ ودعاتها بصمت.

- ٨ -

لم يتمكن سبلو من التحرر من مشهد هزيمته أمام كيّاز الغجري حين ضبطه وهو يتلصص على زوجته هاج!

في ذلك المساء تلقّى صفعة أطاحت بمكانته العزيزة بين الغجر، وتمنّى بعدها لو لم يلحق بكيّاز ذي العضلات المفتولة والعظام القاسية، وساءل نفسه مُتفلّتاً من انكسار خاطره، " لماذا لم أتركه طالما أنه اختصرها وهرب؟ لماذا لحقت به؟ لماذا أمسكت به؟"

كان لهذا الحادث وقع قاتل في نفس سبلو، إذ ما أن صفعه كياز على وجهه، حتى سقط على الأرض ملطخاً بدماء أنفه الدقيق البارز، ولولا احتشاد الغجر حوله حينئذ، لظل الأمر سراً، ولاتخذ في ذهنه،

شكل الانكسار المبرر لرجل نحيل أمام رجل هائل العزيمة، ثقيل اليد، عضلي الجسم، اسمه كياز!.

لم يكتف كياز بصفع غريمه وحسب، بل داسه بحذائه الأسود على مرأى من الغجر الذين تلملموا حوله! داسه بقسوة منعته من النهوض أو حتى الهرب! وقال الغجر أنه أراد الانتقام لنفسه من بهاج التي رفضت زواجه منها، قيل أيضا أنه بفعلته تلك، إنما أراد إرغام سبلو على ترك زوجته.

لكن المهم في تلك الحكاية، أن الغجر لم يرحموه، وبدلاً من أن يخفّفوا وقع الهزيمة عليه، سخروا من السبب الذي دعاه إلى اللّحاق بكيّاز، إذ "ماذا لو نظر كيّاز إلى بهاجٍ من ثقب خيمتها؟" وصبوا في مسمعيه تعليقاتهم التي لم يجرؤوا يوماً على إطلاقها، بسبب غموضه وصمته الذي لم يدع لأحد فرصة التعرف إلى مواطن قوته وضعفه.

كان سبلو مقلاً في أحاديثه واحتكاكه بالآخرين، وحتى حينما يعزف في ليلات الغجر على أوتار بزقه، فإنه يعزف من دون الالتفات إلى محاولات التودّد التي يبدونها في نهايات سهراتهم، غير أن عراكه غير المتكافئ مع كياز، أدى إلى اعتكافه في خيمته ثلاث ليالٍ متعاقبة، رفض خلالها الاستجابة لمحاولات إرضائه، كما رفض استقبال كياز الذي دفعه الغجر إلى الاعتذار له في الليلة الثالثة لاعتكافه، وفكّر جاداً بالرحيل عن خيام الغجر، وإذ عرض الفكرة على زوجته بهاج، تلّقى بغيظ صفعة رفضها الذي تضخّم في نفسه، وتحوّل إلى ظنون حارقة التهمت قلبه وأحشاءه!

هو لم يقتنع للحظة بظنونه تلك، إنما كان ميالاً إلى صبّ جام غضبه على شخص ما، غير كياز الذي لا يستطيع مجابهته، كان يريد تفريغ شحنات غيظه المكبوت، تلك الشحنات التي انحشرت في قلبه، فضاق بها، وإذ لم تجد بدّاً من الخروج، بحثت عن أول منفذ لها في جدران ذلك القلب، لتندفع عبره إلى أقرب الناس إليه، أقرب الناس إلى ذلك الفؤاد، فكانت بهاج؟! "أعرفك يا خالعة، تريدين البقاء هنا؟ عند كياز" صاح بها مغيظاً، فَرَدّت بسؤال مندهش مصعوق "ماذا تقول يا سبلو؟" "ابقي هنا، لا أريدك، لا أريد أن أراك، سأرحل وحيداً يا خالعة!؟".

لكن بهاج استطاعت فهمه كما لو أنها تعيش في مرجل قلبه "طيب، سأرافقك، سأرحل معك حتى إلى النار".

حينها تنهد واستدار، ربما هرباً من عينيها اللتين نفذتا إلى فؤاده، ربما ليتمكن من تصريف دموع غيظه التي حدرت بصمت!

- ٩ -

حينما فرغت العجوز من تلمُّس ودعاتها قالت، إن الشريرة توسطت بقية الودع، قالتها بلهجة واثقة عارفة، وموحية! ثم هزّت رأسها بأسى " لا ترحلا يا سبلو، لا ترحلا ".

" ماذا تقولين؟ "

وسبلو لم يتوقف عند نبوءة العجوز على الرغم من توسُّلها الحزين "وتموتان مقتولين؟ " فقد تأفف بضيق في وجهها " أووه يا عجوز، صدفك كله موت " ثم ذكّرها بتوقعاتها التي لم تصب، ورؤاها التي أخطأت ولم تتحقق، لكنه بمحاولاته تلك، إنما أراد القفز عما أثارته

تلك النبوءة في نفسه من توجُّس مُرعب امتدّ إلى ما بعد ارتحاله الحزين عن خيام الغجر.

لم يستطع سبلو اقتلاع هاجس تلك النبوءة، بل لقد رأى طيفها من جديد حينما شاهد في طريقه إلى الوادي امرأة عجوزاً في ثوب أسود ممزق، وهي تقطف أوراق التبغ من حقل مصفرٍ ناشف! حينها تردد صوت نظما، أم هاج في أذنيه بوحشية " وتموتان مقتولين؟".

حينها أيضاً، تصلّب الجلد في رأسه!

- ١٠ -

ما أن انتهى من صقل بيته في الوادي حتى نقل أمتعته وزوجته من موقع الخيمة المؤقتة إلى ذلك البيت، ثم بدأ بفض الأعكام وترتيب الأمتعة من دون الالتفات إلى صراخ طفلته هاجار في حضن أمها، ودار في فناء الغرفة مطرقعاً أصابعه بحيرَة من غيَّبهُ الذهول " ما رأيك يا هاج، هل أدق مسامير الملابس هنا؟" سألها مشيراً إلى إحدى الزوايا، فأجابت متثائبة " كما تريد" فأكمل " طيب، والسراج يا هاج؟ أين أضع السراج؟" و " هل نضع الفراش هنا، تحت الشباك؟ ".

كثيرة تلك الأسئلة التي قذفها في وجه زوجته، غير أنه كان يدرك بأنه هو المعني بأسئلته تلك، وأنه بذلك إنما يوجه أسئلته إلى نفسه باحثاً عن إجاباته هو، بدليل أنه لم ينتظر كلمات زوجته، بل ربما أجابت هاج عن بعض تلك الأسئلة لكنه لم يسمعها في غمرة بحثة عن إجاباته! وإذ انتهى من وضع آخر اللمسات على تلك الغرفة، تأملها من الداخل والخارج، ودار برفقة زوجته حولها، تفقّدا واجهاتها الأربع، كوّما

حجارة الآرام في زوايا الأرض المحيطة، تفقدا قنّ الدجاج الطيني وبرج الحمام الخشبي، وتحادثا عن الحمام والدجاج.

بعد أيام ابتاعا من إحدى بدويات الأسواق ست دجاجات، وديكاً فحلاً، وست حمامات بيضاء اللون، وتبين لهما أن في مراقبة الحمام متعة لا سبيل إلى بلوغها إلاّ بالمواظبة على تلك المراقبة، لذا اعتادا القرفصة على الصخرة المستوية أمام الباب كلما خفت حدة الشمس، من أجل رؤية الحمام!

أما ذلك الصراع، الدامي المميت، الذي نشب بين ديكهما المزركش ذي العظام البارزة، وبين ديك عثمان أبو بركة ذي العظام البارزة أيضاً، فقد انتهى بهزيمة نكراء لديكهما، مما زاد من إحساس سبلو بهزيمته هو، حتى أن ذلك الإحساس ظل ماثلاً في ذهنه طيلة الأيام التالية التي اعتاد خلالها ديك أبو بركة غزو دجاجاته الست، وحينما توالت غزوات ذلك الديك، تخلص من دجاجاته، ومن ديكه الهارب المهزوم.

- ١١ -

حينما انتهى وزوجته من ترتيب بيتهما، تمنى لو يتلملم كل غجر الدنيا حوله، ليروا إنجازه لبيته المختلف عن خيامهم وخرابيشهم! وسبلو يعرف " ديونه" جيداً، ويعرف لمن قدم الذبائح ولفائف المسك والكعكبان في مناسبات الزفاف والختان والشفاء والعودة من أسفار الشمال، لكنه أصيب بنوبة من الفرح، يوم زاره عثمان أبو بركة وزوجته وبناته اللواتي استطعن إخفاء استصغارهن للغجر، فداعبن ابنته هاجار، وأخرجت إحداهن من جيب ثوبها عدداً من مكعبات السكر،

وقدمتها لها، فتركت هذه اللفتة في نفس هاج أثراً بالغاً أدى إلى تفاؤلها اللّحْظيّ السريع، أما هو فاستمع إلى نصائح عثمان أبو بركة حول طريقة العيش في الوادي، والحصول على الحاجيات من الحي الشرقي، وجلب المياه من النبع، وضرورة الانتباه والحذر من الأفاعي والعقارب واللّصوص الذين يعيشون كالصقور في كهوف الأعالي! كما استمع إلى النصيحة المهمّة التي ذكرها عثمان أبو بركة، وهي أن لا يترك شيئاً من حاجياته خارج بيته، وأن يغلق بابه جيداً عند النوم. وإذ انتهت تلك الزيارة، أحسّ بأن الحياة في عزلة الوادي تتطلب الكثير مما لم يحسب حسابه، وراعه أن زائره تحدث كثيراً عن اللّصوص وخطرهم، غير أن إحساساً مريحاً تسرب إلى نفسه القلقة، فأدخل الطمأنينة إلى قلبه، فقد تذكّر بأنه ليس وحيداً في الوادي، وأن هناك من يشاركونه الحياة فيه، لذا قرر تطوير علاقته بجيرانه، تماماً مثلما توصلت هاج إلى ضرورة تحسين علاقتها "برحمة" زوجة عثمان، وبناته، من أجل الخروج من صقيع الوادي.

- ١٢ -

لم يمض سوى بضعة أسابيع على بداية انتظار سبلو، حتى حضر الغجر على ظهور خيولهم وحميرهم، مصطحبين معهم نساءهم وأطفالهم وهداياهم.

غجر كثيرون حضروا إلى الوادي، حاملين في قسمات وجوههم آثار إحساس مؤلم بالذنب دفعهم إلى التنادي بالعشرات، من أجل زيارة " حبيبنا سبلو"، ويبدو أن غيبة سبلو وزوجته طالت في مخيلات الغجر، حيث أحسوا حين التقوا بهما، أنهم لم يروهما منذ دهر، لذا تميز

لقاؤهم بالعناقات الحارة والمفاغمات الحميمة، وحتى كياز الغجري، فقد حضر إلى الوادي مصطحباً زوجته " سمار" وطفله الرضيع "عرقي" وثلاثاً من العنز الشامي.

- ١٣ -

في البداية لف الغجر ذلك التوجس الذي يصيبهم كلما أقاموا أو توقفوا في مكان جديد، غير أنهم ما لبثوا أن أنِسُوا جلساتهم، وأَلِفوا مشهد الأعشاب بتيجانها الصفراء والبنفسجية، ومسرب الجِمال المتعرج الممتد، ثم الصخور الداكنة على سفح الجبل الجنوبي المقابل، كما أَلِفُوا مشهد الجرف المنحدر من الجبل الشمالي نحو القاع.

لقد تفحصوا بعيونهم كل الجهات حال وصولهم الوادي، ونظروا إلى عثمان أبو بركة وأسرته بحذر مبعثه جهلهم بتفاصيل حياة أولئك "الفلاحين"، غير أن لغز الكهوف ظل ماثلاً أمامهم، لا سيما ذلك الكهف عند استدارة المنعطف!

أفصح الغجر عن تطيّرهم حال رؤيتهم الصخرتين الحادتين عند مدخل الكهف، وقال أحدهم بأنهما مثل نابين شريرين في فك ذلك الكهف المظلم! أما أجمة السرو فسلبت اهتمامهم وفضولهم على مدار الساعات الأولى لزيارتهم، وعندما مرت ليلتهم بسلام، وأشرقت شمس نيسان على الأعشاب الندية، انبهر الغجر، وارتدّت تساؤلاتهم إلى أعماقهم، ثم اجتاحتهم رغبة عارمة في الركض والغناء والعبث، فأخذوا يتراكضون ويتصايحون ويتغالبون ويقرصون بعضهم بعضاً، رجالاً

ونساء وأطفالاً، وانقلب حذرهم فرحاً غامراً، كما امتطى ثلاثة منهم الخيول، وتلاحقوا عبر مسرب الجمال، وإذ وصلوا المنعطف، بَهَرتُهم أجمة السرو فترلوا عن ظهور خيولهم، واقتادوها من لُجُمها مستطلعين تلك الأجمة، وحينما تعمقوا بين سيقان السرو أبطأوا السير، ثم توقفوا، وتوصلوا كلّ على انفراد، إلى ضرورة العودة إلى بيت سبلو.

لم يناقشوا الأمر فيما بينهم، بل امتطوا خيولهم عائدين من حيث أتوا، كأنما هم على اتفاق.

- ١٤ -

عند الغسق، أشعل الغجر نيرانهم، وأقاموا عرساً تهاربت من صخبه كل الحيوانات والزواحف والحشرات التي تدور حول بيت سبلو كل ليلة، أما عثمان أبو بركة وأسرته فقد هزوا رؤوسهم أمام بعضهم معلقين " غجر! صحيح انهم غجر"، لكنهم لم يستطيعوا مقاومة رغباتهم في التفرج على ذلك العرس، وسهروا أمام بيتهم المطل على ساحة العرس، وحاولوا أن يفهموا ماذا يقول الغجر؟! ماذا تقول أغنياتهم؟

كانوا يغنون بلغتهم ذات الزوايا الحادة، والمخارج الدقيقة، على الرغم من معرفتهم بلغة العرب التي تعلموها خلال تجوالهم في أسواق المدن وأعراسها وساحات أعيادها.

عثمان أبو بركة وأفراد أسرته استطاعوا فقط أن يفهموا اللغة المشتركة الصامتة، التي نطقت بها خصور النساء وأكتاف الرجال، فقد رقص الغجر بحبور، بعد أن احتسوا العرق الذي أحضروه معهم، كما

عزف سبلو ألحانه النشوى بعد أن تجرع كأسه الثالثة، وتناسى عقدة هزيمته أمام كيّاز الذي رقص بتهور، وتألّقت بهاج حين شاركت بالرقص مستعيرة الصنوج المعدنية من إحدى الغجريات، وتثنّت أمام جمع الساهرين والساهرات بوزرتها السوداء المذهبة، وقميصها الذهبي الضيّق حيث استدارات النهدين.

كما تألقت "سمار" زوجة كياز الملتهبة، وتبين لكياز أن زوجته أطول من بهاج بقليل، غير أن هذا لم يثنه عن التهام جسدها بعينيه، على الرغم من التحذيرات التي أطلقتها عينا زوجته "سمار" وعيون الغجريات اللائي تَلَوَّيْنَ أثناء أداء رقصاتهن، ولكي تدلّل سمار على رغبتها في إجراء مصالحة نهائية مع سبلو وزوجته، تناولت البزق من بين يديه، ووضعته جانباً، ثم شدّته من معصمه لتراقصه على وقع طبلٍ منفردٍ لم يصاحبه سوى صفق الأَكُفِّ المتحمسة، وصيحات الإعجاب بتلك الرقصة الثنائية التي أبرزت رشاقة سمار، وأنوثتها الطاغية، وخفة أصابعها في قرع الصنوج.

لقد انطلق سبلو عبر نشوة العرق فرقص ببراعة أدهشت بهاج، فأفرحتها، فاستجابت إلى دعوة كياز لمراقصتها بعد أن أفلتت معصمها من قبضته.

- ١٥ -

رقص الغجر وغنوا حتى الهزيع الأخير من الليل، وعندما كلّوا، فرشوا طراحاتهم وبطانياتهم على الصخرة المستوية أمام الباب، ثم تناقشوا بصخب وطيش حول فكرة الاستقرار في الوادي، على الرغم من معرفة سبلو بأن تلك الفكرة ليست سوى مسخ نتيجة أفرزها خواء

ما بعد احتساء العرق، إلا أنه خرج عن صمته، واستمات في إقناعهم بخطورة الوادي ولصوصه وكهوفه، غير أن كياز وزوجته استحسنا الفكرة بعد أن جرّبا الإقامة في ذلك البيت، وشاهدا كيف توضع الأشياء داخله في أماكن ثابتة، وكيف لا يطفئ الهواء السراج، وكيف تظل الأمتعة والأواني نظيفة بمعزل عن التراب والغبار، وكيف ينام المرء آمناً غير عابئ بمخلوقات الليل ورياحه.

على أنّ أكثر ما أثار إعجاب سمار، ما شاهدته في الوادي خلال النهار من أعشاب وزهور ومساحات خالية إلاّ من هواء نيسان النقي، ومن رفيف الفراشات في فضاء التجمعات المبهرة للزهور البرية، لذا تبنّت وزوجها باستبسال، فكرة استقرار الغجر في الوادي، لكن كياز اضطر إلى وقف اندفاعاته حال تنبُّهه إلى ذبول عيون جلسائه وتثاؤبهم، وتناسُل النسوة إلى داخل البيت طلباً للنوم، وإذ استلقى الرجال على فرشات القطن المتدرنة وبطانيات الصوف، استلقى مثلهم على ظهره متأملاً بعينيه، نجوم نيسان الحادة البريق في السماء الحالكة، وأخذ يرسم في خياله فكرة استقرار الغجر في الوادي، تلك الفكرة التي لم تكتمل ليلتئذٍ، بسبب النعاس المفاجئ الذي طواها فأغلق خياله، وحتى عندما أفاق في الصباح، فإنه لم يجد الفرصة لإكمال خيوط فكرته، بسبب الخواء الذي سكنه بعد صخب ليلته، وحينما أتم استعداده للرحيل، ودّع سبلو وبهاج بحرارة وحزن، ثم قبل ابنتهما هاجار، وركب حصانه عائداً وركْب الغجر إلى خرابيشهم وخيامهم.

برحيل الغجر عن الوادي، أحس سبلو وزوجته وحتى ابنته، بفراغ كبير لم يعهدوه منذ أن بدأوا مغامرة الخروج عن بني قومهم، وتنبهوا أكثر من ذي قبل إلى خواء الوادي وخلوه من الحياة، كما شدّهم الحنين إلى حياة الغجر وطقوسهم وسهراهم، وتحادث الزوجان بتحبب عن أفعال زائريهم مستذكرين طرائفهم وشقاواهم، وأثنت هاج على الغجريات اللائي ساعدها في تحضير الطعام والحلوى، وفي تنظيف الأطباق الفخارية وصحون التوتياء، ثم تفقدت وزوجها للمرة الثالثة، رؤوس الماعز الشامي التي أحضرها الزائرون معهم، وفكّروا معاً في كيفية الحفاظ على ذلك القطيع المكون من ستة عشر ماعزاً، وهي ما تبقى لديهم من هدايا الغجر بعد أن فرسوا أربع ذبائح خلال زيارهم، وقدموا لعثمان أبو بركة وأسرته ذبيحة أخرى عربوناً لعلاقة جيدة معه ومع أسرته.

حينما جن الليل، ربط سبلو قوائم الماعز بالحبال كي لا تبتعد عن بعضها، لكنه فوجئ في صبيحة اليوم التالي، باختفاء ثروته تلك! وتفحّص غيرمصدق، آثار حوافر الماعز وبقايا بعرها، ثم نادى زوجته لتساعده على إدراك الكارثة الماثلة أمامه، وإذ لحظ الرعب في عينيها السوداوين، دار بجنون حول بيته باحثاً عن قطيعه، ثم زعق على عثمان وأولاده، سألهم المساعدة في فهم لغز اختفاء الماعز، وحين واساه عثمان " اطلب العوض من الله، ألم أحذرك من اللصوص؟" صاح بطيش "سأصعد إلى كهوفهم، سأطالبهم بقطيعي"، فكبحه عثمان" لست نداً لهم يا سبلو، إهم مجرمون، يسرقون الدواب ويذبحوها، وفي الصباح

يحملوها إلى الأسواق قطعاً، ويبيعوها إلى أهالي المدينة"، ثم سرد أمامه الكثير من الأحداث المشابهة، وحدثه عن فقدانه لأثني عشر رأساً من الغنم بنفس الطريقة، وحينما تنبه إلى وجه سبلو المتسفّع، كرر مواساته "عوضك على الله يا رجل، كن حذراً في المرة القادمة"، فاستدار بيأس وهزال "هذا إذا كان هنالك مرة قادمة"، ثم دخل بيته نادباً بدايته العاثرة في الوادي، مفكراً في الطريقة التي عليه اتباعها من أجل الحصول على النقود بعد أن نفدت مدخراته، وضاعت ثروته من الماعز التي كان من الممكن أن تعينه على حياته.

- ١٧ -

كيف تمّكن سبلو من النفاذ إلى المدينة؟ كيف عرف بيوتها؟ كيف داهم أعراسها ومناسباتها؟.

عند الغروب، يودع سبلو زوجته وابنته، ثم يركب حماره ذا الشعر الشوكي ويسير على هدي كشافه اليدوي، وحين يقترب من أحد أحياء المدينة يبحث بعينيه وبأذنيه المنتصبتين عن ضوضاء الأعراس وأضوائها، ثم يستحث حماره بضربة من عصاه التي خلفت على جلده كدمات داكنة.

لقد لجأ سبلو إلى طريقة طريفة في فرض نفسه كعازف في تلك الأعراس، إذ ما أن يصل مكان العرس، حتى يقتحم ببزقه حلقة الغناء والرقص متخذاً له مكاناً قريباً من الطبالين أو المغنين، كأنما هو واحد منهم، ولقد يتساءل أصحاب العرس عمن دعا هذا الرجل الغريب، ويتنادون سراً وعلى انفراد، يهزون أكتافهم أمام بعضهم بالنفي، وقبل أن يتوصلوا إلى حل بشأن ذلك الغريب، يكون قد استحوذ على

إعجاب الحاضرين، فتدبّ الحماسة فيهم، فيبدأون التصفيق والرقص على أنغام بزقه! حينها تضيع تساؤلات أصحاب العرس، ويندمجون في بهجة ذلك القادم الغريب " المهم أنه أحيا السهرة " يقولون مُسوِّغين حرجهم أمام ضرورة توجيه السؤال إليه، "كانت السهرة ميتة قبل أن يأتي" يقولون " الحمد لله على أنه جاء"

وحتى حين يجرؤ أصحاب العرس على توجيه السؤال إليه، فإنه يدّعي بأن رجلاً جاءه إلى بيته ودعاه إلى العزف في العرس، وحين يسألونه عن الرجل الذي دعاه، يتظاهر بالبحث عن ذلك الرجل! وبين حرج السؤال الذي قد يُفسد العرس، وبين استحالة الجواب، يُغلب أصحاب العرس ويسمحون له بالعزف مقابل "الإكرامية".

- ١٨ -

كان من الممكن أن تستمر حياة سبلو على هذا النحو: نوم ليلي متأخر، أحلام ورؤى هواجس، صحو ظُهري موجع، جلسات شبه يومية مع عثمان أبو بركة، مراقبة الحمام أثناء هديله وعشقه، مداعبات حنونة لطفلة اسمها هاجار، جلسات هادئة وصاخبة مع زوجته بهاج، وحياة قد تتطور نحو الأفضل، حياة تهبه فرصة السلام والنسيان !

لكن ما حدث في إحدى ليالي آب الموحشة، تحوّل بسبلو نحو بداية جديدة ما كان لها أن تغزو حياته، لولا حركة عفوية قامت بها بهاج في لحظة قاتلة.

كان الوقت يحنُّ إلى الغروب، وجنادب الوادي تكف عن التقافز بين الأشواك المتقصفة في سكونه العميق. ما أعمق السكون في الوادي. والرجل الذي طرق باب سبلو، دعاه إلى العزف في " حفل الأعالي".

كان الرجل مربوع القامة، وسيم الملامح، لكن عباراته الرصاصية محت كل آثار وسامته تلك " أين ستقيمون الحفل؟ " تساءل سبلو بارتياب سرعان ما تحول إلى فزع، فقد أشار الرجل بإبهامه إلى أعالي الجبل الشمالي، وقال بصوته الرصاصي " هناك، فوق"، وكهوف اللصوص هي التي فوق، سبلو عرف هذا، لكنه لم يجرؤ على الافصاح عن ارتيابه، كما لم يستطع اتخاذ قرار حاسم يهدّئ من روعه، كان أشبه بورقة ترتعش أمام زوبعة نظرات ذلك الرجل، المربوع القامة، القاسي العينين!

في تلك اللحظة من غفلة الحياة، أطلّت بهاج من الباب مستطلعة "وسندفع لك، لأن الحق حق"، قال المربوع بليونة مبعثها ذلك الظهور المفاجئ للمرأة المفاجئة المطلة من حلق الباب، "أسمعت؟ الحق حق" كرر الرجل، فاختفت بهاج في شحوب الغرفة هرباً من تينك العينين اللتين سُلّطتا نحو صدرها المندفع "سآتي" قال سبلو، فاختتم المربوع اللقاء"عظيم، سننتظرك" ثم استدار صاعداً الجبل، تتبعه عواصف الريبة.

- ١٩ -

من الطبيعي أن يفكر سبلو في أمر تلك الدعوة، فاللصوص لصوص! ومن يدري ما الذي يمكن أن يفعلوه به؟ لكنه أدرك بأنه لن يستطيع التخلف عن موعده، لأن اللصوص أيضاً، لصوص! أما مشاركته فيها، فأمست أكثر بديهية من حلول الليل "ما رأيك يا عثمان" قال بعد أن سرد التفاصيل الدقيقة للزيارة الغريبة التي قام بها الرجل إلى بيته "قل لي يا عثمان، ما رأيك؟ فأنت أعرف بهم "، وعثمان رأى أن يستجيب سبلو لطلبهم مهما كانت النتائج، لأن

دعوهم تلك، هي أول احتكاك مباشر به من جانبهم، وعليه إن أراد العيش بسلام في الوادي، أن لا يخرج عن طوعهم!

- ٢٠ -

امتنعت بهاج عن تناول الطعام في تلك الليلة، وودّعت زوجها في حزن من تودع مسافراً لن يعود، وشيعته بنظراتها حتى اختفى وراء الصخور العالية، وحين عادت إلى الغرفة، حاولت إيجاد تبرير للحزن الذي دهمها حال ابتعاد زوجها، بل لقد ترافق ذلك الحزن بوشيش خافت متصل خارج من قلب السكون، وتساءلت عمّا يمكن أن يحدث؟ وأجابت نفسها مراراً: سيعزف لهم، وفي أسوأ الأحوال لن يدفعوا له أجرته!.

ثم تشاغلت بتنظيف الأكواب الزجاجية، والأواني المعدنية والفخارية، وباحة البيت، والصندوق البني في الزاوية، ثم أعدت لنفسها كوباً من الينسون، شربته من دون إحساس بحرارته العالية، وعادت إلى الصندوق، فتحته، تفقّدت منديلها الأسود وأساورها المعدنية، تنشّقَتْ فُغْمَةَ مساحيق الطيب، فتذكرت نبوءة والدها، فأعادت بفزع كل محتويات الصندوق وأغلقته، كأنها بذلك تريد كتم مساحيق الفزع! وحينما دارت في الفناء متأفّفَة، بدت لها الغرفة أصغر من ذي قبل، كما بدا ضوء السراج أكثر شحوباً، أمّا ابنتها هاجار ذات الأعوام الثلاثة، فأسهمت بنومها المبكر في تعميق مخاوفها. وفي محاولة منها لقهر ذلك الخوف، فتحت النافذة على غير عادتها، فرأت أبواب دار أبو بركة موصدة، وقناديلهم مطفأة. استدارت نحو الباب، جازفت بفتحه، فشاهدت أسراباً من اليراع تتطاير كالشرر في باحة الدار، وإذ سمعت

الصدى البعيد لأوتار البزق، وللأصوات المترنحة، والتصفيق غير المنتظم، تبدّدت بعض مخاوفها "إذن صحيح ما قاله الرجل!، إنهم يحتفلون! فلماذا الخوف؟" قالت بفرح مسموع، وأحسّت بتعاطف مفاجئ مع أولئك اللصوص الذين "ظَلَمْتُهُم" قالتها بصوت مرتفع، وبدلاً من أن تقفل الباب، ظلت واقفة على عتبته، لتسمع أصداء أوتار البزق بين يدي زوجها الذي عزف حتى سال العرق من جبهته الكهباء إلى لحيته، وجسأت يده اليمنى، دون أن يتمكن من اختلاس لحظة يريح خلاها تلك اليد.

كان مرح اللصوص مدجَّجاً بالقسوة والإلحاح، وإذ انتهى حفلهم الشيطاني، تنهد سبلو بأنفاس من أزاح عن صدره عبئاً قاتلاً، ومسح العرق عن وجهه بكمّي قميصه البنيّ الفضفاض، ثم نهض مستأذناً، لكن الرجل المربوع، يرافقه رجل آخر معتم الوجه، أصرّا على مرافقته حتى بيته، ضماناً لسلامته كما قال المربوع، ولأن الوقت متأخر وظلام الوادي مخيف، حسبما قال الرجل الآخر. وعلى الرغم من رفض سبلو لعرضهما، وتخلّيه السهل عن أجرته، إلاّ أنهما تأبّطا ذراعيه بصخب وبحميمية غريبة. وفي أثناء انحدارهم نحو بيته، مازحاه مستخدمين أيديهما ونكاهما البذيئة، وحينما وصلوا، ودّعاه فتنفس، ثم طرق الباب تملؤه رغبة غريزية في الانسلال داخل بيته، حيث السلامة التي لم يظفر بها في ليلته تلك، إذ ما أن فتحت هاج الباب، حتى ظهر الرجلان من وراء إحدى الصخور القريبة، واندفعا وراءه إلى داخل البيت، وأغلقا الباب وراءهما بعنف.

في تلك الليلة قُتِلَتْ بُهاج.

***

أبو سلمان حامد أبو بركة

- ١ -

عندما بدأت المدينة زحفها باتجاه الوادي، بوغت عثمان أبو بركة، ولم يصح من ذهول الفكرة التي راودته حينئذ، إلاّ بعد أن حطّت الأسر الأربع الجديدة رحالها في الوادي!

تلك كانت المفاجأة التي دعت عثمان إلى التفكّر، والتنهد، وتمسيد لحيته الرصاصية بأصابعه الطويلة، والتمشي في أرجاء البيت، والتشاور مع أولاده الأربعة الذين تقاطعت خطوط آرائهم، ثم التقت عند نقطة واحدة: لا بد من التحرك.

اتفقوا، ثم اجتازوا الوادي معاً، كأنما يريدون أن يقولوا لأفراد الأسر الأربعة الجديدة: نحن هنا، بمسدّساتنا الخمسة، وخناجرنا المعقوفة الخمسة، ونسيج هيبتنا الحديدية!

عثمان أبو بركة أصيب حينئذ، بموجة من الزهو دعته إلى استلال مسدّسه من " سلحلكه" المرصّع بالرصاص، وإطلاق عدد من العيارات النارية في الهواء، تعبيراً عن حالة لم يستطع احتمالها. كما توجه مع أبنائه إلى البقعة التي أقامت فيها الأسر الأربع، وكان عددهم خمسة وثلاثين فرداً، بينهم خمسة شبان، وأربعة رجال تجاوزوا الأربعين، ورجل مسن وقور يعتمر كوفية وعقالاً، ويرتدي عباءة سوداء مذهبة الأطراف، تماماً كعباءة عثمان أبو بركة، ورائحة البارود لم تكن

غادرت أنف عثمان أو أي من أبنائه حينما خاطبوا أفراد تلك الأسر بلهجة مستمدة من زهو الاعتداد، ومشحونة برجع أصوات الطلقات.

في ذلك اليوم انتزع عثمان أبو بركة من أفراد الأسر الأربع، اعترافاً بملكيته لأراضي الوادي على الرغم من تيقنه من أن اليوم الذي سيظهر فيه مالك الأرض الحقيقي، لا بد أنه آت.

خلال الأيام التالية، ابتدع عثمان نظاماً لبيع الأرض، حيث حدد للمتر الواحد سعراً ثابتاً قيمته عشرون قرشاً، واضطر السكان الجدد إلى دفع أثمان الأراضي التي اختاروا إقامة بيوتهم عليها! غير أن واحداً منهم، تجرأ على النطق في حضرة عثمان، وتساءل عما إذا كان سيتم تسجيل تلك الأراضي بأسماء المشترين؟

هنا عبث عثمان بأنفه المعقوف، مسد لحيته الرصاصية، وضم طرفي عباءته قائلاً، بأن أرض الوادي غير قابلة للتسجيل بسبب تصنيفها الزراعي! وقبل أن يتعمق السائل في أسئلته، أضاف بوقار وحسم "كل شيء في أوانه خير."

- ٢ -

هكذا استولى أبو بركة على أراضي الوادي، من دون أن يعرف شيئاً عن المالك الحقيقي لتلك المساحات الممتدة من النبع الشرقي، إلى ما تطاله سطوته من اللانهايات الممتدة وراء الجهات الثلاث الأخرى، ولقد ترسّخت ملكيته تلك على مر الشهور، بحيث غدت واحدة من مسلمات الحياة في الوادي، وصار لزاماً على كل من يريد البقاء فيه، أن

يدفع ثمن الأرض التي يختارها لعثمان الذي عرفه الناس بكنيته، فخاطبوه قائلين " يا أبو بدر".

- ٣ -

لكن " أبو بدر" لم يعمر طويلاً، فقد اختطفه الموت بعد عام واحد من ارتحال أبنائه الثلاثة الذين انخرطوا في الجندية، أما حامد، أصغرهم، فلم يفعل مثلهم لأسباب عديدة، منها رغبته في البقاء إلى جانب والده، تلك الرغبة التي باركها أبو بدر في حياته، ومنها جبلّته النفسية التي تدعوه أبداً، إلى إصدار التعليمات لا تلقيها! وحتى في علاقته بأخوته الثلاثة " بدر ونايف وجاسر" فقد كان نافذ الكلمة قوي الحجة.

كان أبو بدر يعرف هذه الحقيقة، ويرقبها بفخر مبعثه ذلك الشبه الغريب بينه وبين ابنه الأصغر " حامد"، وكان يعزو لنفسه الفضل في تنمية بديهة ابنه هذا وحجته وحكمته المبكرة، أمّا أبناؤه الثلاثة الآخرون، فكثيراً ما تبرموا بسبب التميز الذي حظي به شقيقهم حامد، لكنهم احتملوا قسوة والدهم عليهم، منطلقين بهذا من مسلماتهم الأسرية التي تستدعي إطاعة الأب، واحترامه، والسكوت على كل أفعاله، حتى لو تضمنت تلك الأفعال، قطع رقابهم.

كان يقول لأبنائه الثلاثة كلما زجرهم أو وبّخهم " أريدكم رجالاً أشداء أقوياء أذكياء" وكان يجد في عبارته هذه خير تبرير لقسوته، وخير منقذ له من مُشْوِكات ضميره المسائي، لكن الأخوة الثلاثة توصلوا إلى ضرورة البحث عن حياتهم المستقلة التي ستهبهم فرص امتلاك أنفسهم وأسرهم الصغيرة، كما توصلوا إلى أن الانخراط في

الجندية خير وسيلة لتجنب انفجاراتهم الأسرية المحتملة، فأقاموا وزوجاتهم وأطفالهم في المناطق التي عينوا فيها، وبذا نزعوا فتائل البارود من حيواتهم، وحياة والدهم ووالدتهم وشقيقهم الأصغر حامد.

- ٤ -

حامد هو الذي امتلك سيارة " الفورد " الحمراء العمومي قبل وفاة والده بشهور، أما أراضي الوادي، فظلت بحاجة إلى المزيد من الهيبة اللازمة لامتلاكها وحمايتها.

هذا ما فعله حامد أبو بركة الذي كرر فعلة والده، لكن بطريقة مختلفة، فعندما توفي أبو بدر، حضر أبناؤه الثلاثة إلى الوادي، وأقاموا فيه خمسة أسابيع متصلة، وقبل أن يعودوا إلى أماكن سكناهم وأعمالهم، أحاط حامد نفسه بثلاثتهم، وتجول وإياهم مراراً في الوادي كأنما ليُذكّروا السكان بوجودهم المتحد المتماسك على الرغم من اختلاف أماكن سكناهم، ولقد استمد حامد من وجودهم قوة مكنته من التهيؤ لإكمال شوط والده المتوفى، تساعده في ذلك طلعته المهيبة الناجمة عن ارتدائه عباءة والده السوداء، وحطته وعقاله وسرواله، حتى أن زوجته عائشة علقت بامتعاض على هيئته الجديدة قائلة، بأن هندامة ذاك أضاف إلى عمره عشر سنوات على الأقل، بحيث بدا وكأنه تجاوز الأربعين من عمره.

والحقيقة أن تلك الملابس، أعادت إلى أذهان المحيطين بحامد، صورة والده المتوفى، بل إن ولديه (سلمان وجبر) حملقا به من دون أن تسعفهما قدرتاهما على التعبير عن دهشتهما !

كانا صغيرين، وكان يشتري لهما مكعبات السكر والملابس من متاجر المدينة التي يجوبها بسيارته " الفورد". كانت رحلاته قبل وفاة والده، ملأى بصخب اكتشافه لما هو موجود أصلاً في المدينة، لكن ذلك الصخب لم يثنه عن تقديم واجباته تجاه طفليه وزوجته وأهله، فقد اشترى لهم الكثير من الأحذية والملابس الداخلية والقماش والمناديل ولفائف الحرير، وتغلب بهذا على إحساسه بارتكابه ذنوب الالتفات إلى سيقان فتيات المدينة،وذنوب اختلاس النظرات عبر مرآة سيارته، إلى صدور الراكبات فيها، وكثيراً ما تحول إحساسه بالذنب تجاه زوجته عائشة، إلى مبالغات غريبة من جانبه، كتقديم الهدايا الثمينة لها، وعبارات الحب التي دخلت قاموس ألفاظه بفعل مشاهداته للأفلام العربية في دار السينما.

غير أن حامد توقف بشكل مفاجئ، وإلى الأبد، عن العمل في مهنة السواقة تلك، فقد بلغه خبر وفاة والده، أثناء انتظاره امتلاء سيارته بالركاب في سوق المدينة المكشوف، مما أدى إلى انهمار دموعه التي لم تحدر قط، منذ أن شب وغزت جسمه معالم الصبا والرجولة، وحينما عرض زملاؤه السواقون فكرة إيصاله إلى بيته خوفاً من تهوره في القيادة، رفض منطلقاً بسيارته إلى الوادي، من أجل إلقاء النظرات الأخيرة على جثة والده الذي أحبه إلى حد لم يستطع معه تخيل فكرة موته، أو انسحابه من حياته، أو من حياة الوادي، وفكر أثناء قيادته المجنونة سيارته الحمراء بإمكانية التباس الأمر عليه، أو على من أوصله الخبر، أو حتى على يقظته، وقبل أن يتفرع بسيارته من الشارع الشرقي المعبد إلى مدخل الوادي الترابي، فوجئ بشاحنة كأن مقدمتها وجه جرادة، تجتاح سيارته، فتهشم جانباً من ساقه اليسرى، وفخذه اليسرى، وذراعه اليسرى، وأنفه المعقوف الذي شُقَّ إلى نصفين تم لأْمُهُمَا خلال فترة

غيبوبته في المستشفى، كما تمت معالجة جروح ساقه وذراعه، من دون استخدام قوالب الجبس أو شرائح الأخشاب أو أي من مصحّحات الكسور، ذلك أن نتائج التصوير الشعاعي أُظهرت سلامة عظام ساقه وفخذه وذراعه، أما صورة جمجمته، فظهر في جانبها الأيسر صدع صغير أشاع القلق في عيون الأطباء، خصوصاً حينما قرنوا وجود ذلك الصدع، بغيبوبته المتصلة على مدار الأيام الثلاثة الأولى لإدخاله المستشفى، غير أن قلق الأطباء تلاشى عندما صحا حامد من غيبوبته، وحينما تأكدوا من سلامة نطقه وذاكرته وسمعه وبصره، نقلوه من غرفة الانعاش إلى إحدى غرف الطابق الثاني، لكن الغيبوبة الهذيانية المتقطعة عاودته من جديد، مشبعة بروائح النشادر والمطهرات واليود ومساحيق السلفا، وهنا خَمَّنَ أحد أطباء المستشفى، إمكانية وجود داء في جسم حامد "وإلا ما سبب عودة الغيبوبة؟" تساءل الطبيب بلهجة أكاديمية صرفة، وبعد إجراء تحليلات الدم والبول والغائط، تبين للأطباء أن داء "السكري" أخذ طريقه إلى جسمه.

لكنهم توصلوا أيضاً إلى أن ذلك الداء لم يزل في مرحلة البدايات، وبعد الاستقصاء تبين لهم أنه ورث ذلك الداء عن والدته " رحمة" المنحدرة من أسرة عُرف أفرادها بمعاناتهم المزمنة من ذلك الداء. ولقد أدى وجود السكري في بدن حامد إلى إطالة مدة إقامته في المشفى، حيث اتسعت جروحه، ولولا تدارك الأطباء الأمر، ومعالجاتهم السريعة المكثفة لتلك الجروح، لحفرت أخاديدها في لحمه. هذا ما قاله الأطباء حينما اعترفوا دونما حرج; بأن جهودهم تلك; ما كان لها أن تنجح لو ان السكري بلغ مرحلة الاستفحال في بدن حامد.

عندما سمح لأقاربه بدخول غرفته، تدافعوا حول سريره تسبقهم عبارات التمني، وعبرات الحزن، أما والدته البيضاء البشرة، رحمة، فَتَلَمَّسَتْ خده الأسمر متوسلة، وسط الترقب الصامت لزوجته وإخوته، وإذ صحا من غيبوبته القصيرة، استعرض وجوه زائريه عبر شقي جفنيه المسترخيين، ثم. استفسر بصوت خافت رخو عن والده، مما قلب فرحة أهله بصحوته؛ إلى حزن جديد مثقل بالتأثر والبكاء، وبدلاً من أن تشرح بهجة صحوته ملامحهم المنهكة، احمرت أجفانهم، وحدرت دموعهم! وشاعت الحكاية بعدها في الوادي، وتضخمت على ألسنة السكان، فامتدحوا حامد الذي لم تسفر صحوته أمام أهله إلا عن عبارة واحـــدة، نطقها قبل أن يعود إلى غيبوبته " أصحيح أن والدي، مات؟"

وعلى الرغم من أنه لم يقل سوى تلك العبارة حينئذ، إلا أن مبالغات عديدة رافقت انتقال الحكاية في الوادي، وَرُوِيَ الكثير عن هلوسات غيبوبته، وقيل الكثير على لسان هذا " الابن البار"، وتحول الحديث في الوادي عن فاجعة وفاة " أبو بدر" إلى حكاية رقيقة بطلها حامد أبو بركة! ومما أسهم في إنبات تلك الحكاية وإنمائها، ما عرف عن حامد من تَعَقُّل لم تثنه طفرة بلوغه العشرين من عمره، وعلى العكس مما عرف عن الشبان في تلك السن من نزق وطيش، فقد ازداد محبة وطاعة لوالده الذي زوّجه من ابنة عمه عائشة، عند بلوغه عامه الثاني والعشرين، كما خاطبه ب "أبو سلمان" حال استقباله مولوده الأول " سلمان"، لكن محبة أبو بدر لابنه حامد، لم تكن السبب الوحيد الذي دعاه إلى تزويجه المبكر له، فبالإضافة إلى ذلك؛ أحس أبو بدر باقتراب نهايته، وأراد التحرر من آثام آخر عازب في بيته. ولقد أصاب في إحساسه ذاك، إذ لم

يمض سوى ثمانية أعوام على زواج ابنه، حتى استلّه الموت من قمة مجده، أما حامد " أبو سلمان"، فتمكن بتعاونه الطوعي مع أطباء المستشفى، من استعادة صحته خلال خمسة عشر يوماً قرر على إثرها التوقف عن قيادة السيارات، إلى الأبد.

- ٦ -

حينما عاد أبو سلمان من المستشفى محاطاً بإخوته وأقاربه، اضطر إلى التزام بيته سبعة أيام متتاليـــة من أجل استقبال المهنئين بسلامته، ثم تشاغل بزيارة قبر والده في أعالي الجبل الشمالي.

كان يمضي الساعات عند ذلك القبر وحيداً مستغرقاً في رؤى مشبعة بالموت وعذابات القبر والآخرة، ويتخيل والده، فيراه بعينيه العسليتين، وأنفه المعقوف، ولحيته الرصاصية، ورقبته الهرمة، وعباءته السوداء، يتخيله داخل الحفرة، يستمع إلى ردوده على أسئلة ملائكة ذلك البرزخ، ثم يمسّد بيده تراب القبر باكياً ليس فقط من أجل والده، إنما تحسباً لموته هو، وللحظة مثوله في برزخ القبر.

لقد تحوّل انتظار أبو سلمان لتلك الحظة إلى تفكّر في أمر هذه الحياة الفانية وقيمة الإنسان الذي لا يساوي بصقة، ثم التكالب الساذج على أمور الحياة الدنيا.

كان يرزح تحت تأثير جرعات خفية من قلق اقتراب نهايته التي شاهدها بعينيه لحظة اصطدام سيارته بالشاحنة، كما رأى أثناء نومه الكثير من أحلام القبور وعذاباتها، بل كثيراً ما استيقظ من نومه المتقطع صارخاً " عفوك يا رب" و " الخلاص يا الله"، وكثيراً ما أفاقت زوجته " أم سلمان" على هذيان صحوه ونومه المبلل بالعرق، وشَكَتْ الأمر

إلى إخوته وإلى والديها، فنصحوها بضرورة الصبر والمداراة، لأن ما رآه الرجل لم يكن بسيطاً، وأن لكل حادث ذيولاً قد تطول وقد تقصر، لكنها لا تدوم.

نحل جسم أبي سلمان وشحب أثناء مروره بأزمته تلك، وطريق المقبرة تحولت إلى طيف صراط صاعد عليه اجتيازه كل يوم، من دون الالتفات إلى تفاصيل اليمين أو اليسار، أو إلى البيوت المتفرقة على جانبي الوادي، كما أوصلته حالته تلك، إلى التفكير بحل يخلصه من كابوس حياته.

فكر بالانتحار! لكنه عدل عن هذه الفكرة حال تَذَكُّره للنصوص الدينية التي تساوي بين آخرتي الكافر والمنتحر، والتي ستكون بلا شك، نار جهنّم. وتوصل في النهاية إلى أن التعبّد الزائد، هو خير وسيلة للخلاص والاطمئنان إلى الآخرة، وكان من الممكن أن يطول شوطه هذا، إلاّ أنّ إخوته وزوجاتهم وأطفالهم، أعادوه إلى تفاصيل حياتهم الزاخرة بأحاديث العمل، والجندية، وشقاوات الأطفال، والمأكولات، وأنواع المواشي، وخلافات الزوجات، والطقس، وأطماع السكان الجدد في الوادي...

على أن أكثر ما أعاده إلى صوابه، تلك الغربة التي أحسها في أثناء تعامله مع طفليه سلمان وجبر، فقد قرأ في عيونهما الكثير من معاني الحذر والارتياب، كما تحوّل تَعَلُّقهما اليومي برقبته وبذراعيه، إلى نفور منه، وكلما احتضن واحداً منهما، تملّص منه مثلما يتملّص العصفور من قبضة صياده، وحتى زوجته أم سلمان، ذات العينين الواسعتين، والشفة اللمياء، فقد ابتعدت على الرغم من التصاقها الجسدي به ليلا.

أبو سلمان أدرك كل هذه التغيرات، فقد تيقّظت أحاسيسه وانشحذت إلى حد الرهافة; وإدراك الأشياء دون تلمُّسها أو حتى رؤيتها، لذا أفاق من ذهول صدمته حينما أمعن التفكير بطفليه، وبزوجته، وبمستقبل وجوده في الوادي، وبهذه الحياة التي تتطلب الانتباه واليقظة! وحين كف عن زيارة المقبرة، اقترب ببطء من والدته، وزوجته، وطفليه، وإخوته، وتوصل ببطء أيضاً، إلى أنَّ ما فات مات، وأن عليه الاستعداد للاضطلاع بمركز والده الذي شغر بعد وفاته، كما فكر في أمر أراضي الوادي وفي المنعة اللازمة لحمايتها، فحلق شعر ذقنه، وارتدى ثياب والده، فأثار دهشة طفليه وزوجته، ثم بدأ بالتخطيط لأيامه المقبلة في الوادي.

- ٧ -

لا صحة لما قاله أبو بدر في نهايات حياته، من أن ابنه حامد يشبهه في كل شيء! لا صحة أيضاً لما أكدته أرملته أم بدر حين رأت ابنها بملابس والده، فقد قالت بلهجة قاطعة، مسحوبة من تمسكها الغامض بآثار زوجها" حامد مثل أبيه، مخلق منطق ".

أم بدر، الضئيلة الجسم، البيضاء البشرة، السوداء الثوب، الهزيلة الحركة، قالت كل هذا! لِمَ لَمْ تقل هذه العبارة قبل وفاته؟ ثم لماذا شَكَّكَتْ أم سلمان بوجود ذلك الشبه بين زوجها وبين والده؟

في الحقيقة، هنالك شَبَه خَلقي بين أبو بدر وبين نجله، فأبو سلمان رجل مديد القامة، غير نحيف ولا سمين، كوالده الذي احتفظ بهذه الصفات طوال عمره، وهو أيضاً أسمر البشرة أسود الشعر كوالده في شبابه! الاختلاف بين الرجلين وليد الأحداث، فأنف أبو سلمان مشقوق

قليلاً بسبب حادثة اصطدام سيارته بالشاحنة، وهذا بالطبع، لم يدخل في حسابات المرأتين أثناء صراعهما الخفي، غير المفهوم، حول الحياة.

اختلف أبو سلمان عن والده في طباعه وفي علاقته بسكان الوادي، فقد قام بزيارات عديدة إلى بيوتهم، واستضافهم، وفض نزاعاتهم حول الحدود غير الواضحة بين بيوتهم، كما طرق أبواباً جديدة أسهمت في ترسيخ مكانته بين السكان، فاستضاف رئيس مخفر الحي الشرقي، وأقام على قاع الوادي بمساعدة عدد من السكان، جسرين حديديين صغيرين ليتم عبورهما في أيام الشتاء؛ حيث يقطع السيل سبل المرور بين الجانبين الشمالي والجنوبي.

هل أراد أبو سلمان باختلافه عن والده، الهرب من هاجس التشابه والموت؟ هل أراد النجاة كزوجته أم سلمان، ببحثه عن الاختلاف؟

- ٨ -

ربما استمد أبو سلمان من الموت، اندفاعة مكّنْتهُ من اجتياز شواسع المسافات في أزمان قياسية! فإضافة إلى إنجازاته السابقة، قام بعد عامين من وفاة والده، بتخصيص البقعة الواسعة المحيطة بقبره من أجل دفن أموات الوادي، وكان لهذا السخاء أثر كبير في نفوس السكان خصوصاً عندما تزامنت تلك الخطوة، مع دعوة العشاء التي وجهها إلى السكان.

لقد اشترك غالبية رجال الوادي في تناول العشاء في منزل أبو سلمان وبلغ عددهم حينئذ واحداً وستين رجلاً، توزعوا وأبناؤهم داخل أسوار ذلك المنزل، في الديوان الواسع، وفي الغرفتين المتجاورتين. أما النسوة فتجمعن في المطبخ المستطيل، وفي المساحة المربعة وراء

الغرفتين، حيث ساعدن أم سلمان في طهو اللحوم على نيران المواقد الحجرية، وبالغن في غلي حساء اللبن المجمد تنفيذاً لتعليمات أبو سلمان الذي أمر بذبح خمسٍ من قطيع أغنامه منذ الصباح، وأوعز إلى زوجته بتنظيف ديوانه المضلع والدرجات الخمس المؤدية إليه، والمدخل الواسع على بعد ثلاثين خطوة من الديوان، غير أنه لم يجد مبرراً لتذكير زوجته بضرورة وضع رؤوس الذبائح على نقفات الأرز في الأطباق المستديرة، ذلك أنها تدرك بديهيات التقاليد والعادات السائدة، كما تفهم مغزى إبراز تلك الرؤوس في الولائم والمناسبات، وحتى في اللحظة التي حارت خلالها أم سلمان في شيٍّ تلك الرؤوس أم الاكتفاء بسلقها، فقد كان الدافع وراء تلك الحيرة خوفها من حدوث خطأ ما، قد يؤدي إلي حرق تلك الرؤوس أثناء شيّها، لكن أبو سلمان حسم تلك الحيرة حينما دخل باحة الطهو مستطلعاً سير الأمور، فقد قال بعد استنشاقه رائحة اللحوم في أبخرة الحساء، بأنه يفضل الطريق الأسلم المتمثل في الاكتفاء بسلق تلك الرؤوس دون شيّها.

- ٩ -

تصدّر أبو سلمان جلسة العشاء بسبحته السوداء الطويلة، وعباءته السوداء المذهبة الأطراف، وحطته البيضاء، و"سلحلكه" المرصع بالرصاص، ومسدسه المحشو الذي اعتاد السكان رؤيته مثلما اعتادوا رؤية الأسوار العالية المُقامة حول بيته.

يدرك السكان صلابة تلك الأسوار وصلابة ساكنها الذي لا يظهر أمامهم إلا ومسدسه الطاحونة على جنبه، كأنما هو جزء من هيئته المهيبة! لكن ذلك المسدس لم يكن مجرد رمز ساكن لوجود أبو سلمان،

إنما كان محشواً بالحركة والحياة والموت، وكثيراً ما عمد إلى إطلاق الرصاص في مناسباته الأسرية والخاصة، مثل زفاف أخته الأولى إلى ابن عمها، ثم أخته الثانية، فالثالثة، ومثل ختان ولديه سلمان وجبر. لا بد من إطلاق الرصاص في مناسبات كهذه، فالرصاص جزء من تقاليد أفراحه ومسرات روحه. كان يجد في الضغط على زناد مسدسه متعة خاصة، ويرى المردود الفوري لدوي رصاصاته، يراه في تعابير الجزع التي تملأ وجوه الحاضرين من السكان، وفي الانكماش الذي يصيب أجسامهم وربما أرواحهم.

- ١٠ -

أبو سلمان، على الرغم من صغر سنه الذي لم يتجاوز الثانية والثلاثين حينئذ، إلاّ أنه بدا أمام المدعوين هادئ الملامح، عميق العبارة، مقنعاً.

لكن ما أزعجه في تلك الجلسة،أنه اضطر إلى بذل المزيد من الجهد، من أجل المحافظة على استقامة صوته الذي أصابه الانثناء بسبب ارتفاع السكر في جسمه، كما اضطر للسبب ذاته، إلى إفساح المجال للكثيرين من رجال الوادي للتحدث في تلك الجلسة، ويبدو أن أولئك الرجال لم ينتبهوا إلى تهالكه الجسمي حينئذ، لذا استرسلوا في أحاديثهم عن مستقبل الوادي، وتوقعاتهم لازدياد عدد سكانه، وإذ استعاد صوته ونفسه، فجر قذيفتيه اللتين أعدهما بإمعان، إذْ فاجأ الحضور بتبرعه بقطعة الأرض المحيطة بقبر والده وقبر هاج الغجرية، من أجل دفن أموات الوادي، وقدر مساحة تلك القطعة - المقبرة - الواقعة في أعالي الجبل الشمالي بثلاثة دونمات، أما قذيفته الثانية فتمثلت في تبرعه بقطعة

أخرى من أرض الوادي من أجل إقامة مسجد عليها، وكان لكلماته الراسخة أثر كبير في نفوس الحاضرين الذين أبدوا استعدادهم للمساهمة في إنجاح فكرة بناء المسجد، وقالوا إن أبو سلمان أصاب في فكرته تلك، ذلك أنهم يذهبون إلى مساجد الحي الشرقي والأحياء الأخرى من أجل أداء صلواتهم، ويتكبدون مشقة السير على أقدامهم في وعر الطرقات، فلماذا لا يكون في الوادي مسجد يُصلّون فيه جميعاً؟ هذا ما فكر به الرجال والفتية وحتى الصبية الذين رافقوا آباءهم في تلك الليلة.

لقيت دعوة أبو سلمان أصداء واستجابات جارفة خلال اليومين التاليين، وعلى الرغم من بساطة المبالغ التي تبرع السكان بها من أجل بناء المسجد، إلاّ أنهم جميعاً ساهموا في الاستجابة إلى تلك الدعوة المفاجئة، كما شاركوا أيضاً في استقبال الموظفين الذين انتُدبوا للكشف على موقع المسجد، وطريقة بنائه، والامكانات المالية المتاحة، غير أن المبلغ الذي تسلمه أبو سلمان من الجهات الرسمية مساهمة منها في بناء المسجد، لم يكن كافياً، ولولا تطوع عدد من الموسرين في الوادي وخارجه، لما أمكن صقل جدرانه بالإسمنت، ولما أمكن صبغه بالجير الأبيض، أو فرشه بالحصر، أو تزويده بالأباريق المعدنية، والصنابير النحاسية، والخزان الاسمنتي.

– ١١ –

تمكن أبو سلمان بحنكته من فصل الأمور عن بعضها " هذا لي، وذاك لك " كان يقول، ويستمر في تقاضي أثمان الأراضي من القادمين الجدد إلى الوادي، لكن واحداً من أولئك السكان، طالبه بالتوقيع على

ورقة بيع فيما بينهما، لكي لا يعتدي أحد على الأرض التي دفع ثمنها له، ولكي تثبت ملكيته المعنوية للأرض بعد أن اقتنع بتعذّر إمكانية تسجيلها باسمه، وبعد نقاش طويل استخدم الرجل خلاله كل ما أوتي من حنكة وقدرة على الإقناع وافق أبو سلمان على منحه تلك الورقة التي سميت (حجة البيع)، لكن توقيعه المتعرج على تلك الورقة، أوقعه في مأزق مواجهة السكان الآخرين الذين طلبوا أوراقاً مماثلة، وحينما رفض، لجأوا إلى تنبيه كل القادمين الجدد، إلى ضرورة الحصول على تلك الأوراق حين الدفع، والصحيح أن سكان الوادي، كانوا توصلوا منذ زمن، إلى أنه لا يملك الأرض التي يبعيها لهم، وكانوا يدفعون له فقط من أجل إسكاته، والحصول على مباركته وموافقته على إقامتهم في الوادي، وقد بلغ عدد البيوت المقامة في الوادي حتى لحظة إتمام بناء المسجد، اثنين وخمسين بيتاً، توزعت على جانبي الوادي كتجمعات يضم كل واحد منها ثلاثة بيوت أو أكثر، وعلى الرغم من صغر المساحات التي اشتراها أولئك من أبي سليمان; إلا أنهم تمكنوا من إقامة بيوت متكاملة عليها.

في البداية كانوا يختارون الأماكن التي تعجبهم، ثم يحيطونها بسلاسل من الحجارة المتقاربة كدليل على امتلاكهم لها، ثم يسترون ممارساتهم اليومية الليلية للحياة بالبطانيات السوداء، وقطع الشادر التي يربطون أطرافها بالصخور وسيقان الأشجار المقطوعة، لكن استيلاء السكان على سيقان السرو، أدى إلى تضاؤل الأجمة عند المنعطف الغربي، ثم تلاشيها، ثم خلّوها وانكشاف أسرارها المتمثلة في وجود بقايا جرار فخارية فارغة في سبع من الثقوب الصخرية، وينبوع صغير

يسرب المياه من كعب الجبل، ثم بقايا عظام حيوانية كشفت لأبي سلمان؛ أسرار اختفاء عدد من قطيع أغنامه منذ سنوات.

- ١٢ -

كان السكان الجدد يتوافدون إلى الوادي من كل الجهات، وكلما أقامت في الوادي أسرة جديدة، ازدادت ثروة أبو سلمان لتتعاظم قدرته ولتمتد، كل السكان دفعوا له واستراحوا، حتى أقاربه الذين استنكروا حين حضورهم إلى الوادي مطالبته بأثمان الأراضي، فقد اضطروا في النهاية إلى الدفع تحت وطأة المطالبة الصارمة، والحضور الكثيف لأبو سلمان الذي أكثر من استضافاته لرئيس المخفر وزملائه في تلك الأيام، وحقق الكثير من الإنجازات للوادي، كبناء المسجد، والجسرين الحديديين، والحصول على موافقات الجهات الرسمية من أجل تمديد شبكات المياه إلى البيوت، ثم تمديد تلك الشبكات خلال فترة قياسية، ثم مساعدة السكان في الحصول على رخص افتتاح الدكاكين والمحلات التجارية على الرغم من عدم وجود شهادات تسجيل للأراضي التي أقيمت عليها المتاجر.

- ١٣ -

ما أن دفع السكان الجدد أثمان الأراضي، حتى بدأوا ببناء بيوتهم: حفروا الأرض، وقلبوها، وفتتوا الصخور، واشتروا قوالب اللّبن، والاسمنت، والرمل الأبيض، وفي النهاية أقاموا بيوتهم الجديدة.

سبلو، أصيب بالذهول حينما رأى أولئك " الفلاحين " وهم يحتالون على صخور الصوان، ويفتتوها بأساليبهم الشيطانية، كانوا

يشعلون إطارات الكاوتشوك فوق تلك الصخور، ثم يجلسون بعيداً عنها، يدخنون السجائر، يشربون الشاي، يتحادثون حتى تتصدع الصخور بفعل حرارة النار، تماماً كالزجاج. تلك كانت واحدة من غرائب الفلاحين.

- ١٤ -

منذ أن بدأ الناس بالتدفق على الوادي، والذهول لا يفارق وجه سبلو. كيف فعلوا هذا؟ كيف حطّموا تلك الصخور؟ كيف بنوا ذلك الجدار العجيب؟ كيف دحرجوا تلك الصخرة الهائلة، لماذا قضوا على أجمة السرو؟ من أين أتوا؟

***

الفجر

- ١ -

لحضور الغجر إلى الوادي وقع الشتاء، وطقوس الغمام. جاؤوا على ظهور خيولهم وحميرهم، وحطّوا في مساحة من الأرض ملاصقة لبيت سبلو الفأر، لكن تفكيرهم الجماعي المتشابك، اتخذ شكلاً آخر حينما طالبهم أبو سلمان بأثمان الأراضي التي يريدون.

فبدلاً من الاكتفاء - كعادتهم - بالتفحّص الجماعي للمنطقة دون تحديد للملكية الخاصة، أخذوا يفكرون باستقلالهم عن بعضهم، وتوصلوا إلى ضرورة تطليق حياة الارتحال المستمر، كما اختاروا خلال اجتماع كبارهم في بيت سبلو، البقعة الشرقية الشمالية الملاصقة لبيته، بحيث تكون تلك البقعة خاصة بالغجر دون غيرهم، وبذا توصلوا إلى حل وسط بين طبيعة تفكيرهم، وبين متطلبات الاستقرار والعيش في الوادي.

في اليوم التالي، استطاعوا التغلب على آلام فراقهم لخيولهم، فباعوها في أسواق الحلال، لأنها لم تعد لازمة لهم بعد قرار الاستقرار، وحينما حددوا القطع التي يريدونها من الأرض، دفعوا أثمانها لأبو سلمان، فاستغرب صغر تلك المساحات، وفكر في ما يمكن بناؤه من الغرف في تلك الأمتار القليلة من الأرض، إلا أنه أخيراً هز كتفيه غير عابئ بالكيفية التي سيتم فيها بناء بيوت الغجر وخرابيشهم.

- ٢ -

أقام الغجر خرابيشهم وبيوتهم المتلاصقة في البقعة المحيطة ببيت سبلو، وسقفوها بألواح الخشب والزنك والشادر، أما " كياز" فتمكن من سقف بيته بالاسمنت المسلح بعد اتفاقه وزوجته سمار على بيع أساورها الذهبية وعقدها ذي الخرزة الفيروزية، وخواتمها الفضية، وكل ما تبقى لديها من المصاغ الذي اشتراه لها يوم قرر الابتراد بها من لهيب فشله مع بهاج.

كان كياز في صباه قد طلب يد بهاج بإلحاح، وحينما رفضته عاود المحاولة ثانية وثالثة، حتى تحولت محاولاته إلى إصرار غريب على الظفر بها، وصار يرقبها عبر خيمة والدها، ويعترضها أثناء ذهابها لانتشال المياه من البئر خلف خيام الرحيل، غير أن والدها الدّناء " نظما " شكته إلى والده وأقاربه مبينة لهم بأن ابنتها تحب سبلو عازف البزق. ثم قربت، بالاتفاق مع سبلو، موعد الزفاف، مما زاد من كآبة كياز وغيظه.

- ٣ -

كان كياز شاباً وفارساً قوي البنية قاسي العظام والعضلات، يعرف الغجر هذه الحقيقة التي تظل ماثلة في أذهانهم حتى لحظة نشوب القتال فيما بينهم، ففي تلك اللحظة تختفي كل الاعتبارات أمام اندفاعتهم وتحطيمهم لكل ما هو حولهم.

لقد أحب بهاج إلى حد لم يستطع معه تخيل فكرة رفضها له، أو زفافها إلى رجل سواه، لكنها لم تبادله ذلك الاحساس الحارق، كما لم تجد مبرراً لإبداء أسباب رفضها له كلما وجه الغجر السؤال، كانت تكتفي بعنادها الصامت القاطع، وكانت أمها تشيع الأسباب، وعندما

عجز عن احتمال نيران صدره وأعماقه، قرر الابتراد بالزواج من سمار، أو ربما قرر الانتقام لنفسه بالإقدام على تلك الخطوة التي أعانته على تناسي بهاج.

ولكي يؤكد للغجر قدرته على النسيان، بالغ في شراء الأساور والخواتم والعقود الذهبية لعروسه البديلة، سمار، كما بالغ في إظهار ابتهاجه إلى حد تمديد أيام عرسه لتصبح عشرة أيام بلياليها، بدلاً من الأيام السبعة المعتادة، غير أن هذا لم ينتزع من خياله صورة بهاج، بل إن مبالغاته تلك، أسهمت في ترسيخ احتلالها لارتعاشات روحه، وخلجات فؤاده .

- ٤ -

كانت سمار مستعدة لفعل أي شيء في سبيل إيجاد بيت تستقر فيه، لذا ألّحت على زوجها بإقناع الغجر من جديد بفكرة الرحيل إلى الوادي، كما اغتنمت فرصة اقتلاع الرياح لخيامهم وخرابيشهم في إحدى الليالي الممطرة، وأعادت إلى أذهانهم مزايا البيوت الراسخة المختلفة عن خيامهم الممزقة، وخرابيشهم المحطمة، وساندها الكثيرون والكثيرات ممن ذهبت إليهم، مما اضطر كياز إلى تبني الفكرة، قبل أن يسبقه قطار القرار الذي أخذت معالمه تتضح في أذهان الغجر وعباراتهم " لا بد من الرحيل اذن "، لكن تلك الفكرة أوقعته في مأزق لملمة آراء الغجر، ومعضلة الوصول إلى الوادي، وحتى بعد أن تمكن من الوصول بالغجر إلى نقطة الاتفاق على موعد الرحيل، فإنه لم يستطع تجنب المتاعب التي صاحبت رحلتهم إلى الوادي، وكان كلما تذكر أن لزوجته دوراً كبيراً في ذلك الرحيل، نظر إليها بسخط مبعثه الارهاق

الشديد الذي أصاب أجسام الغجر ووجوههم في طريقهم إلى الوادي، وحتى حصانه الأشهب، فقد ناء بأحماله، مما اضطره إلى تخفيف تلك الأحمال بأن علق على كتفيه وساعديه المكشوفين، عدداً من أدواته الحديدية التي يستخدمها في عمله، فازداد إرهاقه، وامتد سخطه ليشمل طفله الأول "عرقي "، وحينما توقف الغجر في آخر استراحة لهم قبيل الوصول إلى الوادي، خلع حزامه العريض وانهال به ضرباً على ظهر ابنه عرقي. فجأة خلع حزامه، وفجأة صاح عرقي. وعندما حاولت سمار الدفاع عن ابنها السمين، لطمها بقسوة، وشتمها بالغجرية " أهكذا تربين ابنك يا خالعة؟ لماذا لا يساعدني في حمل العدة؟ أهو صغير؟ " ولولا تدخل الغجر الآخرين، لاستمر في صفع زوجته وابنه.

ربما أراد كياز بنوبته تلك مناكفة ذاكرته التي استيقظت باقترابه من الوادي، ربما أراد ترجمة إحساسه الساخط، بالدور الذي لعبته سمار في إبعاد صورة هاج عن مخيلته، لا سيما وأنه اقترب من الوادي الذي يضم رفاتها، وربما أراد معاقبة ابنه البكر عرقي على دوره في إقصاء ما تبقى من بريق هاج التي تباعدت وامّحت في غمرة الهطول المتصل، لتفاصيل الحياة الجديدة حينئذ: حياة الزواج.

– ٥ –

حينما توقف الغجر بخيولهم وحميرهم للارتواء من النبع شرقي الوادي، بدا مشهدهم لسكان الحي الشمالي والحي الشرقي، مثل قطيع هائل من الماعز الأسود المتقارب، وإذ تبينوهم، تقّولوا فيما بينهم "الغجر يريدون احتلال الوادي ".

سكان الوادي كلهم، يعرفون بأن أهالي الحي الشمالي والحي الشرقي، هم الذين أطلقوا على الوادي منذ ذلك الحين اسم " وادي الغجر"، وهم حتى في أثناء امتعاضهم من هذه التسمية، فإنهم لا ينسون ما "جَنَتْه" عليهم سخرية أولئك الناس.

- ٦ -

بحضور الغجر، ظهرت أمور كثيرة لم يكن للوادي عهد بها، فقد أطلق الغجر تسمية "الفلاحين" على كل السكان الآخرين، وبهذا انقسم الناس في الوادي إلى فريقين: فلاحين وغجر، وكثيراً ما اقتتل أبناء الغجر وأبناء الفلاحين، كأنما ليذكّروا بوجود انقسام عرقي لا سبيل إلى تجاهله، بل انزوى الغجر في بداية إقامتهم في الوادي، وقصروا تعاملهم فيما بينهم ونطقوا بلغتهم الغجرية. وعلى الرغم من أن عدد الغجر حينئذ اقترب من عدد الفلاحين، إلا أنهم أحسوا بأقليتهم في وسط كله من غير الغجر، كما أحسوا بنوع من العجز والضيق تجاه أولئك الفلاحين الذي يمتلكون الأرض والدكاكين وكل شيء.

أكثر من هذا أن بعضهم لم يطيقوا الحياة مع الفلاحين، فغادروا الوادي عائدين من حيث أتوا، أما الذين بقوا في الوادي، ففكّروا في مغادرته والعودة إلى حياة الترحال التي تنأى بهم عن ذلك الاحساس الشنيع، غير أن كبارهم أشاروا عليهم بالبقاء مستشهدين بطيبة الفلاحين، سائلين سبلو عما إذا ضايقه الفلاحون خلال سنوات إقامته الطويلة في الوادي، وحينما نفى، قال أحد المسنين الذين أتعبهم الرحيل " العيب فينا نحن الغجر، نحن الذين لا نحب الفلاحين، وإلاّ لماذا لا نتحدث معهم؟ لماذا لا نجلس وإياهم؟ لماذا لا نزورهم ونتعرف إليهم؟"

وتدخّل مسن آخر ليعالج الموضوع من زاوية أخرى، فقال " ثم إننا بعنا خيولنا وحميرنا، فكيف سنعيش بدونها إذا رحلنا عن الوادي؟ "

- ٧ -

كانت نقاشات الغجر الصاخبة، تتم بلغة لا يفهمها سواهم، لذا لم يتحرجوا من التحدث في أدق أسرارهم، بل أحسوا بعد أشهر من إقامتهم في الوادي، بتميزهم عن غيرهم، ورددوا مراراً تلك العبارة التي طالما رددها الفلاحون باعتداد " الفلاح فلاح، والغجري غجري"، كلهم نطقوا بهذه العبارة ولحنوها حسب أهوائهم إلا سبلو .

- ٨ -

سبلو الفأر أحس باختلافه دون أن يتساءل عما إذا كان هذا الاحساس جزءاً من جبلته، أم أن لكل كائن عالمه المختلف الخاص.

كان يحس بتباعده عن الوادي على الرغم من التصاقه به.

منذ أن قتلت هاج، وهو يتناءى ويندّ في عالم مسكون بالمخاوف والتساؤلات، ويستمع إلى الأحاديث الغريبة التي تبثها روحه عبر دهاليز ذاكرته، فيحاول وقف نبض الأيام، يحاول الرجوع بها إلى لحظة واحدة متماسكة، يحاول القبض على نغمات برقه الهاربة، لكنه لا يستطيع، لا يستطيع الخروج من حصار حاضره، وربما ماضيه.

وحتى ابنته هاجار، فلم يعد قادراً على الإمساك بخيوط علاقته بها، ذلك أنها كبرت، واكتشفت صباها في عيون الآخرين، فبزّت عمرها، وودّعت طفولتها، لكن أحزان هاجار تجبّلت بالألم وتكاثفت، فالفلاحات نبذنها بسبب غجريتها، وشبان الفلاحين تحرشوا بها مراراً،

وأسمعوها تعليقاهم وألفاظهم غير الودودة، والوقت أضحى ثقيلاً، فضاق الوادي حتى غدا مجرد رجل ساهم شارد الذهن ملفّع بالعبوس غائب، وغرفة مسقوفة بالشادر، تحمل راية بيضاء أثبتها سبلو بعد مقتل زوجته، إقصاءً لشرور الحياة!

هو ذا سبلو الفأر.

وغلاف الحزن الذي خلّفته بماج، كان متيناً إلى حد الصمود على امتداد السنين، لكنه وجد في أحزانه وفي عزلته حياته الخاصة، ونظرته المختلفة إلى الوادي، ففي حين كان الوادي في خسابات أبو سلمان، مصدر وجود وثراء تكدّس عبر السنين، فإنه رأى فيه مكاناً يضم رفات زوجته التي لو لم تدفن فيه لهجره منذ أعوام.

كان الوادي ممراً للرياح المحملة بالحروف المبهمة، وبالصفير الكوني الذي يذكّره أبداً بنبوءة العجوز.

سبلو رأى بأن الوادي يخوض غمار حرب خفية ضارية مع الرياح بإرغامه لها على السير الصارم في مجراه العميق، ثم الانعطاف عبر الصخور المشرئبة نحو الشرق. وسبلو يسمع نداءات الريح واستغاثاتها، يفهم حروفها التي تبثّها حال وقوعها في مصيدة الفراغ الهائل في الوادي، فتزداد كآبته، لا سيما حين تصطدم الريح بجدران بيته، محدثة باصطدامها صوتاً أشبه بلفظ حرفين متكررين: ششرررر! هنا يتذكر نبوءة العجوز نظما، يتخيل نهايته، فيعود إلى ذاته المنطوية على سنان ذلك الاحتمال المؤدي إلى امتداد حزنه، ونحول جسمه.

لا تسمع الآذان ما يجول في النفس! لذا يعتقد السكان بأن موت هاج هو السبب الوحيد في أحزان سبلو الممتدة، ويعززون اعتقادهم هذا، برؤيتهم شبه اليومية له، أثناء توجهه إلى قبرها، وهم حتى في تعاطفهم معه، فإنما يتعاطفون وحالة الوحدة التي يعيشها ذلك الرجل.

كان سبلو يعيش وفقاً لما تمليه ذاكرته العميقة، وخياله الشاسع، أما ما يقوله الآخرون، فهذا لا مبرر للتفكير به، ولقد قام ببناء أربعة جدران ببوابة حديدية حول قبر هاج، وزرع ثلاثاً من أشجار الكرمة التي كبرت بسرعة، فأورفت ظلالها فوق ذلك القبر، وأثمرت دون أن يجرؤ أي من صبية الوادي أو فتيته، على قطف عنقود واحد من تلك الأشجار، ذلك أن الجذور ممتدة في الأرض، والأرض قبر، والثّمار مستمدة من رفات هاج الميتة. من يأكل تلك الثمار تحل عليه لعنة الموتى! تلك حكاية الصغار، وحتى الكبار فقد آثروا الامتناع عن أكل ذلك العنب. سبلو هو الوحيد الذي يجرؤ على ذلك الفعل، أما ابنته هاجار فأخذت بتلك الحكاية، ويوم تذوقّت بإلحاح من والدها حبة واحدة من ذلك العنب، أحست بغربة طعمها، وبصقتها على الفور، بل ظلت بعدها تبصق على الأرض إلى أن قاءت كل ما في أحشائها.

- ٩ -

لم يعد سبلو قادراً على بث المرح في الأعراس! ورنة الفرح المصاحبة لعزفه، تحولت إلى مسحة حزينة يائسة كَدَّرَتْ محاولاته المستميتة لإضفاء شيء من المرح على نغمات بزقه، وعلى تقاطيع وجهه المتقلصة.

حزن سبلو امتد إلى نغمات بزقه وقسمات وجهه، وتنبه أصحاب الأعراس إلى الكآبة التي يُضفيها وجوده على أفراحهم، كما تطورت أعراس المدينة، وبرز العديدون من العازفين ونافخي القربة والناي والجوز، فتراجع سبلو، تَلَبَّكَ في معيشته بعد أن فقد قدرته على تمرير اقتحاماته للأعراس، وحين ضاقت الحياة في وجهه وأعتمت، التفت إلى ابنته الصبية هاجار، فرأى في عينيها كوىً من الفرج، ورداً صامتاً على حصار الحياة، أو حصار الموت.

***

اختلافات

- ١ -

حينما استعرض أبو سلمان قامة ابنه الأكبر، قال له بأن ازدياد عدد السكان في الوادي، يدعو إلى التفكير في إنشاء مقهى تضم الشبان والرجال، وتكون ملتقى لهم. قال له، بأن أنسب الأماكن لإقامة تلك المقهى، هي منطقة الشارع الشرقي حيث حركة السيارات الدائبة، وتجمّع عربات الخضار. قال له أيضاً " أنت الوحيد القادر على تسلم هذه المقهى " ثم استدرك قبل أن يستمع إلى إجابته " سأسلّمك إدارة المقهى، أنت ستكون المشرف، وسيعمل تحت إمرتك نادل أو اثنان، مهمتك هي القبض والإشراف، فما رأيك؟ ".

وسلمان لا يرفض لوالده طلباً، إنه مختلف عن شقيقه جبر الذي لا يعجبه العجب، ولا حتى الصيام في رجب حسبما يقول والده، والحقيقة أن جبر اختلف عن شقيقه سلمان وعن والده أيضاً، ففي حين غرق سلمان حتى أذنيه في تفاصيل حياته وحياة والده، فإن جبر ظل متمسكاً بدروسه وبعالمه، غير عابئ بأحلام شقيقه بالغنى، أو أحلام والده بالجاه الذي استهلك أوقاته على الرغم من معضلته الصحية.

كان جبر يفسر ازدياد اهتمام والده بالوادي وبسكانه على أنها محاولات متأخرة لامتلاك قوة أخرى، عوضاً عن قوته البدنية التي

أخذت تنسحب من جسمه، بعد أن استوطنه السكري... فشتان ما بين جبر وسلمان!

- ٢ -

عند حافة الشارع الشرقي، أقيمت " مقهى أبو بركة " ذات البابين الجرارين والواجهة الزجاجية المقابلة لشمس الصباح، وهناك، عند حافة الشارع الشرقي، بدأ التحول الكبير في حياة الوادي، وتنبه السكان إلى أهمية ذلك الموقع، وأخذوا يتنافسون على امتلاك الأراضي القريبة من مقهى أبو بركة حيث المستقبل التجاري حسبما رددوا في جلساتهم، واغتبط أبو سلمان لا لموافقة المتنافسين على الأسعار الباهظة التي حددها لتلك الأراضي، وإنما لذكائه ولقدرته على تسيير دفّة الحياة في الوادي، بالطريقة التي يريد.

- ٣ -

في مقهى أبو بركة، وجد شبان الوادي ورجاله متنفساً لهم، ومكاناً يقضون فيه الساعات المعلّقة التي غالباً ما تؤدي إلى ضيق أمهاتهم ونسائهم بهم، لذا أخذوا يترددون على تلك المقهى بعد عودتهم من أعمالهم. الأصح أن أقدامهم اعتادت أن تقودهم إلى ذلك المكان المليء بالكراسي الخشبية المجدولة بحبال القش، والطاولات المربعة الواطئة، وورق اللعب المزركش، وفناجين القهوة وأكواب الشاي، والنراجيل المذهبة، والدخان المتصاعد من السجائر ومن الرؤوس المعتمة.

أما المسنون، فقد وجدوا أنفسهم بمرور الأيام، أمام إلحاح صباحي يدعوهم إلى ضرورة التوجه إلى المقهى، والجلوس وراء الحاجز الزجاجي العريض في مواجهة شمس الصباح.

النادل اعتاد أيضاً أن يعد لهؤلاء المسنين فناجين القهوة من دون أن يضطروا إلى طلبها!

ها إن المسنين يجلسون كل صباح في مواجهة الشمس، يشربون قهوتهم، يكررون أحاديثهم، يرقبون المارة والسيارات في الشارع الشرقي.

المسنون لم يبتكروا نظام جلساتهم، ولا وضعه سلمان حينما باشر الإشراف على المقهى، لكنهم وجدوا أنفسهم أسرى ذلك النظام، وحتى الشبان فقد اعتادوا أيضاً طلب ورق اللعب حال دخولهم المقهى، ثم الجلوس حول طاولات محددة، وترديد بعض الألفاظ التي ولدت في المقهى، لتتحول إلى جزء من ألعابهم . هنالك وقت زائد، يجب الإجهاز على هذا الوقت، كيف؟ لا أحد يسأل، وهنا يكمن الاختلاف والتشابه، ففي حين يلجأ الشبان والرجال متوسطو الأعمار إلى لعب الورق، فإن معظم المسنين يبدأون جلساتهم بالأحاديث التي لا تنضب، لعلهم يجترون أيامهم وأعوامهم الماضية، ثم يبتلعونها تمسكاً بشبابهم الآفل، أو هرباً من النهايات المبهمة التي تنتظرهم. لكن إحساساً واحداً ظل يجمعهم على الرغم من أنهم لم يصرّحوا به أمام بعضهم، إنه ذلك الزهو الغامض الذي يملأ النفس كلما تذكر الإنسان إنجازات حياته الماضية، أو كلما تذكر بأنه واحد من المؤسسين لفكرة أو لشيء مهم بدأ صغيراً، ثم كبر .

هكذا الوادي، كان صغيراً خالياً، وهو الآن كبير مزدحم، غير أن سلمان لا يلتفت إلى حكايات أولئك المسنين، ما لسلمان وخرافاتهم؟ فهو دائم الاهتمام بالشبان الذين يلعبون الورق ويثيرون المشاكل أثناء لعبهم، أولئك هم الذين يستحقون الاهتمام، أما الشيوخ المسالمون، فهم ليسوا بحاجة إلى من يفض بينهم، أو يسكتهم.

لقد اقتصر دور سلمان في المقهى على الإشراف، والمراقبة، ومحاسبة الزبائن، وفض إشكالاتهم، أما بقية الأعمال فقد اضطلع بها النادل الأسمر النحيل، الذي تعلم أن يخاطب سلمان قائلاً " يا معلم"

- ٤ -

لم تزد تسمية " المعلم " من اعتداد سلمان بنفسه، كما لم يكن لها دور في تملكه ذلك الأسلوب الكاسح الذي ميّز تعامله والآخرين، فقد تعود خلال عمله في المقهى أن يكون قاسي العينين جامد القلب صلباً، وأن لا يدع لأحد فرصة العثور على ثغرة في جدران بنيته التي تصلبت عبر سني اعتداده الصارم بأرومته وبقدرته.

كان ممتلئ الجسم ذا قامة مديدة، أما عيناه فمفتوحتان بشكل يدعو إلى أخذ الحيطة أو ربما الحذر. يرتدي القمصان والبنطالات الضيقة التي تبرز كتل جسمه العضلية، وصدره الصلب المكسوّ بلفائف الشعر الكستنائي الغزير، على أن هذه الصفات لا تضعه في مصاف أولئك الذين تتباعد أذرعهم عن أجسامهم أثناء وقوفهم أو مشيهم المختال، ذلك أن يديه أبداً منشغلتان في عمل شيء ما، كفتح أدراج طاولته البنية في ركن المقهى، أو عد النقود، أو تسجيل طلبات زبائنه في دفتر الديون، أو إعطاء التعليمات للنادل بالإشارة اليدوية، وحتى في أثناء

سيره داخل المقهى، فإنه يشبك يديه خلف ظهره، بينما تعبث أصابعه بسلسلة مفاتيح سيارته التي اشتراها له والده.

- ٥ -

استطاع سلمان خلال أعوام من تسلمه المقهى، أن يرسم في أذهان رجال الوادي وشبانه، صورة لشخصه تميزت بالقوة والمنعة ، غير أنه لم يستند في قوته تلك أو سطوته إلى عضلاته، وإنما إلى جرأته وصموده الغريب في جولات العيون الضارية مع الآخرين. ولقد وجد أبو سلمان في ابنه هذا ما لم يجده في ابنه الآخر جبر الذي لم يعجبه في يوم من الأيام، أو قل منذ أن بدأ دراسته الثانوية التي أقصته عن كل اهتمامات والده وشقيقه، غير أن ما ساء سلمان أن استفحال السكري في جسم والده، أدى إلى استماتته في تزويجه، وحينما رفض تلك الفكرة مبيناً أنه لن يتزوج قبل أن يبلغ الثلاثين من عمره، اغتمّ أبو سلمان إلى حدّ ارتفعت معه نسبة السكر في جسمه إلى درجة عالية، ولولا أن تدارك سلمان الأمر بتقديم وعد لوالده بالبحث عن فتاة تلائمه، لازدادت صحته سوءاً، ولربما حدث ما لم يكن بالحسبان.

لا بد من الزواج إذن، قال في نفسه، بينما أسهمت والدته وأخواته المتزوجات في تجميل صورة الزواج أمام عينيه، كما لعبن دوراً في دفعه إلى القيام بزيارات لبيوت أقاربه، حيث بحث في وجوه قريباته، بحث في أصواتهن التي ترددت في سرحاته الطويلة، بحث في أخلاق أمهاتهن التي لا بد وأن تنعكس عليهن، وفي النهاية اختار واحدة منهن اسمها " سارة."

تميزت سارة بهدوئها وببياض بشرتها وطول قامتها، لكن صفة واحدة وحيدة فيها، نغصت عليه وكادت تثنيه عن اختياره لها، فقد كانت نحيلة إلى حدٍ مثير للشفقة! وحينما فاتح والدته بالأمر، قالت له بأن الزواج كفيل بحل المشكلة، لأن النساء - قالت - يزدن سمنة بعد الزواج، وضربت له العديد من الأمثلة عن قريباته اللواتي امتلأت أجسادهن بعد الزواج، حتى أنا - قالت له - فقد كنت مثل العود قبل أن يتزوجني أبوك، ثم شجعته على الزواج من سارة، وامتدحت خصالها وخصال والدتها المعروفة بأدبها وحشمتها ونظافتها وكتمها للأسرار، وعندما توصل إلى قرار نهائي بالزواج من سارة، توجه إلى بيت والدها برفقة والديه وأعمامه وعدد غير قليل من أقاربهم في الوادي، وعندما وافق والدها على تلك الخطوبة، أطلق أبو سلمان سبع رصاصات في هدوء ذلك البيت، ولكي يكمل ما بدأه، حدد موعداً لزفاف ابنه من عروسه، بعد أسبوع واحد من تلك الخطوبة.

- ٦ -

لم تكتمل فرحة سلمان يوم زفافه، فقد نُقل والده إلى المستشفى بسبب الغيبوبة المفاجئة التي دهمته، فأوقعته على الأرض وجهاً شاحباً خالياً من أي تعبير، وجسماً ممدّداً عاجزاً عن الانثناء.

كان السكري مثل أخطبوط لا مرئي يسكن جسم أبي سلمان، فيخطف لونه على الرغم من محاولاته إخفاء ما يعانيه. لكن داءً كالسكري لا بد وأن يظهر، فهو داء طويل النفس، وفوق هذا يحب الظهور.

لا يظهر السكري إلا بعد أن يمد جذوره ويحكم سيطرته على أجزاء البدن. كأنما هو يفكر، ويزن الأمور، ويتقهقر ليعيد تنظيم نفسه، تماماً كالانسان!

ها إن السكري يظهر في جسم أبي سلمان على شكل نحول، ثم شحوب ثم غيبوبة مُهينة خطيرة، ومتى؟ في ذلك الوقت الحرج، أمام ذلك العدد من رجال الوادي وشبانه وصبيته، كأنما يريد أن يقول: هأنذا، موجود، انظروا كيف أوقعت كبيركم الذي تخافون.

- ٧ -

حينما سقط أبو سلمان، تلملم إخوته حوله، ثم دلقوا على وجهه الماء الذي أعاده إلى وعيه من جديد، ولكي لا يفسد عرس ابنه، رفض الذهاب إلى المستشفى، غير أن ابنه جبر أصر على ذلك موضحاً لأعمامه أن الغيبوبة ليست سوى دليل على ارتفاع السكر في دمه، وأن حالته خطيرة لذا " يجب أن لا نترك له الخيار، هذا إذا كان شفاؤه يهمكم"، هكذا حسم جبر تردد أعمامه الذين أجمعوا بعدها على ضرورة إدخاله أقرب مستشفى.

وجبر يحب والده على الرغم من ملامح النفور التي تخالط علاقتهما، بل ربما كان أكثر محبة لوالده من شقيقه، لكن أبو سلمان لا يعترف بهذا، فقد اعتاد أن يحاكم الآخرين بما يقدمون من براهين ودلائل ملموسة ، أمّا النوايا، فتظل رهينة في نفوس أصحابها إلى حين خروجها على شكل تصرفات. هنا يكمن ضعف جبر، وهنا تبرز قوة سلمان، ففي حين يقدم الأخير كل يوم، المزيد من البراهين الدالة على طاعته لوالده، وتنفيذه جميع تعليماته ابتداء من الاشراف الصارم على

مقهى أبو بركة وانتهاء بالزواج، فإن جبر يكتفي بما يضمر لوالديه من محبة خالصة.

جبر لا يتحدث كثيراً، وهو إن قال شيئاً، فإنما يقوله بهدوء تام، وبعد تفكير طويل.

كان هذا مبعث ضيق دائم لوالده الذي أنكر على ابنه كل ذلك الهدوء، وكل تلك الرويّة التي لا تليق بشاب مثله. كان يقول له "الحياة تحتاج إلى الحركة، على الإنسان أن يستفيد من كل دقيقة في حياته من أجل بناء نفسه ومستقبله".

وعلى الرغم من نجاحه في الثانوية العامة، ودخوله الجامعة إلاّ أن والده لم يقتنع يوماً بأن ذلك النجاح سيكون مقدمة لنجاح مماثل في الحياة العملية، كانت أمنية أبو سلمان أن يعيش حتى يحصل جبر على شهادته الجامعية. كثيراً ما ذكر هذه الأمنية أمام ولديه وزوجته وبناته، لكن أمنيته تلك لم تكن من أجل الشهادة الجامعية، وإنما " لأرى بعيني، كيف سيتدبر جبر أموره في هذه الحياة".

أما شقيقه سلمان فكثيراً ما سخر منه، ومن الكتب والمجلات التي يحضرها معه أثناء عودته من الجامعة، كان يقول لشقيقه "ماذا تقرأ؟ وهل ظل في هذه الدنيا من يقرأ؟ الحق على الذي أدخلك الجامعة" أما أم سلمان، فتنظر إليه بشكل مختلف، كانت تحسُّ بأن سكون ابنها إنما هو إخفاء لمعنى ما، لا يمكن أن يكون كل ذلك السكون والوقار بلا معنى. هكذا كانت تقول في غيابه، فيضج سلمان ووالده بالضحك "سيصبح نبياً " ويضحكان "بل فيلسوفاً " ويكركران، غير أن عاطفة الأب سرعان ما تعاود أبو سلمان فيصمت، يحسّ بأنه قسا على ابنه في غيابه فيرقّ ليقول " لكن أتريدان الصحيح، جبر شاب متزن". هنا يحس

سلمان بأن والده تركه في خضم المعركة وانسحب، لا سيما أن والدته تبادره بالقول " أنت تغير منه لأنه ناجح في دروسه، ولأنك تركت المدرسة وما أفلحت فيها "، ويرد قائلاً "مالي وما للمدرسة، أي والله لو كانت الجنة في المدرسة لما ذهبت إليها" يقولها ليس دفاعاً عن نفسه في ذلك الموقف، وإنما استناداً إلى رأيه النهائي الذي حدده منذ زمن في قضية الدراسة.

– ٨ –

لا بد لصفة كالهدوء من أن تنعكس بشكل ما على صاحبها، هذا ما تقوله ملامح جبر أبو بركة، فقامته طويلة لكنها متسقة، وجهه أسمر لكن سمرته غير صاخبة، أنفه معقوف بشكل يوحي بالانسياب، أما عيناه فسوداوان أو هكذا تبدوان. لا بد لمن يجالس جبر من أن يحاول ولو لمرة واحدة في حياته، أن يقلده. فهو لا يتحدث إلا إذا لزم الأمر، وهو يفكر قبل أن يقول كلمته.

إنك لو نظرت إليه، لو دقّقت النظر في ملامح عينيه ووجهه أثناء استماعه إليك، لأحسست بوجود حركة خفيّة دائمة وراء تلك الملامح! غير أن الهدوء الذي يطبع تصرفاته لا يروق لزملائه وزميلاته في الجامعة، بل كثيراً ما وصفوا سلوكه قائلين " كل شيء عنده محسوب بالملليمتر"، وعلى الرغم من أنهم يقولونها بشكل عابر، إلاّ أنهم يلخّصون بعبارتهم تلك، سلوكه اليومي.

لعل في علاقة الاعجاب التي نمت دونما لقاء بين جبر وهاجار التي تكبره بستة أعوام، خير دليل على صحة ما ذهبوا إليه! فقد نشأت في

المسافة الفاصلة بين بيت أبي سلمان، وبين بيت سبلو الفأر، علاقة غريبة بدأت حينما شب جبر .

كان يراقب هاجار من نافذة غرفته، فتبتسم له، ولا يبتسم لها! إذن لماذا يرقبها؟ لماذا يزعزع سكينتها؟

كان يمتنع عن النظر إليها لأيام طويلة، لكن شيئاً ما يجذبه إليها، فيقف من جديد وراء نافذة غرفته، ومن جديد تراه فتبتسم له، ولا يبتسم! ومن جديد أيضاً، يتوقف ثم يرتد إلى كتبه ودفاتره، فيتصفحها محاولاً التفلّت من شِباك هاجار.

لقد تمكن جبر من وقف تلك العلاقة عند ذلك الحد لسنوات! وتلك كانت معجزة من معجزاته، ومبعث فخار خفي يحسّه ولا يصرح به، ذلك أن هاجار فتحت له ذراعيها، ومهدت له طرق اللقاء بها، بل إنها لجأت إلى الكثير من الأساليب الكفيلة بإرغام كل الشبان على الاستجابة لها.

كانت ترتدي فستاناً مثيراً لماعاً يبرز نهديها اللذين اندفعا قبل أوانهما، ترتديه خصيصاً وتتجول في باحة دارها ليراها، لكنه لم يتحرك، مما زادها إصراراً على إكمال شوطها.

لو عرف أبو سلمان بهذه التفاصيل، لاكتفى بهذا البرهان الذي قدمه جبر كدليل على نوع غريب من الاتزان. لكن في أعماق جبر بئراً عميقة، لو سقط السر في قرارها لضاع في ظلماتها!

– ٩ –

لم يكن لجبر أصدقاء في وادي الغجر، وكان السكان يرون فيه كياناً غامضاً مُغَلّفاً بالكتب والمجلات التي يتأبطها حين عودته إلى بيته،

وحتى والدته، فكانت تتمنى لو يشارك والده وشقيقه سلمان في أعمالهما واهتماماتهما، غير أنها كانت تدرك كم هو عنيد ابنها جبر! وكم هو مصر على التسرب من يدي والده الصارم.

أم سلمان لم تعط لأبنائها سوى حنانها ومحبتها، ما دون ذلك، لم يكن لها أثر يذكر، على الأقل في حياة ولديها سلمان وجبر. كان هذا مبعث ارتياح أبي سلمان الذي أراد لأبنائه تربية الرجال لا تربية النساء، وكان مصراً على أن لا تخرج أم سلمان عن حدودها كامرأة في بيته، هذا ما نفذه أيضاً سلمان أثناء تعامله مع زوجته سارة، فقد أصبحت منذ أن زُفت إليه، مجرد منفّذة لتعليماته الصارمة " ياسارة قومي اعملي الشاي" وتقوم سارة، " يا سارة الملح قليل في الطعام" وتعتذر سارة "هات الحذاء الأسود" وتنط باحثة عن الحذاء بسرعة " سارة لا تقعدي مع العجائز! العجائز مفسدات! " وتبتعد عن مجالس العجائز " يا سارة قلت لك ألف مرة، نامي باكراً" وتنام سارة! وحتى حينما رزقت بطفلها الأول عثمان الذي سمي تيمُّناً بجده، فقد استبق سلمان الزمن، وقال لها بعد شهر من ولادته "اسمعي يا سارة، عندما يكبر عثمان لا تتدخلي في تربيته! مفهوم؟! " فأجابته " مفهوم يا سلمان " وكان والده يغتبط كلما رأى آثار تربيته في علاقة ابنه بزوجته "سلمان رجل" كان يقول أمام جبر من أجل تحضيره لذلك اليوم الذي سيصبح فيه زوجاً كشقيقه، لكن هذا كان يسخر في قرارته من أساليب شقيقه في تعامله وزوجته، وكان يصف تلك الأساليب أمام شقيقه ووالدته قائلاً " هذا تخلف" أما سارة فرأت في بدايات حياتها الزوجية، أن جبر هو خير مدافع عنها أمام غضب زوجها الذي يضربها ويوبخها. غير أن تدخل جبر هذا، أدى إلى إمعان سلمان في زجر سارة، مما دعاه إلى

فهم الرسالة الغامضة المتوعدة التي أراد سلمان إبلاغها له بعدم التدخل في شؤونه الزوجية الخاصة.

- ١٠ -

جبر هو نقيض والده الذي يعنيه كثيراً أن يعرف الآخرين بإنجازاته، لأن هذا سيدعم مركزه الذي أراده لنفسه، وحتى حينما قامت الشركة الانجليزية بشق شارع الوادي قبل التحاق جبر بالجامعة، فقد أعاد أبو سلمان إلى نفسه الفضل في إتمام ذلك الانجاز، كما أشاع بين سكان الوادي فهماً مفاده، أن الشركة الانجليزية لم تكمل تنفيذ ذلك الشارع إلا بعد وساطته. وانتشرت الإشاعة بين السكان، وقيل بأنه قابل المسؤولين وطالبهم بإجبار الشركة على إكمال ما بدأته، ولهذا اضطرَّتْ إلى تعبيد الشارع المنشأ في قاع الوادي. ومما عزز انتشار ذلك الاعتقاد، أن أبو سلمان وقف طويلاً مع المسؤولين عند حضورهم إلى الوادي من أجل استطلاع إنجازات الشركة، وحينما سُئل عن صحة ما ورد في تلك الإشاعة، أجاب ممسداً لحيته متجنباً الوقوع في زلة الكذب الصريح " الله وحده يعلم كم أحبّ سكان هذا الوادي"، ثم أردف موحياً لسائليه بصحة ذلك الاعتقاد "على كل حال، الإنسان يجب أن لا يتحدث عن أفعاله، وأعوذ بالله من كلمة أنا".

ولكن الحقيقة لم تشهد أي أثر لوجود ما يمكن تسميته بالوسيط! لأن شارع الوادي كان مثبتاً في بنود عطاء الشركة الانجليزية باعتباره حلقة وصل مختصرة بين الحي الشرقي من جهة، وبين أحياء ما وراء المنعطف من جهة أخرى، وكل ما حصل هو أن الشركة تسلسلت في

تنفيذ ذلك المشروع، وقسمته إلى ثلاث مراحل هي: وصل الحي الشرقي ببدايات الوادي عبر شارع جديد يمر من وسط ذلك الحي ليتقاطع والشارع الشرقي، وإذ انتهت الشركة من تنفيذ هذه المرحلة قامت بردم قاع الوادي بالأتربة والحجارة التي جلبتها القلابات، كما قامت الجرافات العملاقة بتسوية تلك الحجارة والأتربة، تساعدها المداحل وصهاريج المياه، أما المرحلة الثالثة من المشروع، فتمثلت في شق الامتداد الجبلي عند المنعطف تقدمةً لوصل الوادي بأحياء ما وراء المنعطف، وهنا برزت معضلة الشركة الانجليزية، فقد عجزت معداتها عن شق ذلك الجبل على الرغم من محاولاتها المستميتة للنجاح في تلك المهمة، وقال الخبير الانجليزي المشرف على خطوات المشروع، قال بعد أن شاهد أسنَّة معداته وحرابها وهي تصطك بالصخور الجبلية الصلبة من دون أن تنال منه (You Stubborn Rocks)

وسمع الكثيرون من رجال الوادي وشبانه تلك العبارة أثناء ترقبهم لعمليات شق الجبل، ورددوا كلمة Stubborn مراراً على مسامع فنيي الشركة وخبيرها ذي الخوذة الحمراء المميزة والملابس الصفراء الملأى بالجيوب، غير أن انتظار السكان تحول إلى تهكُّم وسخرية من ذلك الخبير الذي أصدر تعليماته إلى مهندسيه وعماله وفنييه ذوي الخوذ البرتقالية بالتوقف عن محاولاتهم تلك، حينها أطفئت المحركات فتوقف الهدير فجأة، وتلفتت الوجوه إلى الخبير الأشقر الذي اقترب من إحدى الصخور، وقام بتفحصها بواسطة مقدح يدوي تم إيصال أسلاكه ببطارية إحدى الجرافات، ثم تناول أنبوباً صغيراً من جيبه، وسكب ما فيه من سائل على تلك الصخرة، وتفحصها عبر عدسة ذات إطار جلدي استلها من جيب قميصه، وإذ انتهى من

اختباره هز رأسه، وهمس في أذن مرافقه بتعليماته الجديدة التي انسحبت على إثرها كل معدات الشركة، وتجمعت في مخيمها المقام وراء الشارع الشرقي.

ما ساء ذلك الخبير، أن عدداً من المسنين في الوادي الذين يعرفون الإنجليزية منذ أيام الاستعمار، سخروا منه ومن فنّيبه بالإنجليزية، وحينما عاد إلى خيمته، أعد تقريراً مفصلاً عن نوع الصخور في ذلك الامتداد الجبلي، مبيناً استحالة تحطيمها بغير ملح البارود. وحيث أن اللجوء إلى هذه الطريقة يتطلب شهوراً طويلة من العمل المتصل، إضافة إلى محاذير الإضرار بالسكان، فقد بين في تقريره استحالة قبول الشركة بهذا الحل، وبالتالي - أوضح - استحالة إتمام الشارع!

غير أنه أدرج في تقريره مجموعة من البدائل التي ارتآها، بعد أن قام ومساعده وفنيوه، بالمسح الميداني للمنطقة برمّتها، وحينما تقدم بتقريره إلى الجهات المختصة، تمت الموافقة على اقتراحه المتعلق بإنشاء شارع بديل، يبدأ من التقاطع الشرقي الجديد، صعوداً نحو الجبل الجنوبي، مروراً بامتداداته الغربية، حيث الانحدار الحاد وراء المنعطف.

وعلى الرغم من أن تكاليف ذلك الشارع تزيد على سابقه الذي يمر من الوادي، إلاّ أن الشركة اضطرت إلى تنفيذه بدافع من أهمية الوقت في سياساتها التنفيذية أولاً، وبدافع من حرصها على سمعتها العالمية ثانياً، وتحت تهديد الجهات المختصة بإلزامها بدفع كامل الكفالة البنكية المقدمة من قبلها ثالثاً.

ولقد لجأت الشركة إلى إشراك سفير بلادها في مفاوضات التعويض، لقاء اضطرارها إلى تعبيد الشارع الممتد من بدايات الوادي

الشرقية، إلى بداية المنعطف، حيث اعتبر ذلك الشارع إضافياً بالنظر إلى التغيرات الطارئة على المشروع برمّته.

سكان الوادي لم يعرفوا شيئاً من هذه التفاصيل التي جرت من دون علمهم، لذا عزا بعضهم اضطرار الشركة لإكمال تعبيد شارع الوادي، إلى تدخل أبو سلمان الذي أبدى اهتماماً حقيقياً بالشارع، والتقى على مرأى من السكان، عدداً من المشرفين المحليين على المشروع، ودعاهم إلى بيته لتناول القهوة وتحدث وإياهم في شؤون مشروعهم.

***

هجوم الحياة

- ١ -

بحث غجر الوادي عن وسائل عيشهم في أحياء المدينة، بعضهم سجلوا أسماءهم عمال تنظيفات، وبعضهم عملوا في مهن يدوية كالحدادة وتبييض الأواني والنقش، وبعضهم تخصصوا في تسليك المجاري ونضح الحفر الامتصاصية، وصار الناس يأتونهم من أحياء المدينة ليزيلوا عن بيوتهم كوابيس الروائح القذرة كلما فاضت تلك الحفر بما فيها.

بعض النسوة عملن في كشف الطالع، والرقص في الأعراس والمناسبات، وقراءة الكف والفنجان والودع، وكن يستخدمن ذكاءهن وفراستهن وحيلهن الشيطانية من أجل الإيحاء بصحة توقعاتهن، أما الذين أنفوا هذه الأعمال وتلك، فقد بحثوا عن أرزاقهم في الوادي ونافسوا الفلاحين في بيع الخضار والأواني والملابس القديمة عند التقاطع الشرقي، كما عمل أحدهم عند سلمان أبو بركة نادلاً للمقهى، وعمل آخر في تنظيف المسجد وري أشجار باحته الخارجية.

كياز الغجري لم يضطر إلى البحث عن عمل آخر، ذلك أنه أحضر معه عدته وأدواته، وأقام مرجله الإسمنتي في فناء داره منذ أن استقر في الوادي، ثم بدأ بصنع السكاكين والمبارد والقطّاعات وكوانين النار والمقاور والمقاشر، كثيرة هي الأدوات التي يتقن كياز صنعها بعد أن

يُليِّن الحديد في مرجله الحجري، ومطارق كياز كثيرة، منها المحدودبة والمسنونة والمقعرة، ولكل مطرقة عملها الخاص ومكانها الخاص الذي لا يجوز العبث به، فهو لا ينظر إلى المطرقة التي يريدها، إنما يمد يده بحركة آلية نحو مكانها المعتاد، فإذا لم يجدها، فإن القيامة نفسها ستقوم حينئذ، وسيملأ البيت صراخاً وشتائم.

كان عرقي هو المسوّق الوحيد لمصنوعات والده كياز، هو الذي يحملها ويتجول بها في سوق المدينة من أجل بيعها، غير أن بدانته اضطرته إلى الاكتفاء بالجلوس في السوق تجنباً للسير بتلك الأحمال الحديدية الثقيلة، وحينما لاحظ كياز تراجع مبيعات ابنه حضّه على الكدّ والجد، وعلى الرغم من أن عرقي بلغ من العمر ما يؤهله للزواج، إلا أنّ والده لجأ إلى جلده مراراً بحزامه العريض من أجل حثه على الانتباه إلى عمله، وكثيراً ما جلد زوجته سمار أيضاً بسبب تدخلها في الأمر، وحمايتها لابنها البكر عرقي، وفي ذات ليلة صيفية، أبدى كياز رغبة في مساعدة سبلو الذي ضاقت عليه منافذ الحياة، فعرض عليه أن تقوم ابنته هاجار ببيع أدواته المعدنية في السوق، ومن دون أن يفكر في الأمر، قال سبلو " موافق "، ثم أدار وجهه ناحية ابنته التي ابتسمت بامتنان حينئذ.

- ٢ -

منذ أن حط كياز رحاله في الوادي، وهو يحس بخيوط علاقة غريبه تنسج نفسها بنفسها بينه وبين سبلو.

كان سبلو يستقبله بحرارة بدّدت من ذهنه ذكريات خصامهما العتيق، كانا يسهران معاً، يحتسيان العرق من زجاجة واحدة،

ويتحدثان في أمور الوادي وسكانه الغجر، والفلاحين، وينبشان ذكرياهما. وليلة سرد سبلو على مسمعي جليسه حكاية مقتل بهاج، استمع إليه باهتمام مبعثه ذلك الاحساس، المفاجئ الحارق، الذي بث أمام عينيه صورة جلية مشرقة لبهاج التي أحبها، وإذ انتبه سبلو إلى ملامح كياز المتغيرة، دقق النظر في عينيه الغائرتين بحثاً عن تأكيد لما ساوره أثناء سرده الرقيق لحكاية مقتل زوجته!

بدّد سبلو حلقات التحفظ التي عبثت بعيني جليسه حينما أكد على دعواته الليلية له من أجل زيارته، والسهر معه، ومجالسته، كما وجد في مجالساته التالية له، نتائج أوصلته إلى أن كياز هو الوحيد القادر على فهمه، ومشاركته أحزانه، على الرغم من تيقنه من أن تلك المشاركة لم تكن سوى بحث متأخر في التفاصيل الخفية لحياة بهاج.

كياز أيضاً، هو القادر على تبديد المخاوف التي خلّفتها نبوءة العجوز قبل أن تموت، فهو الذي يزوّده بالعرق الذي يستخرج ابتساماته من أعماقه المظلمة، ولقد وجد كياز في سبلو شريكاً له في ذكرى عزيزة لامرأة أحبها في صباه، كما وجد في أحاديثه نكهة خاصة، وفنوناً لم يكتشفها إلا بعد أن جالسه مرات عديدة، لكن ما بهره أن سبلو لم يحاول إيقاف تيار ذكريات حبه العتيق لبهاج، كما لم يعلق على أحاديثه الكثيرة عن بهاج أثناء مرور العرق من حلقه، بل إن أسلوب سبلو في تقبل أحاديثه تلك أزال كل تحفظاته، ودعاه إلى الإفصاح عن مشاعره تجاه بهاج التي أحبها!

تمكنت هاجار عبر المرور البطيء للأيام والشهور، من التفوق على عرقي في بيع أدوات والده المعدنية، وصارت تنقد والدها دخلاً يومياً يكفيه لشراء زجاجة من العرق، هوذا مطلب سبلو الوحيد، ونظام بقائة اليومي الصارم الذي لو تضعضع، لاسودّت الدنيا في عينيه، أو لعاد الزمان إلى الوراء، إلى الزمان الرمادي حيث اللحظة القاتلة، والعنق اللجينية النازفة في صمت الوادي وحلكة ليلته.

لو نفد العرق من هذه الدنيا، لعاد كابوس نبوءة العجوز إلى ذاكرته الزاخرة، ولدكّته الهواجس دكاً.

سبلو لم يفكر يوماً بما يواجه ابنته أثناء بيعها للأدوات المعدنية، لا يعرف ما الذي يجري في الأسواق المكتظة بالنساء والرجال والشبان الذين يلتصقون بابنته، أو يقرصونها بأصابعهم، أو يعرضون عليها بسماجة، إمكانات الذهاب معهم إلى حيث (يبسطونها).

لقد تعلمت هاجار كيف تميز بين الرجال، وكيف تعرف ما إذا كان الرجل راغباً في الشراء، أم في المداعبة، أم في عرض إمكانية(الانبساط)، وأصبح بمقدورها أن تحدد من خلال صوت الرجل، أو منطقه، أو مشيته، أو حركات عينيه، أو يديه، ما إذا كان وقوراً أو سافلاً أو حتى عتلاً! فالرجال ذوو الأصوات الدهنية المتقطعة، الرجال الذين لا يترعون أيديهم من جيوبهم أثناء تحدثهم إليها، الرجال ذوو العيون المتحركة بسرعة البرق، هؤلاء هم سفلة الرجال! غير أن معرفتها بأنواع الرجال لم توصلها إلى قرار حاسم بالابتعاد عنهم، ذلك أنها تقبّلت مراراً وبصمت متواطئ، لمسات الرجال لكتفها أو ذراعها أثناء تحدثهم إليها أو مساومتهم لها على أسعار الأدوات التي تبيعها. هي

لم ترغب في مناقشة ما إذا كان هذا النوع من الرجال سافلاً أم غير سافل، لم ترغب في مناقشة الأمر مع نفسها، كانت تكتفي بما تبثه لمساتهم في بدنها من أحاسيس غامرة بالمتعة المتفرعة إلى كل أنحاء جسدها وحتى شعرها، وكثيراً ما تنبهت إلى استسلامها اللذيذ لتلك اللمسات التي تعزلها عما حولها، ولجأت غير مرة، إلى استعادة رعشات تلك اللمسات أثناء تقلُّبها الليلي على فراشها المتدرّن.

كانت تتساءل كلما رأت أولئك الشبان و الرجال المتهافتين في الأسواق، تتساءل عما إذا كان جبر أبو بركة، الهادئ العنيد، مختلفاً أم كائناً آخر! لماذا لا يستجيب لها؟ لماذا لا يؤججه مشهد الجسد المتفلت من فساتينها اللماعة التي ترتديها في بيتها، تلك التي لا تستر جسدها، بقدر ما تسهم في استحضار الذكورة والعواء من أعماق الرجال.

كان من الممكن أن يؤدي هدوء جبر إلى توقف هاجار عن محاولات فحِّ الشهوة عبر المسافة الفاصلة بين باحة دارها وبين غرفته، غير أن ملامحه الأكثر هدوءاً من ليالي الصيف، شفت عن اشتعالات جدية لم تستطع الصمود أمام المنطق الواحد الذي تعنيه وقفته اليومية على شباك غرفته، لماذا إذن لا يبدأ اقتحامه؟ لماذا يتمنّع؟ بل لماذا لا يكف عن النظر إليها كلما استند بكوعيه على نافذة غرفته المطلة على باحة جسدها ودارها؟

كان هذا مبعث فضولها، لكنه في الوقت ذاته، أنساها الكثير من عوائق الاستمرار في المحاولة، كانت تريد جبر، وهاجار غجرية! لذا بالغت في إبراز مفاتن جسدها الذي لم تجرؤ على إشهاره أمام الآخرين، خوفاً من هجوم رجولتهم التي لا تعرف الحدود.

من ذا الذي يوقف الرجال كل الرجال، لو رأوا يوماً نهدي هاجار، وكتفيها وإبطيها الغاويين؟ لكن جبر أبو بركة، بهدوئه الصخري العنيد، لوى أعناق الخيول الراكضة في سهوب خيالاتها، وأطفأ ببروده شهواتها المتأججة التي تراجعت وترسبت في أعماقها الباحثة عن تبرير واحد لذلك التمثال النصفي المتحجر على الحافة السفلى للنافذة.

- ٤ -

تلك كانت التجربة المهينة في حياتها، لكنها في الوقت ذاته أعانتها على إدراك المسافة التي تفصلها عن جبر، الفلاح، الذي يريد ولا يريد!

هاجار أدركت أنّ جبر أبو بركة لا يمكن أن يكون كالشبان الآخرين، لكنها بتوصلها إلى هذه النتيجة، لم تصارح نفسها بذلك الوميض السريع، للفكرة السريعة التي راودتها ذات صباح حيي! فقد رأت عرقي بن كياز، وهو خارج من بيته، ببنطاله الأسود وقميصه البرتقالي، وشعره المصفّف المبلول، هاجار لم تتساءل حتى ذلك الصباح الحيي، لماذا لم تلتفت إلى عرقي من قبل؟ لماذا لم تلتقط من تفاصيل علاقتها به، تلك العلاقة الأُسرية المدجنة الخالية من أحاسيس الجنسين، الزاخرة بالتناهد والتناكد، لماذا لم تلتقط من تفاصيل تلك العلاقة، وميض إحساس واحد بالحب؟

لا بد من الرجل! هذا ما أفرزته مخيلة هاجار، رجل قادر على الاقتحام دون تردد، هذا ما توصلت إليه في ليلة صيفية حارة لم تستطع حيالها غير التقلب في فراشها، ومراقبة والدها النائم على ظهره، بفمه

المفتوح، وأذنيه المتباعدتين، وساقيه العصويتين الملتمعتين في الضوء الشاحب.

لا بد من الرحل! هو ذا قرار آخر الليل. لكن الصباح مختلف، ففي الصباح ينحسر الخيال، وتختفي أفكار القلق مثل كائنات الليل، لكنها لا تموت. أين تذهب أفكار الليل، الجامحة، المتمردة، الغريبة؟

في الصباح تستهجن أفكار ليلها، تهز رأسها لتنفض عنه ما علق به من أوهام، لكن تلك الأوهام نمت في فراغ المسافة الفاصلة بينها وبين جبر، وغدت جديرة بالتفكير النهاري، ثم اتخذت شكل الممكن، ثم المقبول، وأخيراً الحل.

- ٥ -

كانت تفكر بمعزل عن والدها الذي ضاقت علاقته بها، وتحولت إلى علاقة محايدة تجمع بين اثنين من عالمين مختلفين، " لتفعل هاجار ما يحلو لها ".

سبلو لم يتوصل إلى هذا التسليم إلا بعد اضطلاع ابنته بمهام إعالته وتزويده بأسباب انسياب أيامه ولياليه، أيامه المتفلتة من ذكرياته، ومن آلام المشهد الأخير للحظة الأخيرة في حياة بهاج، لياليه الخالصة من كآبات انتظار لحظة الموت في نبوءة العجوز.

لو صحا سبلو لأصيب بالذعر كلما تسارع النبض في فؤاده، ولتجمع الدم في رأسه حال إحساسه بتلك الوخزة المتكررة في الجانب الأيسر من صدره، حيث القلب. لو صحا لانتبه إلى التغيرات اليومية التي تعصف بالوادي فتغير هيئته، وتلتهم ما تبقى من آثاره التي تربطه ببهاج وتذكره بها.

كان الوادي يكبر، ويتغير، أما سبلو، فيصرّ على تثبيت الزمان عند نقطة محددة هي الغياب! الغياب عن البيوت الجديدة في الوادي، والدكاكين الجديدة والناس الجدد، وحتى إنشاء شارع الوادي والتقاطع الشرقي، لم يكونا مثار اهتمام سبلو لولا اضطراره إلى عبورهما كل يوم، حين الذهاب إلى الحي الشرقي لشراء العرق من بقالة " أبو جريس"، وحين الوقوف عند التقاطع الشرقي.

لأمر ما كان سبلو يصر على الوقوف الصباحي عند التقاطع! ولأمر ما كانت هاجار تطالبه بالكف عن الوقوف في ذلك المكان!.

" لتفعل ما يحلو لها"، قال سبلو لكياز الذي وصف هاجار بالطمع! ذلك أنها أعادت النظر في الأجرة التي تتقاضاها لقاء بيعها مصنوعاته، وطالبته بزيادة تلك الأجرة، فاضطر إلى الاستجابة لها، فهو يعرف بأن ما يبيعه ابنه عرقي لا يساوي شيئاً إذا ما قورن بما تبيعه هي. يومها تنبه كياز إلى امتلاء جسد هاجار، وانتبار صدرها، وابتلال شفتيها، وحينما استدارت عائدة إلى بيتها، لمح مشيتها من الخلف، فتمثلت أمامه طريقة والدتها في المشي البطيء، الذي يدعو المرء إلى حصر اهتمامه بمؤخرتها من دون سائر جسدها، وأطال الوقوف حتى اختفت داخل بيت والدها، ثم حك شعره الذي وخطه الشيب، وتوجه إلى بيته ليتأمل وجهه في المرآة المثبتة بالحائط، تأمل أخاديد جبهته، وخديه، ورقبته، تأمل حاجبيه، وشاربيه الكثيفين، فأزعجه امتداد سلطان الشيب إليهما "هاجار صورة عن والدتها "، هذا ما فكر به قبل أن يتلقى صفعة التراكم المريع للسنين في مرآة وجهه.

غجريات الوادي يتحدثن عن هاجار التي لا تشاركهن جلساتهن أمام البيوت، يتحدثن عنها بشيء من الغيرة، لكن غيرتهن أخفت إعجاباً بتلك الفتاة التي تمكنت من تحسين وضعها بين الغجر، فاستبدلت بالشادر الذي يغطي بيت والدها سقفاً إسمنتياً مسلّحاً، واستبدلت بالشباك العتيق نافذة جديدة صنعها النجار الوحيد في الوادي، كذلك استبدلت بالباب الخشبي العتيق آخر جديداً، واشترت فراشاً جديداً لها ولوالدها، وخزانة بنية اللون، وحينما استعادت أنفاسها بعد عامين، اتفقت وأحد البنائين على إقامة غرفة أخرى ملاصقة لغرفة والدها، ومطبخ صغير، ومرحاض. ولقد أحس سبلو بأن ابنته بأفعالها هذه، تساهم كغيرها في إخفاء ما تبقى من آثار بهاج "وأنت أيضاً يا هاجار!؟ " قالها بألم، لكنه أحس بأن عجلات الحياة قاسية في تقدمها الغريب.

أدى نشاط هاجار المتزايد في تسويق مصنوعات كياز إلى توقف ابنه عن مزاولة هذا العمل، ذلك أنها كانت تنتقل بين الأسواق والأرصفة وأحياء المدينة، أما عرقي فمل ذلك العمل، وأضجرته رائحة الحديد المحروق ورنين الأدوات بين يديه، ورأى بأن ذلك العمل، لم يعد لائقاً بشاب مثله، وأن من الأفضل له أن يبيع الصحف في تقاطعات المدينة، حيث تتوقف السيارات والحافلات، وحيث يطحن الوقت تحت اللهيب الساقط من سماء الصيف.

- ٧ -

قاتم وجه كياز الغجري، على الرغم من الإطلالة الناصعة البياض في قرنيتي عينيه، وعلى الرغم أيضاً، من سنه الذهبية التي لا تميزه عن غجر الوادي، لأن معظمهم يعمدون إلى تلبيس بعض أسنانهم بالذهب.

ما يميز كياز هو عصبيته المدمرة وتوتره السريع، فإذا غضب أو استفزّ، فقل على ما في بيته السلام، لا صحن يبقى ولا طنجرة ولا كرسي ولا ابتسامة ولا ولا ولا... لا شيء يبقى على حاله غير المرجل الذي يحرق في أتونه الحديد! والدماء تدفق من يده حين يواصل إعصاره وتدميره، لكن زوجته سمار تعلمت بمرور السنين، كيف وأين تذهب بشحنات غضبه وسموم غيظه، فهي تشعل له سيجارة على الفور، ثم تشمر ثوبها إلى فوق ركبتيها، وتبدأ بكنس ما أتلفه زوجها متعمدة الانحناء أمامه، ليرى وركيها اللذين يشعلان فحولته، فيفجّ من كيانه الفهدي الوثّاب، ويقفز إلى البوابة الخارجية، لا بد من إغلاق البوابة بالمزلاج، ثم العودة السريعة إلى الزوجة المنتظرة على الفرشة القطنية، لا بد من سماع أنينها الأنثوي الذي يزيد ذكورته اشتعالاً، ويحيلها إلى هدير حيواني مسحوب، ربما، من نزعة افتراسية دفينة، سرعان ما تتجمع في أصابعه وفي أظافره التي ينشبها في لحم زوجته السمراء، سمار.

غير أن كياز، بعد أن غزت جسمه دلائل الكبر، قلّل من مواقعاته لزوجته! الأصح أنه لم يقم بفعل التقليل هذا بمحض إرادته، وإنما صارت أيام الأسبوع تنزلق من حياته من دون أن يعترضها بمواقعة واحدة مع زوجته، وحينما استحكم اللهاث في صدره، ولاَنَ جسمه بعد أن كان مشدوداً، ازدادت عناته، وتباعت فترات شهواته، وأخذ يتحدث عن سمار أثناء سهراته في بيت سبلو "هذه المرأة تريد أن تقتلني!

من يوم تزوجنا وهي تغويني! يا الله من جنس حواء! تغويني! وأنا من لحم ودم".

كان يبحث عن مبررات لتراجعاته الجنسية، ويخفي خيبته وراء أقواله التي لم تبعث في نفسه سوى مزيد من التراجع والخيبة"لازم الانسان يظل قوي، والجماع يهدّ الحيل، ويفرغ العظام، ويخطف العقل" كان يقول أمام سبلو الصامت، لكن قلقه دعاه إلى البحث سراً عن أساليب لتقوية قدراته الجنسية، فصار يتبع الكثير من الوصفات السائدة، كشرب زيت الزيتون والعسل وحليب الأبقار، كما امتنع عن تعاطي المشروب في ليلات شهواته، غير أن محاولاته تلك لم تسهم في زيادة مواقعاته المتعبة لزوجته سمار، وبخلاف ما اعتاد من زوجته، فقد بدأت تسمعه عبارات التذمر، وأوصاف العث والهرم والعجز وأخيراً، الخراب! كانت تحاول استفزازه من أجل استدعاء قدرات شبابه الآفل، وحينما تأكد لها بروده وبطؤه تجرأت على مخالفة الكثير من تعليماته، بل إنها وجدت أن كل شيء في الحياة ممكن، بما في ذلك التمرد على كياز الذي، كان.

- ٨ -

تمرُّد عرقي على والده اتخذ شكلاً آخر، فعرقي يحب الغناء والطرب، ويسمع الكثير من الأغنيات الشائعة عبر سماعه مسجلته التي تعمل بالبطارية، لكن هذا لم يرق لوالده الذي حاول قتل هوايته بإغلاق المسجلة تارة، وبتكسير الأشرطة تارة أخرى، على أنّ ما أثار غيظ كياز وبعث في بطنه آلام المغص، هو غناء عرقي وتقليده للأغنيات التي يسمعها، كان هذا مبعث إحساس بالمغص عنده، فصار

ينادي ابنه قائلاً "يا خالع" و "خالع خالع، لكن دعني أغني كما يحلو لي" يرد عرقي على محاولات والده للنيل من أحلامه، لكن تلك الأحلام أخذت تكبر بعد استماعه إلى العديد من عبارات التشجيع، وبعد أن تطوع بإظهار موهبته في العديد من أعراس الغجر وغير الغجر، ونال الكثير من التصفيق وعبارات الاستحسان، بل لقد بدأ اسمه بالظهور في الوادي، خصوصاً في أوساط الغجر الذين كشف حماسهم الغريب له، عن أنهم ينتظرون ظهور مطرب من بينهم، لكن هذا الحماس لم يمنع والده من توبيخه وتهديده بالطرد من البيت تمشياً وتقاليده الخاصة التي لا تقبل بتحويل بيته إلى مجمع "لكورس" عرقي، ثم إن كياز صار يغير على زوجته سمار حتى من الهواء! فكيف بأولئك المراهقين الذين يجمعهم عرقي في بيته؟ وحينما توالت تدخلاته في شؤون ابنه، حاول هذا الأخير الرد من خلال إنقاص المبلغ الذي ينقده إياه كل يوم مما زاد من حنقه، فهدده من جديد بالطرد من البيت، واتّهامه بتضييع نقوده على أصحابه " الخالعين مثله" ولقد أدى هذا إلى بعث نوع من الكبرياء في نفس عرقي، فأمسك بيدي والده حينما أراد ضربه، وكان جسمه قد امتلأ وفاض بطنه عن حزامه بخلاف الشبان في سنه، أما خداه فلم يتخذ امتلاؤهما شكل الورم أو البروز المنفر، وإنما شكل الانسياب الذي أضفى على وجهه مسحة من البراءة السميكة.

تلك كانت المرة الأولى التي يقبض خلالها على معصمي والده لتفادي لطماته، غير أن محاولته تلك، أدّت إلى انهيارات كثيرة في نفس كيّاز، حيث أحس ولأول مرة، بأنه أمام رجل قادر على مكاسحته، وعلى الصمود أمام غضبه المدمر، كما قرأ في عيني ابنه ومضات تمرد طارئ لا يمكن السكوت عنه، لذا حاول أن يفلت معصميه من أجل

مواصلة إعصاره الذي تحول إلى نوبة مفاجئة من الغيظ المنبعث من تسرب أحاسيس العجز إلى نفسه المكابرة، وإذ أخفق في إفلات معصميه من قبضتي ابنه القاسيتين، شتمه، وبصق في وجهه العريض، بينما تلّوت أمعاؤه غيظاً وعجزاً، وحينما جسأت يداه وأخفق في تخليصهما من قبضتي ابنه الذي ظل واقفاً مثل صخرة عنيدة صامتة، راودته فكرة تأجيل انتقامه لعجزه، فهدأ فجأة، وقال بصوت لاهث متوعد " طيب، اترك يدي الآن، سأريك فيما بعد يا ابن الخالعة" قالها لابنه فأفلته على مرأى من والدته، وأخواته اللائي لم يتدخلن في تلك الجولة، وحينما أراد عرقي الخروج، بادره كياز بوهن " كبرت يا ابن سمار" ثم انفجر في بكاء مفاجئ!

***

سلمان حامد أبو بركة

- ١ -

إذا كان سكان الوادي قد تنبهوا إلى أهمية التقاطع الشرقي قبل أن تنير الكهرباء بيوتهم، إذا كان بعضهم قد ابتسموا لحظوظهم التي أتاحت لهم فرص شراء الأراضي عند ذلك التقاطع، فإن أبو سلمان ابتسم من جديد لذكائه الذي أوصله إلى توقع ما سيتطلبه دخول الكهرباء إلى الوادي من احتياجات منزلية جديدة، كتلك التي انتشرت في الأحياء الأخرى التي دخلها التيار الكهربائي قبل الوادي بسنوات.

سبق أبو سلمان السكان في توقّعه هذا، فأقام معرضاً لبيع الأدوات والأجهزة الكهربائية والأثاث بجانب المقهى، وملأه بكل المتطلبات التي سترافق ذلك التطور الهائل في حياة الوادي، كما أغلق على السكان منافذ التفكير في منافسته على بيع تلك الأجهزة والأدوات، وذلك عن طريق استجلاب العديد من أصنافها، بحيث يتعذر على أي من الطموحين في الوادي مجاراته سواء من حيث القدرة المالية، أو من حيث أسلوب البيع البارع المستند إلى التقسيط المريح والعلاقات الممتدة، والشخصية الكاسحة التي أعانته على تثبيت وجوده الماحق!

لقد اضطلع سلمان أبو بركة بمهمتي الإشراف على المقهى والمعرض الملاصق لها، واستخدم اثنين من الشبان لمساعدته، ولتحميل الأثاث

والأجهزة في البكب الأبيض الذي اقتناه لهذه الغاية. لكن معرض أبو بركة ما كان له أن ينجح لو لم يتم ايصال التيار الكهربائي إلى الوادي، وربما يفسّر هذا، تلك الجهود التي بذلها أبو سلمان، من أجل الحصول على أوامر نصب الأعمدة، ووصلها ببعضها عن طريق الأسلاك المجدولة، ثم تركيب العدادات والساعات في البيوت التي تمكن أصحابها من دفع الرسوم والتأمينات المطلوبة. ولقد ترافقت تلك الاجراءات بحركة دائبة في الوادي، ذلك أن السكان لم يتمكنوا من كبت علقات الفضول التي دعتهم إلى التجمع حول العمال والفنيين، ومراقبتهم، والاحتماء بهم، وتوجيه الأسئلة إليهم حول موعد وصول التيار الكهربائي إلى الوادي وحول دوامهم، ورواتبهم، وأصولهم، وأعداد أولادهم. وحينما انتهى أولئك الفنيون من أعمالهم، انتظر السكان بفارغ الصبر، لحظة وصول التيار الكهربائي ليتخلصوا من مصابيح وفوانيس الكيروسين التي دغّمت جدران بيوتهم وأنوفهم، انتظروا ليلة، ليلتين، ثلاثاً... وفي الليلة الثامنة لانتظارهم، وبينما يعيشون لحظاتهم بعيداً عن إلحاح الانتظار، إذ بمصابيح الأعمدة الكهربائية تضاء دفعة واحدة على امتداد شارع الوادي! وإذ بالبيوت والباحات تشتعل بالضوء!

هكذا، فجأة تغير الليل في الوادي، وتحول السكون إلى ضجيج وصفير وزعيق! فجأة أخذ الشبان والصبية يتراكضون ويتصايحون بانفعال في الطريق وفي الأزقة المضاءة، كأنما بثت الكهرباء في أجسامهم وحناجرهم، طاقة لم يستطيعوا حيالها غير القفز، والصياح، والركض، ودخول البيوت من أجل مشاهدة نعمة الكهرباء، ونكهة التغير الجديد في حياتهم.

في تلك الليلة تردد اسم أبو سلمان وابنه على ألسنة السكان، وقالوا "لولاهما لما صار الوادي، ولما تصور" ولكي يؤكد أبو سلمان على دوره الحاسم في إيصال الكهرباء إلى الوادي، اصطحب ابنه في جولة إلى الكثير من البيوت المضاءة فاستُقبلا كما لو أنهما مصدر تلك الطاقة المذهلة.

غير أن ذلك التطور الكبير، أدى إلى كشف العديد من الحقائق الأسرية المستورة، فالكهرباء لم تطأ عتبات البيوت التي لم يتمكن أصحابها من دفع تكاليف التمديدات والرسوم والتأمينات اللازمة، لذا بقيت تلك البيوت مطفأة، أو هكذا بدت وسط البيوت التي تفاخر أصحابها بالإعلان عن اقتدارهم ويسرهم، بإشعال كل المصابيح في بيوتهم، أما البيوت المطفأة فظلت كذلك أياماً وشهوراً، كأنما هي شاهد على فقر أصحابها وعوزهم.

تلك كانت مدعاة حرج للعديد من السكان الذي تمنوا لو بقي الوادي كما كان في السابق.

سبلو تمنى لو لم تدخل الكهرباء بيته! تمنى لو تقتنع ابنته هاجار بأن الكهرباء التي أضاءت الوادي قد أعتمت ذاكرته، فمحت منها الكثير الكثير من مخزوناتها الغريبة!

– ٢ –

كثير من الأشياء في الوادي تغيرت بدخول الكهرباء، وصار الناس يسهرون أكثر، ويتمشون في الطريق، ويتجمعون تحت أعمدة الكهرباء، وتم تركيب سماعتين للمسجد من التبرعات الأسبوعية المخصصة لصيانته، وكف المؤذن عن أداء الآذان من على سطحه بعد

أن تعلم كيف ومتى يفتح الميكروفون ويغلقه، واعتاد السكان سماع صوت المؤذن في كل بقاع الوادي عبر السماعتين، على أن المظهر الصارخ الذي رافق الكهرباء، هو دخول بعض الأجهزة الكهربائية إلى البيوت.

أبو سلمان هو أول من أدخل التلفاز إلى الوادي، إذ اقتنى تلفازين واحداِ لبيته والثاني للمقهى التي استقطبت الكثيرين من الرواد الجدد. كما وضع سلمان تسعيرة ثابتة لمشاهدة التلفاز قيمتها قرش واحد لكل متفرج، وتمكن بهذا من جمع ثمن التلفاز خلال شهور، ثم فكر بعدها بتوسيع تجارة معرضه، بحيث تشمل التلفازات والثلاجات، وحينما عرض على السكان فكرة تقسيط أثمانها، فكر الكثيرون منهم باقتناء تلك الأجهزة، ثم تشاوروا وزوجاتهم وأنفسهم، ثم فكروا، ثم تشاوروا، ثم اتفقوا، فقرروا الشراء، فاحتل التلفاز بيوتهم، وارتفعت المواسير الغليظة فوق سطوحها حاملة الشبكات الهوائية والأسلاك! لم يمض سوى بضع سنين على دخول الكهرباء إلى الوادي، حتى امتلأت السطوح بالمواسير والشبكات التي أضفت على الوادي مظهراً لم يكن مألوفاً من قبل، وأخذت الأفلام والمسلسلات تحتل جزءاً كبيراً من أحاديث الأطفال والشبان والرجال والنساء! كانوا يبدون دهشتهم من أفعال " محمود المليجي وفريد شوقي وتوفيق الدقن"، يتعاطفون ويحقدون ويضحكون ويحزنون. وعلى الرغم من تيقّنهم بأن ما يرونه على الشاشة مجرد تمثيل إلا أنهم كانوا يميلون إلى تصديق ما يشاهدونه من أفعال يقوم بها الممثلون الذين يحققون في النهاية رغباتهم وميولهم.

بعض سكان الوادي، لا سيما الموسرين منهم، نقلوا إلى بيوتهم العديد من مظاهر

الأفلام والتمثيليات، كالستائر والكنبات والمراوح والثلاجات والتلفازات وأفران الغاز، وحتى الملابس التي يرتديها الممثلون والممثلات، فقد قام بعض شبان الوادي بتقليدها.

- ٣ -

تعامل سلمان أبو بركة في تجارته بطريقة القسط المريح، لكن الناس في الوادي، خصوصاً الغجر، اهتدوا إلى طريقة عجيبة للحصول على النقود! فكلما ضاقت الحياة بهم، ذهبوا إلى معرض سلمان، واشتروا مسجلاً أو تلفازاً بالأقساط، ثم باعوه بخسارة لا تقل عن ثلث ثمنه على أن يقبضوا ذلك الثمن من المشتري نقداً وعلى الفور! كانوا يبذلون جهداً قبل أن يهتدوا إلى مشترٍ لتلك الأجهزة، وحينما علم سلمان بهذا، قرر إراحتهم من ذلك الجهد، بأن صار يشتري منهم تلك الأجهزة في نفس اللحظة بما يقارب ثلثي الثمن أو أقل، حسب المساومة، ثم يعيد بيعها لغيرهم. ولقد وجد في هذه التجارة المستورة ربحاً خيالياً بلا تكلفة، وكان يشتري ويبيع دون أن تدخل هذه العمليات في سجلات معرضه.

في الشتاء يزداد الربح، لأن حاجة الغجر للنقود تزداد، يا الله كم يضايق الشتاء الغجر! كم يمتص من أعصابهم! فهو بالإضافة إلى كبته رغباتهم في الرقص والغناء في أفنية البيوت المكشوفة، وبالإضافة إلى أنه قطيعة رزق حقيقية لهم، فهو يحتاج إلى مصاريف إضافية من الكيروسين والملابس الثقيلة والأغطية والمدافئ " المهم هو الدفء" يقول الغجر متفلتين من كوابح ضيقهم، ويتوجهون إلى سلمان، يشترون الأجهزة

الكهربائية بالقسط ليبيعوها له في نفس اللحظة نقداً، بخسارة قد تبلغ نصف ثمنها الأصلي!

الشتاء هو موسم الضغط على الغجر وعلى بعض الفلاحين. أما كيف يسدد الغجر أقساطهم، فهذا لا يهمهم، إذ مهما بلغت الأقساط الشهرية، فسيظل جزء من دخلهم لهم، جزء مطّاطيّ يتم شدُّه على مسافة قدرها ثلاثون يوماً بلياليها ومناسباتها ولهاث الحاجة فيها.

- ٤ -

الغجر يحبون سلمان أبو بركة، فهو المصلح الذي يفضّ اشتباكاتهم مع بعضهم، وإليه يلجأ ضعفاؤهم ويجيرهم، ويستمد من تاريخ والده المريض، ومن وجوده، نفوذا يؤهله إلى التفاهم مع رجال الشرطة الذي يأخذون جماعات الغجر في سياراتهم، ويحبسونهم في المخافر لكي يكفوا عن الاقتتال! والغجر أبداً، يحسون بالامتنان تجاه سلمان، بل إنهم أقاموا عرساً أمام بيته يوم رزق بابنه الثاني أحمد وغنوا له ورقصوا حتى الهزيع الأخير من الليل، حيث تناوب سلمان ووالده إطلاق رصاصات الفرح في الهواء، أمّا أم سلمان فقد زغردت أمام النسوة اللائي تجمعن في بيتها ابتهاجاً بالمولود الجديد أحمد.

لا يحب الغجر السجن ولا يطيقونه، أبداً لا يطيقون تلك السجون التي تكتم أنفاسهم، وكثيراً ما يصيحون أثناء وجودهم المؤقت وراء القضبان الحديدية. ولقد تمكن كل من عرقي بن كيّاز ونشاب المبيّض وناصي عامل التنظيفات ذات مساء غارق في السهو، من فتح باب غرفة الحجز في المخفر، والهرب منها على الرغم من معرفتهم بأنهم لم

يكونوا سجناء، إنما مجرد محتجزين لساعات معدودة. غير أن ما أثار رئيس المخفر أن ذويهم حمّلوه مسؤولية اختفائهم! وتظاهرت نساؤهم بندبهم على الرغم من معرفتهن بمكان وجودهم، ومن أنهن كن يوصلن إليهم الطعام وأباريق الشاي والسجائر في مخبئهم! حينها اضطر رئيس المخفر تحت وطأة المسؤولية المترتبة على اختفائهم، إلى استنفار رجاله الذين اهتدوا إلى مكان وجودهم بفضل الموال المتألم الطويل الذي أطلقه عرقي فجأة في ذلك المخبأ الأثري في أرباض المدينة، ولولا وساطة سلمان لَمَثُلَ الثلاثة أمام المحكمة بتهمة الفرار من وجه العدالة.

"سلمان هو واسطتنا" تلك هي النغمة التي تصعّدت بين الغجر بعد أن تضاءلت فرص التقائهم بأبي سلمان المريض. وسلمان هو الذي تبنّى "قضية الكنافة" الشهيرة في الوادي، فقد اشترى الغجر في صبيحة اليوم التالي لزفاف "ناصي الكنّاس" ستين كيلو غراماً من الكنافة ليأكلوها في صباحية ناصي وعروسه المنحرفة العينين. في ذلك الصباح توارد الغجر إلى بيت ناصي، هنأوه وملأوا بطونهم بالكنافة، ثم خرجوا من دون أن يغسلوا أفواههم، لكي تظل الحلاوة فيها مدة أطول، وليجدوا في زوايا أفواههم وعلى مجسّات ألسنتهم، مبررات قوية لتدخين السجائر التي " ما ألذها بعد الكنافة" كانوا يقولون.

لم تمض ساعة واحدة على انتهاء الغجر من حشوهم بطونهم حتى بدأوا يتأوهون ويتألمون! كانوا يحسون بتمزقات والتواءات فظيعة في أحشائهم، ويتكورون حول بطونهم المطاطية بينما يقطر العرق من جباههم ورقابهم، يومها تدخل سلمان في الأمر، وذهب إلى صاحب

المطعم الذي باع الكنافة للغجر، واجهه بعينيه القاسيتين، وبصوته الصلب، وإذ لان، واصل اقتحامه الشرس له، فهدّده برفع شكوى وقضية تسمم إلى الجهات المختصة، سيكون من نتائجها إغلاق مطعمه وسجنه " أنا قلت حقيقة الوضع، وأنت حر" قال ممعناً في ترهيب صاحب المطعم الذي اضطر إلى التفاهم معه، ودفع الدنانير اللازمة لإسكاته ولإسكات الغجر الذين عالجوا بطونهم بالأعشاب البرية، وحينما عاد سلمان إلى الوادي أعاد إلى ناصي المبلغ الذي دفعه ثمناً للكنافة، ودفع لكل متسمم ديناراً، الصغير والكبير والمرأة والرجل والعجوز، وكان كياز الغجري أكثر المنتفعين من تلك التعويضات لأن كل أفراد أسرته تسمموا، وقبض بالمقابل ثمانية دنانير دفعة واحدة! وتمنى عدد من الغجر الذين فاتتهم حيلة التظاهر بالتسمّم، لو أنهم تنبهوا منذ البداية إلى الفكرة، بينما تمنى عدد آخر منهم لو تسمموا فعلاً لكي يحصلوا على تعويضات أكثر، غير أن ما أزعج سلمان، تلك الاشاعة التي ترددت في الوادي وانتشرت بسرعة بين الفلاحين، حيث قيل بأنه وزّع على المتسمّمين نصف المبلغ الذي حصل عليه "وحط الباقي في جيوبه" وإذ علم بتلك الاشاعة، زفر بمرارة وقال "هذي آخرتها، خير تفعل، شر تلقى ".

***

نزار أبو خنجر

- ١ -

لم يكن للمدعو " نزار الزّقي" دور في حياة السكان من قبل، فقد جاء الوادي قبل وصول التيار الكهربائي بعامين فقط، واشترى بيتاً من أحد الغجر الذين ملوا الحياة مع الفلاحين. كثير من الغجر ملّوا تلك الحياة الطارئة فباعوا بيوتهم بأثمان بخسة، وعادوا إلى حياة الخيام، حياة الفلاء.

نزار الزقي رجل أسفع البشرة، غليظ الهيئة، وربما القلب أيضا.

لنزار الزقي وجه حرذوني ورقبة غليظة، وجسم ممتلئ ضخم لا يتناسب ورأسه الحليق الذي يبدو للوهلة، صغيراً!

ما يدعو المرء إلى تذكر نزار، هو تلك السن الشاغية الرمادية في فمه، إن تلك السن، لفرط تميزها عن غيرها، لتكاد تدعو المرء إلى حصر اهتمامه في ذلك الموضع من جسمه وكيانه: فمه! لذا فإن أحاديثه مسموعة، وكلماته واضحة لا لبس فيها.

بيت نزار، ملاصق تماماً لبيت سبلو من الناحية الشرقية، غير أن ذلك الجوار لم يسفر عن أي نوع من الصلة بين الرجلين! فسبلو الغجري يعيش في عالم مختلف عن ذاك الذي يعيشه ذلك الفلاح. نزار فكر جاداً في فترة من حياته الصاخبة في الوادي، بأن يبيع بيته ويرحل، فقد اكتشف أنه من المستحيل إيجاد حل لمشكلة الضجيج الذي يسببه

أولاد الحارة له أثناء لعبهم بجانب بيته.هو لم يفطن إلى ذلك الضجيج إلا بعد أن وقعت الفأس في الرأس واشترى البيت. لكن حادثة الحمار أفادته ومكنته من تخفيف حدة الصخب الذي أقضّ مضجعه. وحكاية الحمار تتلخّص في أن حماراً توقف أمام دار نزار ليلاً، وبدأ ينهق في الوقت الذي كان الرجل فيه مستلقياً على فراشه بعد جولة متعبة في سوق الخضار الرئيسي، وإذ ازداد النهيق فزّ من فراشه حانقاً، وخرج ليطرد ذلك الحمار، وحينما اقترب منه، رفسه بحافره، فتمزق بنطال منامته عند منطقة الركبة التي احمرت وانتفخت على الفور. هنا عاد نزار إلى بيته، واستل خنجره من تحت فرشته، ثم خرج راكضاً وسط دهشة زوجته الهادئة (هادية).

كان الحمار قد توقف عن النهيق حينما خرج بخنجره، غير أن آلام رفسته ظلت تنقر دماغ نزار، وتبثّ في نفسه رغبة ملحة في الانتقام من ذلك الكائن الذي آذاه على الرغم من أنه حمار.

ما أن غرز خنجره في بطن الحمار، حتى جعل يركض ويقفز متمسكاً بذيول روحه الهاربة، بينما لم تتوقف الدماء عن التدفق من بطنه المشقوق، ومن أمعائه التي اندلقت على الحصى، قبل أن يرتمي على الأرض ميتاً.

كل سكان الوادي عرفوا بحكاية الحمار المطعون، لكن الأولاد بعدها صاروا يلعبون بعيداً عن بيت نزار، حيث حذرهم أهلوهم من الاقتراب من هذا " الترار" لأن عقله " تريلّلي". هكذا وصف السكان عقل نزار. أما هو فقد حقق بعض راحته، واستقبل بعدها، بشيء من الارتياح لقب نزار أبو خنجر الذي أطلقه السكان عليه بعد تلك الحادثة.

- ٢ -

لقد قيل في الوادي بعد تلك الحادثة، أن من يطعن الحمار لا يتورع عن طعن الانسان. قيل ان في عقل نزار مسّاً، وإلا كيف يطعن الحمار؟ قال السكان أشياء كثيره عنه وعن الحمار، وضحكوا كثيراً، وسخروا كثيراً، لكنهم تخوفوا من وجود نزار أبو خنجر في الوادي.

- ٣ -

لا يعثر نزار على نفسه إلا في سوق الخضار الرئيسي، حيث الرائحة التي لا تفارق أنفه، رائحة الخضار والفاكهة والشمام والبطيخ.

ما أن يدخل ذلك السوق، حتى يمتلئ صدره بأحاسيس التميز التي تدفعه إلى ارتكاب تسلياته اليومية، يمازح الحمالين والسواقين مستخدماً يديه القاسيتين، وذراعيه الغليظتين. يضربهم، يلوي أياديهم وأذرعهتم، لكنهم يحتملون! ربما يجدون أنفسهم أمام ضرورة احتمال ذلك النوع القاسي من المزاح الذي يلجأ إليه كلما وجد نفسه بينهم.

أكثر من هذا أنهم يطيعونه! ويملأون له سيارته البكم الكحلية بصناديق الخضار والفواكه " خلينا نخلص من شرّه " يقولون فيما بينهم، ويعقدون المصالحات بين الرايات المسالمة لضعفهم، وبين السنان الحادة لقوة نزار، ولذلك الفم الفاغر الهائل، الحياة.

- ٤ -

ما يزيد من خوف أولئك الحمالين والسواقين أن نزار يجلس وموظفي المحلات والشركات في السوق. يجلس أيضاً مع أصحابها وحتى مديريها. ويتحدث وإياهم في شؤون الحياة والخضار والسيارات،

ويفاضل مثلهم بين أنواع السيارات ويقرر مثلهم بأن المرسيدس هو سيد السيارات، وبأن الأبيض هو سيد الألوان. ويوافقهم في أحاديثهم المتعلقة بنقص أمطار المواسم، أو ازديادها واحتمالات غلاء أسعار الخضار، وكساد السوق، وبطر المستهلكين.

ويحترمونه. كل موظفي السوق يحترمونه، فيحس بتميزه عن السواقين. لأمر ما، يتميز ذلك الرجل عن غيره، ويمسك بسهام حظه الهارب، وانتكاسات أيامه المسحوقة تحت مداحل الساعات في ورشة الشرق الأوسط لتصليح السيارات.

لقد عمل في تلك الورشة لسنوات انتهت بقتال مع أحد أصحاب السيارات ولولا تدخل عمال الورشة في ذلك القتال لأنقضّ على صاحب السيارة الأصلع وفتك به، غير أن ذلك الأصلع صار صديقاً حميماً له فيما بعد! بل اشترى له "البكم" الكحلي ليشتغل عليه مناصفة، ثم سجله باسميهما مناصفة أيضا، وكان من الممكن أن تتطور علاقتهما، لكن نزار أحس بعد أشهر من استلامه للبكم، بأنه هو المالك الوحيد له، فزّينه بالأضواء الحمراء والخضراء والزرقاء من الأمام والخلف، وألصق عليه الكثير من القطع الفوسفورية والبلاستيكية التي تحمل عبارات "محروسة" و "سارحة والرب راعيها" و "حبيبي سلامتك" و "وكايدهم وحياتك" و"عين الحسود فيها عود".

أمّا صاحب البكم، فاكتفى أخيراً بالفتات الفائض عن حاجة نزار المتبرّم من قلة الأحمال والتصليحات الكثيرة المكلفة للبكب وتكاليف الكاوتشوك الجديد وارتفاع أسعار الديزل حتى أنه اضطر في النهاية إلى القبول بدخل شهري قدره عشرة دنانير من ذلك البكم.

في السوق ينسى نزار كل هذا ويتذكر لحظته المشحونة بالقوة والتميز، وبامتلاكه الصارم لنفسه التي لم تحقق سطوتها وتميزها، إلا بعد صراعات مريرة مع السواقين والحمالين، بل إن العاملين في السوق يعتقدون بأنه هو الذي ارتكب جريمة قتل (مسعود البشر) لأن الصراع بينهما كان مكشوفاً قبل مقتل مسعود الذي مات ميتة لا يتمناها المرء حتى لألدّ أعدائه، فقد وجدت إحدى دوريات الشرطة في أحد الأصباح رأساً مقطوعاً بجانب سيارة بكم بيضاء اللون، وعندما أطلوا من نافذتها مستطلعين، شاهدوا بذعر جثة مسعود البشر متكئة على المقود بلا رأس! وبعد التشريح تبين بأن الجريمة ارتُكبت ليلاً، وقالوا بأن كل سائقي السيارات التي عبرت طريق الجريمة المؤدية إلى التقاطع الشرقي، لا بد وأن شاهدوا تلك الرأس المتدحرجة بجانب العجلات الأمامية للبكم، غير أن الناس لا يحبون التبليغ عن الجرائم، رجال الشرطة يدركون هذا، ويدركون أن التبليغ عن أية جريمة سيضع المبلغين في دوامة س، ج. وسيتم استدعاؤهم كثيراً، وسيجلدهم رجال الشرطة إذا لم يعثروا على مرتكب الجريمة، لأن شخصاً ما يجب أن يُجلَد طالما أن هنالك جريمة قتل!

في اليوم التالي للجريمة استدعت الشرطة نزار، بعد أن تنامى إلى أسماع رجالها خبر صراعه الطويل مع مسعود البشر، وتم جلده، ثم احتجازه ثلاثة أيام بلياليها، حيث تمكنت زوجته هادية من زيارته بعد أن ضيَّعتها شوارع المدينة، ولما شاهدته وراء القضبان حدرت الدموع من عينيها، فشاركها البكاء متجاهلاً النظرات الفضولية للشرطي الذي كان يذرع الممرّ جيئة وذهاباً، وتساءل بعد أن غادرته زوجته، عن

السبب الذي دعاه إلى البكاء المكتوم وراء القضبان الباردة. غير أن صرير المفتاح في قفل الباب، قطع عليه فلسفاته تلك، إذ قال له الشرطي "إفراج علي ذمة التحقيق، وسنطلبك إذا احتجناك"، والتحقيق امتد شهوراً وشهوراً في المحكمة، من دون أن يتم إثبات التهمة على أحد.

- ٦ -

لنزار زبائن دائمون، إنهم بائعوا الخضار في الوادي، فهم يحمّلون الصناديق التي يشترونها من السوق المركزي في بكم نزار بآلية غريبة، أما السائقون الآخرون، فلا يجرؤون على الاقتراب من أولئك الزبائن.

للعمل أحكامه مثلما لذلك الاعتقاد السائد في السوق بأن نزار هو الذي قتل(مسعود البشر) أحكامه أيضاً. ولعل خير ما يفعله السواقون الآخرون، أنهم لا يقتربون من زبائنه أثناء جولات التنافس المرّ فيما بينهم.

- ٧ -

الخطوة الهامة في رحلة نزار الطويلة، لم تتحقق إلا بعد افتتاحه محل " النوفوتيه" بالقرب من معرض سلمان أبو بركة، لكن الفضل في هذه الخطوة الهامة، إنما يعود إلى زوجته (هادية)، فذات ليلة هادئة، صفا خلالها الليل له، فصفا هو لزوجته، قال لها بأن مهنة السواقة أتعبته، فلم يعد راغباً فيها.

تلك كانت المرة الأولى التي يشرك خلالها زوجته فيما يفكر، فقد عوّدها منذ ليلة زفافه منها، على احتمال فظاظته وحِدَّة طبعه، عوّدها

أيضاً على الارتجاف هلعاً لمجرد اشتمام رائحة غضبه، نزار عوّد زوجته على الكثير من الأمور التي لم تكن تعرفها في بيت والدها، وهادية احتملت، وتعودت! ففي ليلة زفافه منها، أغلق باب الغرفة خلفه بقوة، ثم خلع بدلته البنية متجاهلاً دموع عروسه التي حدرت على خدّيها، وإذ رأت لفائف الشعر الأسود على ساقيه وصدره، جفت دموعها، وانقلب حزنها جزعاً ورهبة، أما هو فَفَدَّ في وجهها بفظاظة جزار "ماذا تنتظرين؟ اخلعي ثيابك! " وعندما تلكأ الوجل في صدرها " خلّصيني يا مخلوقة " فدَّ في وجهها ثانية، فانكمشت، تراجعت إلى زاوية الغرفة، ارتجفت، لحقها، أمسك بذراعها الرفيعة، شدها إليه، آلمها، اشتمت في أنفاسه رائحة التبغ، وفي بدنه رائحة الذكورة، عرّاها، لملمت أطرافها، احتضنت نفسها، وحين ألقى بها على السرير، أطبق على كل ما تبقى من أنفاسها التي انكتمت منذ تلك الليلة.

- ٨ -

بعد أن رزق نزار بابنه الأول " ضرار " ذكّر زوجته بحضور سطوته.

هو لم يفعل ذلك من تلقاء نفسه، إنما بدافع من فحوى الحكاية التي سردها أمامه أحد موظفي سوق الخضار، عن خيانات زوجية ترتكبها إحدى نساء حارته في غياب زوجها.

لقد أحس نزار بأن تلك الحكاية تعنيه بشكل ما، وبذل المزيد من جهود السيطرة على دمائه التي غلت واضطرمت أثناء سماعه تلك الحكاية، وحينما انتهى الموظف من سرد التفاصيل، أطرق ثم قال للموظف " بإذنك، أنا متعب، سأعود إلى بيتي".

اتجه إلى بيته هرباً من حريق مفاجئ شب في صدره، إثر إخفاقه في احتمال الخاطر الذي دهمه فهز رجولته من قيعانها العميقة " لا يؤتمن للنساء"، قال في نفسه، وفي الطريق ردد " وما أدراني بالذي تفعله هادية في غيابي؟" وعندما وصل إلى بيته، دفع بابه الحديدي بقوة ليفاجئ زوجته التي كانت تلقم ابنها زجاجة من الحليب الجاف لمذاب "لماذا لا تسترين صدرك" صاح بها حال رؤيته ذلك الخط الصغير الفاصل بين نهديها من الأعلى، بينما دهمه إحساس غزير بالكراهية تجاه زوجته التي جف حليبها بعد أسبوع واحد من ولادتها لابنها. وحينما لاحظ بنفور، ضمور صدرها تحت ثوبها الأزرق الشفاف ازدادت كراهيته المفاجئة لها " لكن دارنا غير مكشوفة" قالت له بجزع، وعلى الرغم من معرفته وتيقنه من إخلاصها الأكيد له، إلا أنه بادر إلى صفعها على وجهها بعد استحكام ذلك الاحساس في أعماقه الساخطة.

لأمر ما ظل يصفع زوجته هادية التي خرجت عن هدوئها، فصاحت مستنجدة، وحين لم يستطع إخماد انفجارات صوتها، لوى ذراعها بقوة، فأحس بطقطقة عظام زندها الأيمن الذي ظل بعدها ملوياً، على الرغم من المحاولات التي بُذلت لتصحيحه في اثنين من مستشفيات المدينة، وعلى يدي المجبر العربي.

نزار بحث عن تبرير لما فعله بزوجته، فقال في نفسه " يجب أن تحسب حسابي، يجب أن أُذَكِّرها بأنني نار، نار، لكي لا تفكر ولو بمجرد التفكير باللعب من ورائي ". ثم فكر من جديد، متسللاً من لعنة الإشفاق المفاجئ الذي انتابه حينما شاهد الإغفاءة البريئة في جفني زوجته المستلقية على السرير الإبيض "سأرضيها"، قال في نفسه، ويوم

أعادها إلى البيت قرر" سأشتري لها إسوارة" وابتسم لقراره دون أن يفصح عن الأسباب التي دعته إلى اتخاذ ذلك القرار.

- ٩ -

نزار أبو خنجر مسؤول عن الالتواء الدائم في ذراع زوجته هادية، هذا ما يقوله أبو سلمان الذي فاتته فرصة إصلاح الأمور، بسبب وصوله المتأخر إلى بيت نزار. هذا مايقوله أيضاً كل من: كياز الغجري وزوجته سمار، وهاجار ابنة سبلو، وخليل الشايب، وعزو وزوجته وأولاده، وعرقي، وخلدون، ونشاب المبيّض، وحسان صبّاب الجبس، وناصي الكناس، وموزة زوجة عزو الأولى، والشيخ تركي زوج موزة الثاني، ونظمار زوجة الشيخ تركي الثانية. كلهم يقولون بأن نزار هو السبب، كلهم سمعوا صيحات هادية واستغاثاتها في اللحظات المزهقة، وكلهم شاهدوا الدماء التي ثَرَّت من فمها عندما حملها إلى سيارته البكم، ثم إلى الطبيب في عز الظهيرة " هكذا؟ " سأله الطبيب يومها بتأثر فأجاب " هكذا يا دكتور" فعاود سؤاله "بدون سبب يا أخي؟" "يا دكتور، المرأة وقعت على الدرج فحملتها وجئت بها إليك، هذا كل ما حصل". لكن نبرات صوته، ونظراته المفاجئة المسلطة نحو زوجته هادية، أغلقت منافذ الهواء في أنفها الدقيق وفمها الصغير للحظات، وأنستها في تلك الظهيرة الحارة بأن الكلام ممكن، وأن الاحتجاج ممكن، كل الامكانات غابت عن هادية حينئذ، ودارت الأشياء أمام عينيها، دار نزار بسنّه الرمادية، دار الطبيب والجدران والمقصات ولفائف الشاش وزجاجات الأدوية، وعندما أفاقت من غيبوبتها، وجدت نفسها ملقاة على سرير أبيض في إحدى غرف

المستشفى، حيث تمت معالجة الكسر الفظيع في عظمة زندها المكسور مما أدى إلى التوائه. واذ اكتشف نزار ذلك الخطأ، نقلها إلى مستشفى آخر، حيث أعيد كسر وتجبير زندها الرفيع ثانية، إلا أن الممرضين والممرضات أخطأوا أيضا في إعادة اللحمة إلى العظم، بدليل أنّ زند هادية عثم دون أن يستقيم، مما زاد في تصدعات نزار النفسية، وفي محاولة منه لرأب تلك التصدعات، اصطحبها إلى بيت المجبر العربي، فكسر زندها من جديد وأعاد تجبيره باستخدام البيض والدقيق وشرائح الأخشاب التي ساهمت في تعديل الالتواء دون أن تعيد الزند إلى حالته الطبيعية.

- ١٠ -

كان نزار يعتقد بأن جمال وجه هادية، لا يكفي لاستمرار عطائها الجسدي له، فنهداها الصغيران وخصرها النحيل وفخذاها الرفيعتان، هذه كلها لا تثير فيه ذلك الاحساس الراجف المبهم بالرغبة. كثيراً ما عدل عن مضاجعتها بسبب انتباهه إلى بروز عظمتي حوضها، وبذل جهداً كبيراً من أجل إثراء جسدها، لأن المرأة يجب أن تكون ممتلئة الجسد وخصوصاً الصدر. كان يقول لها، ويواصل مشيراً بإصبعه إلى صدرها المائي الضامر " ما هذا؟" وكان يحضر لها العسل البلدي، والسمن البلدي، واللبنة والجبنة البلديتين من القرى البعيدة، ويوصي المزارعين الذين يلتقيهم في سوق الخضار، بأن يُحضروا له من قراهم، الزغاليل والبيض والزبدة واللبن الطازج، فيستجيبون له آملين الاستفادة من تأثيره على موظفي الدِّلالة الذين يستطيعون رفع أسعار منتوجاتهم الزراعية "يجب أن تأكلي جيداً يا هادية لكي يصير لي نفس فيك" يقول

لزوجته، ويفكر، ستصبح هادية امرأة حقيقية في الفراش اذا استجابت واهتمت بأكلها.

غير أن شهيتها استعصت على الخروج من بئر البدايات المرعبة لليلات الزفاف الأولى.

كان الزواج في خيالها، بداية مؤهلة لحذف سنين القحط في جسدها. لم تتوقع بأنها ستتحول إلى منفذة لتعليمات رجل تجمّدت رغباته بعد عامين من زواجه منها " أهذا هو عالم الرجال" أصحيح أن كل الرجال مثل نزار؟" تتساءل كلما تذكرت اللهاث الخلّب لزوجها الذي لم يعد يحسن أثناء مضاجعتها، غير اللهاث والبحص والاندلاق، ولهذا نقل مكان نومه وزوجته إلى الغرفة المخصصة للضيوف، وحينما بنى الطابق الثاني، انتقل بزوجته وكل متاعه بعد أن أجَّر الطابق الأول لأحد الغجر الذين تزوجوا حديثاً. لم يذكر أمام هادية سبب اختياره للغرفة المعزولة في الزاوية الغربية كمكان خاص لنومهما، غير أنها أدركت بأنه ما فعل هذا إلا لكي يصنع فضاءً مغلقاً للهاثه كلما فشل في استحضار ذكورته السلحفائية! تلك الذكورة التي لا تأتيه إلا بعد محاولات وانسحاقات جسدية مهلكة.

- ١١ -

لم يجرؤ نزار على بناء الطابق الثاني فوق بيته إلا بعد أن قام أبو سلمان ببناء طابقين جديدين لولديه سلمان وجبر، فوق بيته الأساس، فقد ارتفعت جدران ذينك الطابقين إلى حد تعذر معه وصول الشمس إلى بيتي سبلو ونزار أبو خنجر من الظهيرة إلى الغروب، واحتج نزار مستخدماً كل دهائه وسطوة صوته الخشن المرتفع، وحينما زجره أبو

سلمان تقدم بشكوى إلى المخفر، لكن المخفر لم يحرك ساكناً بسبب من انعدام التنظيم في الوادي أصلاً، ونزار لم يستطع السكوت حينما رأى إصرار أبي سلمان على إتمام ما بدأه، وتوصل في النهاية إلى قرار بناء طابق جديد بحثاً عن الشمس.

لم يمض أسبوعان على ذلك القرار حتى بدأت فوق بيته ورشة جديدة وأعمدة إسمنتية تحمل بشموخ قضبان الحديد الغليظة، وبعد أربعة أسابيع انتهى البناؤون من إتمام الطابق الجديد المكون من غرفتي نوم وصالة ومرحاض ومطبخ، كما قام بتزويد ذلك المطبخ بخزائن خشبية بنية، ابتاعها بثمن رخيص من مزاد علني أجري في قاعة الجمرك، على بضاعة لم يتمكن مستوردها من دفع رسوم جماركها، ولقد أحس نزار بشيء من الندم، لأنه لم يقدم على خطوة البناء منذ زمن، حيث عرف كغيره من السكان، بأن بناء طابق آخر ممنوع في الوادي حسب القوانين السائدة، لأن الناس لا يملكون أوراق " طابو" وعندما بدأ أبو سلمان بالبناء لم يعترض مراقبو الأبنية " اذن فالبناء غير ممنوع " قال في نفسه، ثم التقى مع أبو سلمان، وأيده في أحاديثه مع أولئك المعترضين على البناء، ثم قام بتمتين علاقته الحذرة مع أبو سلمان وابنه سلمان، بأن زارهما كثيراً في بيتهما، وتجاهل مراراً النظرات المزدرية التي سلطتها عينا جبر أبو بركة إليه.

- ١٢ -

مثلما منعت بناية أبو سلمان الشمس من دخول بيت سبلو من الظهيرة إلى الغروب، فإن الطابق الذي شاده نزار أبو خنجر، منع الشمس أيضاً من دخول بيت سبلو من الفجر إلى ما قبل الظهيرة

بقليل، واحتجت هاجار على ذلك، لكن " هيهات فالجدران أقيمت ولا سبيل إلى هدمها" قال لها أبو سلمان، و "هذا بيتي وأنا حر فيه " قال نزار. حينها قررت إقامة طابق جديد أيضاً، مثلهما تماماً "اسمع يا سبلو، طالما أنهما منعا الشمس عن دخول بيتنا، فسنبني طابقاً جديداً" قالت له فاستنكر "طابق جديد؟ لماذا؟" "لكي تدخل الشمس بيتنا" "وما لنا وما للشمس يا هاجار؟".

- ١٣ -

حينما باشر البناؤون برفع جدران الطابق الجديد فوق بيت سبلو اكتشف كياز وعدد آخر من الغجر، بأن هاجار بفعلتها تلك، ستحجب ما تبقى من بصيص الشمس عن بيوتهم، لكن الغجر كانوا يدركون أنّه أُسقط في يد سبلو، وأنها هي صاحبة القرار لا سيما وأنها تموّل البناء، قالوا لها " عيب يا هاجار ، نحن أبناء ملّة واحدة، لا تسرقي الشمس منا"." ولماذا لم تعترضوا على بناء أبو سلمان أو نزار، ألم يسرقا منا الشمس؟" قالت لهم فأجابوا "أنت تعرفين أبو سلمان ونزار" غير أن احتجاج كيّاز، أخذ طابع العتاب اللين الذي دلّل على ما يكنّه من محبة غامضة لها، أما الغجر الآخرون فلم يبقوا باباً إلا وطرقوه من أجل منعها من مواصلة البناء، وقال أحدهم حينما رأى الطابق الجديد فوق بيت سبلو " وهاجار أتيس مني؟ أي والله لأبني طابقاً ثانياً فوق بيتي " وبدأ برفع الجدران، فحجب الشمس عن بيتين آخرين!

يسمون تلك الفترة من عمر الوادي ب(فورة البناء) فقد انتقلت عدوى البناء من بيت لآخر، كانوا جميعاً يبحثون عن شمس الوادي الهاربة، وتحول الوادي إلى ما يشبه الغابة التي تتطاول أشجارها وتتسابق

بحثاً عن الشمس، وتحولت البيوت الوادعة إلى ورشات بناء ملأى بالاسمنت والرمل والقضبان، وظهرت معالم جديدة في الأزقة، وفوق البيوت، كأدراج الحديد اللولبية الصاعدة التي تصل بين طابقين أو أكثر، والتي استخدمها الناس للتغلّب على مشكلة ضيق المساحات، وظهرت أيضاً الشبابيك الواسعة المختلفة عن النوافذ الصغيرة في الطوابق السفلية، كما ظهرت (الكينارات) وهي الخطوط اللونية الملتفة بشكل عرضي حول البيوت لتجميل مظهرها الخارجي، والأهم من هذا أن الشرفات الضيقة المعلقة المحمية بالأفاريز الحديدية ظهرت إلى الوجود، وصار الناس يتشمّسون ويسهرون ويرقبون المارة وهم مستندون بأذرعتهم إلى حواجز وأفاريز الحديد، لكن ما تميزت به (فورة البناء) أن السكان الذين تربط بينهم أواصر القربى، والذين تتلاصق بيوتهم في الغالب، لجأوا إلى تلوين بيوتهم بلون واحد، وإعطائها أشكالاً خارجية متقاربة، فهنالك على الجانب الجنوبي إلى الغرب من التقاطع تتجمع البيوت الزرقاء اللون، والتي تخص آل (قتّال الضبع) وقد لقبوا بهذا اللقب لأن واحداً من أجدادهم تمكن من صرع ضبع في أحد الطرق الزراعية ليلاً، إلى الغرب من بيوت آل قتال الضبع، هنالك تسعة من البيوت ذات الشرفات الزجاجية تخص عائلة " جبيلان " ثم بيوت آل خيط الذباب(وتلفظ في الوادي خيط الذبان) ويتميز أفراد هذه العائلة بالطول المفرط والنحافة الشديدة، ثم هنالك مجموعة البيوت ذات الألوان السكّرية والكينارات البنية التي تخص بني الزعابير، ويتميزون بأصواتهم المرتفعة، ثم إلى الغرب من بيوت بني الزعابير، تتجمع بيوت عائلة الخلق، ثم بيوت بني السماكرة والوعل الأعمص، وعائلة الفسيخات، وآل الطش، والبس، وأبو كتف، والأحول، والهر، وكلها

تتلملم على الجانب الشمالي من الوادي، بما في ذلك بيوت آل (أبوبركة) التي تجمعت إلى الغرب من بيت أبو سلمان، والتي تميزت بألوانها البيضاء، وكيناراتها الحمراء، وشرفاتها الحديدية السوداء.

- ١٤ -

بيوت الغجر تجمعت أيضاً في منطقة واحدة، إلى الشرق والشمال من بيت أبو سلمان، لكن الغجر لم يلتفتوا إلى ضرورة التشابه، وقام كل منهم بتلوين بيته وتشكيله حسبما شاء، أما البيوت المتفرقة الموزعة بين التجمعات الشمالية والجنوبية، فما أكثرها، وهي تضم أناساً لا ينتمون إلى الأسر المعروفة في الوادي، ومما يلفت الانتباه أن سكان الوادي الصقوا بأصحاب تلك البيوت المتفرقة ألقاباً كثيرة، مستوحاة من المهن التي يمارسونها، فهنالك بيت النجار، ثم الخزاف، والفوال، والجابي، و(العربنجي)، و(المواسرجي)، و(المطعمجي)، والبواب، واللحام، والحداد، والدهان، والاستاذ...

- ١٥ -

كان البناء رخيصاً، وكان السكان يستنفرون أقارهم جميعاً من أجل مساعدتهم في العمل، فلا يحتاجون لغير(الطوبارجي) الذي هو المهندس والرسام والبناء والمراقب و"سبحان الله ميسّرة، المهم هو أن ينوي الإنسان وحينما يبدأ بالبناء فإن الله يفتحها في وجهه" كانوا يقولون. لكن كيف كان الله يفتحها؟ لا أحد يستطيع تحديد ذلك. ربما يقصدون مساعدة الآخرين، أو الدائنين، أو التسول، أو دفع الأبناء إلى

تقاطعات المدينة لكي يمسحوا السيارات أو يبيعوا العلكة أو الشوكولاته.

المهم أن الأمور ميسّرة مع البناء، هذه واحدة من مسلمات السكان في الوادي...

***

هاجار

- ١ -

قالت هادية لزوجها نزار، يوم فاتحها برغبته في تغيير مهنة السواقة "ما رأيك في أن تفتح محلاً للنوفوتيه؟" ثم أردفت "لا توجد محلات نوفوتيه في الوادي" فرد " في الوادي ثلاثة محلات لبيع الملابس يا هادية" قال لها فأكملت "هذه دكاكين صغيرة يبيعون فيها الملابس الرخيصة، أنا أقول نوفوتيه" وكانت هادية تتذكر ما تراه من معارض للملابس كلما ذهبت لزيارة أهلها "أنا واثقة أنك ستنجح يا نزار" فرد "ولكن ما أدراني بمثل هذه الأمور يا هادية؟" فأجابت مُذكِّرة بما تعلمته في بيت والدها الذي عمل في بيع الملابس فترة طويلة " أنا أعرف، هل نسيت أن والدي كان بائعاً للملابس؟" ونزار قال لها بلهجة متوعدة "لا أظنك تريدين العمل في النوفوتيه؟!" فتجرأت على الإبتسام "طبعاً لا، ولكنني أستطيع المساعدة كثيراً وأنا هنا، في بيتي".

- ٢ -

تلك كانت فاتحة عهد جديد في حياة هادية ونزار الذي بلغ به الملل مبلغاً آثر معه الخلاص من مهنة سواقة البكم، وصار ميالاً إلى الهدوء الذي لم يكن يعهد به، وحينما توصل إلى قناعة تامة بأن المستقبل للتجارة لا للسواقة، باع حصته من البكب لشريكه واستأجر

محلاً قريباً من مقهى سلمان أبو بركة ومعرضه، ثم بدأ بإحضار الملابس النسائية والرجالية والولادية على اختلاف أنواعها، تعينه في ذلك زوجته التي تحدد له الكثير من أصناف البضاعة المطلوبة.

- ٣ -

بافتتاح "نوفوتية نزار" ظهر تطور آخر في الوادي، إذ التفت كثيرون من السكان إلى هذا النوع من التجارة.

من عادة الناس أنهم ميالون إلى تقليد بعضهم، وليس أدل على هذا، من ذلك العدد الهائل من الدكاكين التي فُتحت تباعاً عند التقاطع الشرقي وعلى امتداد الوادي، ثم ذلك العدد من محلات بيع الأواني المعدنية والبلاستيكية، ومحلات بيع القماش، ومواد البناء، واللحوم والأسماك، والخضار، والمحامص، وصالونات الحلاقة، وأكواخ السمكرة، وتصليح الأحذية، ومحلات كي الملابس، والمطاعم.

كان الفلاحون يتنافسون فيما بينهم على كل ما يمكن بيعه في الوادي، لكن ذلك التنافس أدى إلى كساد عدد من البضائع المهمّة كالقماش الذي بلغ عدد محلات بيعه ثمانية اضطر أصحاب ثلاثة منها إلى إغلاقها، والبحث عن وظائف حكومية وخاصة بسبب كساد بضائعهم، كما بلغ عدد محلات بيع الأواني ستة محلات شكلت بتقاربها مع بعضها ما يشبه التجمعات التجارية المتخصصة، غير أن الوادي لم يستوعب ذلك العدد من محلات الأواني، لذا أضاف أصحابها إلى تجارتهم، المواد البلاستيكية والحبال وخراطيم المياه والفراشي والمكانس والأحزمة الجلدية والشباشب والأحذية البلاستيكية وأدوات المطبخ والكثير الكثير من البضائع التي لا يمكن لأحد أن يجازف بافتتاح

دكاكين خاصة ببيعها من دون غيرها، أما دكاكين السمانة فبقيت كما هي باستثناء ثلاث منها لم تتمكن من الصمود بسبب مواقعها وراء بيوت المنعطف الغربي المتباعدة، ولقد أدى نجاح المحلات الواقعة عند الشارع الشرقي حيث السوق، إلى ارتفاع أجورها، وإلى تنافس السكان على امتلاك المحلات واستئجارها في ذلك الموقع المهم في مقدمة الوادي، أما محلات النوفوتيه، فتوالدت بعد أن قام نزار أبو خنجر بافتتاح أول محل للنوفوتيه في الوادي، واحتدم التنافس بين أصحاب تلك المحلات، ولجأوا إلى العديد من الحيل من أجل تدمير بعضهم بعضا، سواء من خلال خفض الأسعار، أو إقراض الزبائن، أو نشر إشاعات "ملابس الأصلي، وملابس التقليد " وإشاعات " المستورد والمحلي".

لكن نزار أبو خنجر استطاع أن يبرز في الوادي بشكل لم يتوقعه أي من أصحاب المحلات التي حملت اسم النوفوتيه، وربما يعود الفضل في نجاحه إلى زوجته هادية، التي تمكنت من التعرف على أذواق الغجر، فدفعت زوجها إلى المجازفة بشراء كمية من الصدارات الزاهية الألوان، وعندما استقطبت تلك الصدارات بعض شبان الغجر، اشتروها ولبسوها، ثم توجه عدد آخر منهم إلى نوفوتيه نزار من أجل شراء صدارات مماثلة، وحينما نفدت، ابتاع نزار كل ما تبقى لدى تاجر الجملة من تلك الصدارات، واكتشف بأن هنالك لونين لم يشاهدهما في الكمية الأولى،هما الأخضر المحملق، والليلكي اللامع، لذا عمد إلى عرض هذين اللونين دون غيرهما على واجهة محله الزجاجية، ممّا زاد من افتتان الغجر، فتزاحموا على شراء تلك الصدارات التي نفدت بسرعة أيضاً! والطريف أن تلك الصدارات ميّزت شبان الغجر عن الفلاحين،

كما حملت بعد انتشارها بين شبان الغجر اسم صدارات أبو خنجر، أما أصحاب محلات النوفوتيه الأخرى، فأغاظهم نجاح نزار وجازفوا منفردين بشراء كميات من الملابس الغريبة التي كسدت في محلاتهم، فأسهمت في إضعافهم، فأسهم ضعفهم هذا في تقوية مركز نزار أبو خنجر، باعتباره تاجراً مرّاً في الوادي.

- ٤ -

حقّقت ضربة الملابس الزاهية لنزار ما لم يحلم بتحقيقه، وتحول اسمه في الوادي، إلى ما يشبه الدمغة التي تحمل دلالة الأصالة؛ وصار الغجر يتفاخرون فيما بينهم قائلين بأنهم يشترون ملابسهم من نزار الذي استطاع بتوجيه من زوجته، أن يستثمر فرصته هذه بشكل دلّل على فهمه أو فهم زوجته العميق للأصول التجارية، فقد استأجر محل النوفوتيه المجاور له بعد إفلاس صاحبه، ثم هدم الجدار بين المحلين بحيث تحولا إلى محل واحد واسع، كما غيّر في ترتيبهما، وأنشأ مكاناً ضيقاً في الداخل لقياس الملابس، كما ثبّت بالجدران عدداً من الدواليب لتعليق الملابس المختلفة، أما الواجهتان الزجاجيتان فقد فرش أرضيتهما بورق الكورنيش وقطع الاسبست، ثم تفنن في عرض الملابس بداخلهما، ولكي لا تترك هادية للغجر فرصة التفلّت من هيمنة زوجها على أذواقهم، أشارت عليه بالبحث عن شاب غجري من أجل استخدامه في النوفوتيه، وحددت له المواصفات التي تنطبق على ذلك الشاب، كالوسامة، والرقة واللطف، ورقي الذوق.

غير أن هادية، وبعد أن تمعّنت في فكرتها هذه، توصلت إلى أن استخدام فتاة غجرية بدلاً من الشاب سيكون أكثر توفيقاً، لذا أخذت

تبحث عن فتاة غجرية ذات صفات مميزة، ولذا أيضاً، لم تجد أمامها سوى هاجار التي وافقت على العمل في تلك النوفوتيه.

- ٥ -

كان من نتيجة تخلّي هاجار عن العمل مع كياز أن حاول إغراءها برفع الأجرة التي تتقاضاها لقاء بيعها لأدواته الحديدية، وحينما رفضت عرضه هذا، شكاها لوالدها فلم يفعل شيئاً، أو هو لم يحاول أن يفعل شيئاً، ذلك لإدراكه بأن خيوط سيطرته على ابنته تقطعت منذ زمن، وقال له "فتّش عن غيرها" وفي النهاية اضطر إلى البحث عن فتاة أخرى للعمل معه، بعد أن استسلم إلى هذا التأكيد الأخير للحقيقة التي راودته يوم أمسك عرقي بمعصميه، حقيقة أن هذا الجيل، مختلف!.

- ٦ -

كان على هاجار أن تتغير حال ابتدائها العمل في نوفوتيه نزار، فقد بيّنت لها هادية بحسم، أنها ليست سوى عاملة في تلك النوفوتيه، وأن اهتمامها بمظهرها، إنما هو جزء من صميم عملها " على هاجار أن تبدو أمام زبائن المحل بمظهر أنيق" قالت لزوجها، ثم أغدقت عليها الكثير من أسباب تحقيق تلك الأناقة، منحتها فستانين يليقان بقوامها، وحذاءين بكعبين عاليين، وحزامين دقيقين ملونين، وطوقين بلاستيكيين لشعرها، وطقمين من الملابس الداخلية، وقلماً للحاجبين، ثم أوضحت لها طرائق العناية بملابسها وشعرها ووجهها، لأن فتيات الوادي، لا سيما الغجريات، سيقتدين بها، سيقلدنها، لذا عليها أن تقوم بتوجيه أذواقهن نحو أصناف محددة من الملابس، وقبل أن تتركها قالت " انتبهي

لشغلك، وبالنسبة لثمن الملابس التي أعطيتك إياها، ادفعيه على أقل من مهلك، دينار في الشهر، ديناران، حسب استطاعتك، لكن انتبهي لشغلك، أسمعت؟".

– ٧ –

تغيرت هاجار بشكل لم يتوقعه أيّ من غجر الوادي.

حتى عرقي بن كياز، الذي أحس غير مرة بتقربها منه، فقد استغرب أن تكون بذلك الجمال المؤدي إلى انبهار الشبان بها!.

هكذا تغيّرت: في البداية تخلصت من ملابسها البالية، تخلصت من القميص الليلكي، والمنديل الأسود الذي كانت تلفه حول شعرها ورقبتها، تأملت وجهها في المرآة، تنبهت إلى ما لا لزوم له من الشعر في أماكن مختلفة من وجهها فأزالته، وخَطَتْ حاجبيها بالقلم الأسود، كحّلت عينيها، رتبت شعرها، ثم خرجت من البيت وسط فحيح الدهشة التي أصابت وجه سبلو، حينئذ.

– ٨ –

باستخدامه هاجار، حطّم نزار كل أمل لمنافسيه في الوادي، وتهافتت فتيات الغجر والفلاحين على محله، يدفعهن إلى ذلك إعجابهن الخفي بها، كما ازداد إقبال الشبان أيضا على النوفوتيه، ربما بدافع من رغبتهم في التحدث إليها عبر مشروعية العمل التي مكنتهم من سماع آرائها في أنواع الملابس وألوانها وأشكالها، وصاروا يتلمسون متعة امتلاكهم حق التحدث إليها على مرأى من الآخرين الذين لم يفسروا الأمر بطريقة مغلوطة، فهي تبيع، وهم يشترون.

كانت تفتح الباب الجرّار للنوفوتيه كل صباح، وكان نزار يأتمنها على كل ما في محله من ملابس وأقمشة وخردوات، يأتمنها على كل شيء باستثناء النقود الورقية. ذلك أن النقود تُذْهِب العقل وتغوي أشد الناس فتكاً بثرواته، هذا ما توصل إليه نزار، لذا لم يكن يترك في جُر طاولته حين خروجه من النوفوتيه سوى النقود المعدنية، أما الورقية فتظل في جيب قميصه المتهدل الفضفاض، وذات مرة حاول اختبارها بأن وضع على كرسيه الجلدي قطعة نقدية من فئة الخمسة دنانير، ثم خرج بعد أن جثم على تلك القطعة بمؤخرته التي أخفت نواياه، ذلك أن القطعة تثّنت تحت مؤخرته بما يوحي بالسهو، وحينما عاد بعد ساعة تحت جنح الأداء العادي لدخوله البطيء إلى محله، فاجأته بدنانيره الخمسة التي تعرف إليها على الفور، وبخمسة أخرى كانت سقطت منه فعلاً، أثناء محاولته البائسة لاختبارها " هذه لقيتها على كرسيك، وهذه بجانب الكرسي " قالت له، فكاد من مفاجأته ينطق " لكنني لم أضع سوى خمسة دنانير" غير أن نتيجة اختباره هذه لم تبدّل من قناعته بأن النقود تغوي أشد الناس فتكاً بثرواته، إذ من يدري، فلربما عرفت هاجار أنني أريد اختبارها.

– ٩ –

لم تسلم هاجار من مضايقات شبان الغجر والفلاحين، فقد أحسوا بأن في إقدامها على خطوة العمل في النوفوتيه خروجاً على مألوف الحياة في الوادي، كما أعادت عجائز الغجر إلى الأذهان، حكاية

والدتما بهاج، وأطلقوا عليها لقب(المخطوفة) الذي سبق وأطلقنه على والدتما قبل رحيلها عن خيام الغجرا.

كن يقلن، بأن الخطف هو خطف الروح. وأن بهاج مخطوفة من أناس غير الغجر! ويؤكدن أقوالهن باختلاف بشرتها عن بشراتهن، أما الآن فإن هاجار هي المخطوفة، الخارجة عن تقاليد الغجر.

هذا ماقالته العجائز، وهذا ما تنقل على ألسنة الكثيرات والكثيرين من غجر الوادي.

- ١٠ -

ما أن رأى عرقي هاجار الجديدة، حتى تفتّحت في صدره حجرات كثيرة مغبرة موصدة الأقفال، لم يكتشف وجودها إلا بعد أن صعقته بعينيها السوداوين، وهيئتها المتدفقة نضارة وجمالاً.

لم تكن علاقة عرقي بها سوى امتداد لطفولة أليفة شقية، كانا يتناهدان ويتنابزان كلما التقيا تحت سقف واحد، ويضيق كياز بصخبهما، تضيق سمار، يضيق سبلو، فينتهرونهما، يصيحون بهما "اصمتا " فيصمتان. لكنهما لا يوقفان عراكاتهما، فيتقاتلان بالعيون، وبحركات أصابعهما الخفية المتوعدة.

عرقي لم يفكر بما هو أبعد من هذا، لم يحاول ولو لمرة، أن يبحث في سراديب صدره عن تلك الحجرات المغلقة التي، ما ان تفتّحت حتى تدفق مخزونها الدافئ، الرقيق الحارق، وأحس بأن أيام التناهد والتنابز لم تكن سوى ستارات غبارية، لما لم يكتشفه إلا بعد تنبهه إلى وجود تلك الفتاة الكاسحة!.

أيمكن أن يكون عملها في النوفوتيه قد غيرها إلى الحد الذي خرجت به من يد الغجر، ومن يده هو بالذات؟ تلك اليد التي لم تغمض يوماً على ما ملأها؟ فكر بها، فكر طويلاً، خطط وفسّر، شرّق وغرّب، وقبل أن يبزغ الفجر، قرر مفاتحة والديه في أمرها.

لكن كيف السبيل إلى ترويضها؟! هوذا سؤال عرقي الأخير، ومعضلة لياليه التاليات.

- ١١ -

في اليوم التالي، أحس عرقي بجدية الأمر، وبأن ما ظنه مجرد جس لنبض والديه، إنما هو الإشارة التي انتظراها منذ زمن، لكنه ظل رازحاً تحت تأثير ذلك الاحتمال القاتل، احتمال رفضها له! أما والدها فلم يكلف نفسه مشقة التفكير به، أو استمزاج رأيه، وحتى حينما بدأ بالتردد على بيته من أجل رؤية هاجار والتحدُّث إليها، فقد آثر سبلو الانسلال من ذلك البيت خارجاً، مخلّفاً وراءه ابنته وعرقي، وحيدين.

- ١٢ -

تمكن عرقي من اقتحام هاجار بسرعة لم تخطر حتى بباله هو! ولجأ في ذلك إلى طريقة غريبة استخدم خلالها لسانه وعينيه وأصابعه وأنفاسه، فبث في روحها وفي بدنها موجات من الذهول والمتعة!.

عرقي فعل كل هذا: زارها مراراً في بيت والدها، جلس إلى جانبها، تحدث إليها فتحدثت إليه، نبهها إلى ضرورة الانتباه إلى نفسها أثناء العمل، اقترب منها، تحسس بكفيه ظاهر يدها فتفرعت في جسدها متعة الملامسة التي لم ترغب في مقاومتها، اقترب حتى كاد يلتصق بها،

حدثها عن محبته القديمة الجديدة لها، وعن تفكيره الليلي بها، مسَّد بكفه شعرها فتصلب الجلد في جبهتها القمرية، ابتلّت عيناها، صغرتا، تماماً مثل قطة أليفة خضعت لتوهّا للتمسيد والتمليس!.

لقد استل عرقي من روحها ومن نخاعها بقايا اليقظة، ثم قذف بتلك البقايا بعيداً، ليبقي على القطة الأليفة الصاغرة في هاجار! القطة التي تنبعث في ذاتها كلما استسلمت لدغدغاته! انتزع من رأسها ذلك الشعور الثقيل بالمكان والزمان، ثم جردها من غثاء التفاصيل والألوان والأصوات، عبر لمساته التي مكنته من النفاد إلى القطة في ذاتها، حتى كادت تموء عبر حنجرتها الناعمة، وسارت خلفه مأخوذة لا ترى في الوجود غير عرقي! وفكرت بامتلاك كل ذلك الرجل بلذائذه وملكاته وغموض متعته، وانساقت إلى بيته، مثلما انساق إلى بيتها! كانا يلتقيان كل يوم، كل ليلة، كأنما يحاولان الامساك بأيامهما التي فرّت دون علمهما، وكان والدها ينسل خارجاً إذ يراهما!.

سبلو لم يتدخل في شؤون ابنته على الرغم من تدخلها السافر في خصوصياته المقدسة، فهي مثلاً تطالبه بالكف عن تعاطي العرق، وبالعزوف عن الوقوف عند التقاطع الشرقي بثيابه المهلهلة، والأنكى أنها حاولت ذات مرة مسح صورة زوجته بهاج التي رسمها على جدار بيته من الداخل "يا سبلو، هذه الصورة هي سبب كل همومك، يا سبلو خليني أمسحها" قالت له فرد بغيظ " إذا مسحت هذه الصورة فسأمسحك من الوجود، أسمعتِ؟" وهاجار توصلت إلى أنه قد يفعلها! في هذه الحالة بالذات، قد يفعلها.

لهاجار بشرة قمرية شتان ما بينها وبين السمرة المعتمة في وجوه غجريات الوادي وبعض فلاّحاته. لهاجار مكانة مختلفة، وحكاية قديمة جديدة، فعجائز الغجر يؤمنَّ تماماً، بأنها ورثت عن جدتها الدنّاء، نظما، كثيراً من خصالها الغريبة وقدراتها الغيبية، وإذ يسألن عن دلائل تلك القدرات، يجبن بأن في هاجار امرأة أخرى، غير غجرية! ويتطيرن كلما التقت عيونهن بعينيها المستديرتين. إنها فتاة مختلفة، هكذا يقلن. أليست هي التي أنبأت الشيخ تركي بخبر ابنه الذي دهمته سيارة بيضاء على الشارع الشرقي؟ أليست هي التي عرفت مقدماً بأن ابن الشيخ تركي سيموت من جراء ذلك الحادث؟ أليست هي التي يتجنبها والدها؟ أليست هي ابنة بهاج المخطوفة القتيلة؟ ثم أليست هي التي لحقت بكياز الغجري، ليلة حمل ابنته ووضعها في منتصف الشارع الشرقي لكي تدوسها السيارات! أجل لكي تدوسها السيارات! لكن هذه الحكاية ليست كما ترويها عجائز الغجر، إنها حكاية مختلفة عما نسجته خيالاتهن المحلقة، فمن عادة كياز أنه يتحدث ويسير في أثناء نومه، وفي إحدى الليالي، والحيّ هادئ إلا من نباح الكلاب، سمعت هاجار صوت خطى قريبة من بيتها، أطلت من النافذة، فرأته سائراً وبين يديه ابنته الصغيرة النائمة، تساءلت عن السبب الذي يدعوه إلى الخروج في ذلك الوقت من نهايات الليل، أتراها مريضة ابنته؟ أم تراه نائماً؟ ثم لحقت به من دون أن يحس بها، وإذ وصل الشارع الشرقي، مدد ابنته في منتصفه، فتأكد لها أن الرجل نائم. اقتربت منه، فراعتها عيناه الزجاجيتان! هزته فصحا، ففرك عينيه، فصاح ببلاهة "أين أنا؟ ما هذا؟ لماذا..." ثم حمل ابنته عائداً إلى بيته!.

تلك هي الحكاية، لكن عجائز الغجر تساءلن عما إذا كان لدى هاجار قدرة غيبية أيقظتها من نومها، ودعتها إلى اللحاق بكيازا! وحتى والدها سبلو، فقد تساءل مثلهن، لكنه تجنب الخوض في دهاليز عالم ابنته، ذلك العالم الذي تنبه إليه، يوم تنبه إلى عينيها العميقتين، وهما ترقبان بدقة، عيون الغجر الشرهة، ونظراتهم التي افترست جسد والدتها أثناء تثنّيها الصارخ، ليلة زيارة الغجر الأولى للوادي. كان يقول لزوجته بهاج كلما تأمل عيني ابنته" عينا هاجار مثل عيني جدتها " لكنه لم يطمئن إلى ذلك التشابه الذي يذكره بنبوءة العجوز نظما.

- ١٤ -

سبلو الآن لا يفكر في ابنته التي تجاوزت حدوده وحدود الغجر بعملها في نوفوتيه نزار، لكن الناس لا يتساءلون عن أسباب صمته هذا، فهم يعتقدون بأن الخمر حولته إلى مسخ إنسان متروع عن كل ما حوله. ويستشهدون بوقفته الصباحية الغريبة، وراء عمود الكهرباء عند التقاطع الشرقي، وهاجار إذ تخاطب والدها فإنها تقول له "يا سبلو". منذ أن شبت وهي تناديه باسمه، ولكنه لا يلتفت إلى هذا، سبلو لم يعد يلتفت إلى الكثير مما يدور حوله، إنه يبحث فقط عن سلام لا وجود له إلا في مخيلته التي تقارع الزمان. وحتى حين اضطراره إلى معايشة العلاقة الغريبة الناشئة بين عرقي وابنته، فقد ظل صامتاً غير عابئ بما قد يترتب على تلك العلاقة. كان يحس بأن عليه مغادرة بيته كلما جاء عرقي لرؤية ابنته قبل أن يخطبها. ويوم انصمدت هاجار في بيته إلى جانب عرقي، غادر البيت بعد أن ترك ابنته وهي تعتصم الأساور الفضية والخواتم الذهبية فوق الحامل الخشبي المرتفع، المطل على رؤوس النساء

اللائي رقصن للعروسين، والعجائز اللواتي نظرن إليهما بتوجس هو أقرب إلى الترقب الأبدي، لفرسان الظلام الذين يقتلعون خيام الغجر أنّى ثقفوهم! تلك أسطورة الغجر. وكن يهمسن في آذان بعضهنّ، يتساءلن عن السبب الذي دفع بعرقي إلى الزواج من تلك المخطوفة، هاجار.

***

عرقي زوج هاجار

- ١ -

التصق اسم هاجار بعرقي منذ أن تقدم لخطبتها، وصار الناس في الوادي ينادونه قائلين " يا عرقي خطيب هاجار" وتوقّع أن تكف هذه التسمية عن ملاحقته، إلاّ أنها ظلت تطارده مثل لعنة أبدية لا سبيل إلى التخلص منها، ذلك أنها صارت زوجته، والناس صاروا ينادونه " يا عرقي زوج هاجار"، لكنه توصل أخيراً إلى أن هذه التسمية تظل أفضل من تسمية " عرقي الخالع " التي أطلقها والده عليه قبل أن يباشر عمله في الفندق.

- ٢ -

لعل في وجه عرقي، وفي جسمه الضخم ما يؤيد الاعتقاد السائد بين الغجر ببلادته! فالكسل المميز لحركاته البطيئة، والتعكّن الرخو حول خاصرتيه وبطنه، وساعات نومه الطويلة، كل هذه الدلائل أوحت لغجر الوادي، بأن في بدنه ما يشبه الجرثومة الاستوائية التي تعرقل النشاط، وتمتص الهمة. لكن عرقي زوج هاجار بعد أن باشر عمله في الفندق، تغير بشكل لم يتوقعه أي من سكان الوادي، ذلك أن تخفيف الوزن والتأنق الدائم، شرطان أساسيان من شروط استمراره في عمله، لذا تخلص من بعض شحوم جسمه، وتعلم استخدام مجفف

الشعر، وارتداء الملابس النظيفة المكوية و " سبحان الذي يغير ولا يتغير" صاروا يقولون له، و" كبرت يا زوج هاجار".

وعرقي منذ أن باشر عمله الجديد، وهو يترفع عن الغناء في أعراس الغجر التي، ما أكثرها.

- ٣ -

ما أكثر أعراس الغجر! ما أكثر مناسباتهم !

الخطوبة مناسبة، الزواج، الولادة، الختان، الحصول على عمل، الشفاء من مرض... كثيرة هي المناسبات التي يختلقها الغجر من أجل إقامة أعراسهم، لكن أجمل تلك الأعراس، هي التي بلا سبب أو مناسبة " هكذا خلقنا ربنا " يقولون، ويتساءل الفلاحون عما إذا كان ثمة مناسبة، فيجيب واحد من أصحاب العرس وهو يضع سبابته على قرن جبهته " إذا تعبّأ المخ، فلت اللسان، وإذا فلت اللسان، فلتت الأصابع على الطبل، وإذا فلتت الأصابع، اهز الرأس والوسط وكل البدن، وهات يا عرقي من صوتك" ويكمل "كيف؟ لا تسألوني، لكن اذا تعبّأ المخ، فلتت الدنيا! " ثم يتابع الرقص بنشوة حصان يركض في صباح البراري.

- ٤ -

أعراس الغجر تنتهي بمشكلة!

يطبلون، يغنون، يرقصون، ثم يتناهدون ويتقاتلون! كأنما القتال جزء من تقاليد أعراسهم ولوازمهم التي لا حصر لها.

أحياناً يمتد القتال ليشمل كل غجر الوادي، فيشتبكون بالأيدي والعصي والأدوات المعدنية والزجاجية والحجارة " لماذا يتقاتلون؟ " يتساءل الفلاحون بشيء من التحبُّب، بل إن بعض الفلاحين يتعمدون السهر حتى نهايات الليل، من أجل مشاهدة العراك الذي لا بد وأن ينشب بين الغجر في آخر السهرة!

علام يتقاتلون؟

ذات ليلة، وبعد أن هدأت الطبول في عرسِ عرقي أطبق كياز الغجري على رقبة غجري آخر اسمه " عزو" وكاد يخنقه، لولا أن المشكلة كبرت، وانقسم كل من في العرس إلى فريقين مدجّجين بالعيون المترقبة، والسكاكين الحادة، والأظافر المتحفزة " يا خسيس يا عزو أين الذبيحة؟ ها؟ لماذا لم تحضر معك ذبيحة إلى عرس ابني؟ " قال لعزو الذي جحظت عيناه فلم يعد قادراً على الرد " يا خسيس يا عزو، أنا قبل شهرين جئت مع عرقي إلى عرسك، واشتريت لك ذبيحة، وأنت اليوم تأتي إلى عرس ابني بلا ذبيحة؟ " وشدّ على رقبته، فانفجر الصراخ، تحول العرس إلى معركة ضارية، وأطل الفلاحون من نوافذ بيوتهم وهم يتلذذون " ولَّعت " ثم احتدّ العراك واتسع، انتقلت المعركة من بيت كياز إلى الشارع، حيث الحجارة "وجاد"والسيارات والزجاج "وجاد" أيضاً، كل غجر الوادي اشتركوا في ذلك القتال، وإلا " كيف لا يسدد عزو دينه ويأتي بذبيحة إلى عرس عرقي" ثم " كنت خائفاً منك يا نذل يوم أهديتك ذبيحة، ها؟" كان يقول ويضرب، يشتم بالغجرية ويضرب وبالعربية ويضرب، يسانده ابنه عرقي العريس الذي نسي نفسه وصار يضرب، تتدخل زوجته سمار وبناته وأقاربه، وزوجاتهم، وأبناؤهم، وأقارب زوجته، ويضربون! كل واحد ينتقي

غريماً له من أقارب عزو ويضرب، ويتشيع بقية الغجر إلى الطرفين، ويضربون! أين يضربون؟ ليس مُهمّاً أين تقع الضربة، المهم أن لا يظل الواحد مكتوف اليدين، يجب أن يشترك الجميع في القتال، يجب أن يستخدموا العصي والرؤوس والقبضات المغمضة والأدوات المعدنية وزجاجات البيبسي كولا والبيرة والشتائم باللغتين والحجارة الكبيرة "كل شيء إلا الحجارة " يقول الفلاحون، لأن الحجارة العمياء تطال نوافذ بيوتهم، ومن ذا يحاكم الغجر، بل مَنْ مِنَ الفلاحين يجرؤ على ولوج ساحة القتال والجراح والدماء؟ كل ما يفعله الفلاحون، أنهم يتلذذون بمراقبة القتال المتكرر بين الغجر، عبر النوافذ الحديدية لبيوتهم المنحدرة من أعالي الوادي إلى القاع، وعبر الشرفات الحديدية المطلة المعلقة.

يسمع الفلاحون كل شيء، ويرون كل شيء، ويعرفون التاريخ الحافل لكل غجري في الوادي حينما ينشب القتال، ذلك أن الفضائح الشخصية هي جزء من أسلحة القتال بين الغجر، ولقد يرد عزو على كياز حينما أفلت هذا رقبته خشية انقطاع تيار الحياة فيها، يرد عبر لهاثه واختناقه " تريد أن تخنقني يا ابن السرّاقة" فينبري أحدهم لعزو "إنكتم يا ابن أم الثلاثة " يعرف الفلاحون قصة كل غجري في الوادي، القصة إياها، التي تُكرّر وتُزيّد كلما نشب القتال، فوالدة كياز مثلاً كانت تسرق الملابس عن حبال الغسيل أيام كان الغجر يتنقلون بخيامهم في البوادي والأودية والسهوب، كما أن والده لم يتقن عملاً قط، بما في ذلك النقر على الطبل، الذي يمثل قدرة خَلْقية لكل غجري، هكذا يعتقدون، أما سمار زوجة كياز، فقد خرجت عن طوع والدها

الكفيف قبل أن تُزوّج، وارتكبت الكثير من الأفعال التي لا يقرونها، ويستدرك الغجر موضّحين، حتى أثناء العراك، بأن سمار ارتكبت تلك الأفعال قبل الزواج لا بعده! يحرص الغجر على ذكر هذا التوضيح، كأنما ليمنعوا كياز من ارتكاب حماقة ما، بدافع غيرته على زوجته سمار، أما عزو فكل جسمه وتاريخه وزوجته ونوافذ بيته، كلها من زجاج. عزو هو ابن أم الثلاثة لأن والدته " معزوزة " زُفّتْ إلى ثلاثة من الرجال هم على التوالي " جوزابو" الذي سقط عن حصانه ومات من فوره، و" خليل الشايب" الذي هجرها بعد أشهر من زواجه منها، ثم " حسان الهرم صبّاب الجبص" الذي ترّمل دونها. والغجر يقولون بأن " معزوزة " والدة عزو، لو لم تمت بالسل، لبحثت عن رجل رابع وربما خامس، لكن الغجر لا يجزمون - أثناء العراك - أن عزو هو ابن خليل الشايب، " فالله أعلم "، يقولونها وينفضون بأصابعهم قبّات قمصانهم، متظاهرين بنوع جارح من النزاهة.

- ٥ -

يعرف الفلاحون أيضا حكاية "قدّاح" الفران، الذي يفتخر بأنه "فران كعك" وليس "فران خبز" مثل عامر، الفلاح! يعرفون أيضاً حكايات خليل الشايب وزوجته الأخيرة " بلحة " الراقصة التي لا تعود إلى بيتها إلا بعد انتصاف الليل، ثم ناصي وزوجته المنحرفة العينين " عتبا " ثم حسان صباب الجبس وزوجته الحالية العرافة، يعرف الفلاحون أيضاً حكايات هاجار وعرقي، وموزات قارئة الكف زوجة عزو الأولى، والشيخ تركي زوج موزات الثاني، ونجما زوجة الشيخ تركي الثانية.. الغجري الوحيد الذي لا يشارك الغجر قتالاتهم هو سبلو

الذي استوطن الوادي قبلهم بسنوات، أما ابنته هاجار، فللغجر ملاحظات كثيرة عليها، على الرغم من إجماع عجائزهم على ضرورة الابتعاد عن عالمها الذي يتجنبنه كما الشر.

- ٦ -

ربما كان للغجر فلسفة خاصة في إثارة الفضائح وفي الاقتتال، ذلك أن الفضائح ، قد تشكل ستاراً لما يريد الغجر إخفاءه من أسرارهم العميقة التي يجزم الفلاحون بوجودها، إذ ما معنى أن يعمد بعضهم إلى التحادث بلغتهم الخاصة في حضرة الفلاحين؟ ما معنى استخدامهم للغة الفلاحين أثناء قتالهم بالذات؟ هل يريدون إطلاعنا على أسرارهم؟ يتساءل الفلاحون ثم يجيبون " المسألة أبعد من هذا، يريدون إخفاء أسرارهم، وأسباب تصرفاقم الغريبة، وما وراء فضائحهم المفتعلة تلك! وهل يعقل أن يتقاتلوا بهذه الوحشية من أجل ذبيحة؟ أو كيس أرز؟ أم أن وراء الأكمة ما وراءها؟" لكن ما لم يدركه الفلاحون إلا بعد سنوات طويلة من احتكاكهم بالغجر، أن الاكثار من الفضائح سيحولها إلى أمور لا تستحق التوقف! وسيُفقد تلك الفضائح صفة التكتم، وضرورة التَّفَكُّر في إخفائها، كما أن الإكثار من الاشكالات، سيحولها إلى جزء من التقاليد اليومية العادية للغجر، مما يمنحهم مزيداً من حرية الحركة والتصرف والقول.

هكذا انتزع الغجر هوامش حريتهم في غابة الفلاحين، ولعل السر الكامن وراء الانفراج الذي يعلو جباههم، ويميزهم عن الفلاحين ذوي الجباه المنقبضة، إنما هو نتيجة لارتياحهم من مأساة التكتم على الأسرار

والفضائح التي تحولت بفعل تكرارها، إلى مجرد طرف يتداولها الفلاحون في جلساقم.

الفلاحون لا يؤاخذون الغجر في تصرفاقم الغريبة، لأن " هذا هو طبعهم " غير أنهم يرتاحون لهذا الطبع، ولا يجدون فيه ما يثير الآخرين، بل يستغربون من أولئك الفلاحين الذي يتكتّمون حتى على سعلاقم!.

عالم الفلاحين في الوادي مغلق وتاريخهم مغلق! فالغجر لا يعرفون عن الفلاحين غير ما تراه عيونهم وما تسمعه آذانهم مصادفة. لا يعرف الغجر شيئاً عن تاريخ نزار أبو خنجر، وأبو سلمان، أو ابنه سلمان، أو ابنه الآخر جبر الذي ملّ انتظار دوره في هذه الرواية! الفلاحون لا ينفلون أسرارهم حينما يقتتلون، كما لا يشاركون بعضهم في القتال كالغجر الذين يقولون في نهاية كل عراك " خليها مستورة " يقولونها على الرغم من كل الفضائح التي ينبشونها ويؤلفونها، ولعل عبارة "خليها مستورة " هي السهم الأخير الذي يطلقونه قبل أن يبردوا.

- ٧ -

يسخن الغجر بسرعة، ويبردون بسرعة أيضا! ففي لحظة خارجة عن نطاق الوقت والمكان يضحكون، فتحمر جباههم ووجناقم الكهباء مفصحة عن الخجل الذي يستدعيه تذكرهم لشتائمهم وفلتات ألسنتهم خلال العراك، ويذهبون إلى بيوت بعضهم، يتصالحون ويتعاتبون، يدخنون السجائر، يشربون الشاي بالبابونج، يتبادلون أشرطة المسجلات، ويستدينون النقود من بعضهم. كثيراً ما يميلون إلى بعضهم، حتى إن عرقي زوج هاجار، فوجئ ذات ليلة بأن ديونه على جيرانه من

الغجر بلغت خمسة وثلاثين ديناراً، وقال باندهاش "كيف حصل هذا؟" وضرب كفّه بغمض يده، ثم صفن" عرقي هذا، الذي لولا وساطة جبر أبو بركة لما وجدت في جيبه ثمن شفرة حلاقة " هكذا يتحدثون عن عرقي،غير أنه لا يحفل بما يقولونه عنه، فهو دائم الانشغال بحفظ كلمات الأغنيات الجديدة من سماعات المسجلة الضخمة في بيته.

منذ أن باشر الغناء في حفلات الفندق وهو يحفظ كل ما تجود به حناجر المطربين والمطربات الجدد، وعرقي لا يتردد في إظهار امتنانه لجبر أبو بركة الذي انتشله من بؤس أعراس الغجر، إلى نعيم الفنادق، حيث الحفلات الراقصة، والنساء والرجال الذين يتمايلون تبعاً لثنيات صوته الصداح، وتبعاً لتقسيمات عازف الأورغ "ميشو" الأشقر الطويل الذي لا يصبق العلكة من فمه إلا حين ينام، ثم ضابط الايقاع الأسمر " حمادة " الذي لا تكف يداه وقدماه عن ضرب تلك الآلة التي يسمونها "درمز".

بداية عرقي في الفندق، كانت مثل بداية ريفي يدخل المدينة لأول مرة في حياته، ولولا مساعدة جبر وإرشاداته له لما استطاع أن يبدأ.

عرقي لا يتنكر لهذه الحقيقة، بل إنه يحس بالندم كلما تذكر أيام استيائه من غموض جبر، ومن طريقته اللامبالية بالآخرين، غير أنه لا يستطيع القفز عن الحقيقة الأخرى التي تحمل استفهامات مريبة، إذ ما معنى أن يقف شاب أعزب كجبر على نافذة بيته المطل على بيت عرقي وزوجته؟ لماذا يقف في ذلك المكان بالذات؟.

أما جبر فقد قرأ الامتعاض مراراً في قسمات عرقي الذي يعيش وزوجته هاجار في الطابق الجديد فوق بيت سبلو، وإذ تحادثا ذات مرة في المقهى، امتدح جبر صوته "سمعتك وأنت تغني في الليلة الماضية،

صوتك جميل يا عرقي" فحكّ هذا شعره الأسود اللامع محاولاً إيجاد مخرج لصمته المفاجئ، ولِلْبَلَهِ الذي عقد لسانه، فتابع جبر اقتحامه له "ما رأيك في أن أجد لك عملاً في أحد الفنادق؟ " فرد بحرج " وماذا أعمل في الفنادق يا أستاذ جبر؟" "تغني، لأن صوتك جميل " هنا تحول زوج هاجار إلى إنسان آخر، وديع، مبتسم، خجول، فقال باحثاً عن جلد جديد يرتديه " يدي في حزامك يا أستاذ ".

وحزام جبر كان متيناً، إذ لم يمض أسبوع واحد على وعده له، حتى اصطحبه في سيارته " التويوتا" إلى الفندق.

في ذلك المساء نفض عرقي الغبار المتراكم على بدلة زفافه، واشترى ربطة عنق خمرية لكي تتناسب ولون بدلته الخمرية أيضاً، ثم صفف شعره الأسود اللامع في أحد صالونات المدينة قبل أن يعود إلى الوادي، واستقل السيارة إلى جانب جبر أبو بركة.

- ٨ -

أحس عرقي بارتباك غامض لحظة انطلاق السيارة، وتسلّلت إلى أنفه رائحة أقرب إلى رائحة الحقائب، أما صوته، فخرج من فمه مثل توصيلات غير قادرة على الإفهام والربط الدقيق، وبذل جهداً مميتاً من أجل إخفاء ارتباكه ، وعبث بربطة عنقه، عدل وضعها، هز ركبتيه، أثار أسئلة لا تحمل دلالات محددة، لكن جبر حينما أدرك ما يمور في أعماق صاحبه، تظاهر عدم الانتباه، وتجاهل رؤيته لقسمات عرقي التي نفرت خلال المسافة الفاصلة بين الوادي وبين الفندق، وفي محاولة مخلصة لإنقاذه من اضطرابه الحاد قال جبر "مدير العلاقات الذي سيقابلك، هو صديقي، تخرجت وإياه من الجامعة قبل ثلاثة أعوام" قال

أيضاً "ستكون المقابلة روتينية" ثم أنهى حديثه "إذا حالفك الحظ، ستكون مطرباً لصالات هذا الفندق" وأشار إلى بناية ذات طوابق متعددة، ثم أوقف سيارته في المكان المخصص للسيارات ونزلا.

- ٩ -

بعد شهرين من تلك المقابلة، ظهرت إلى الوجود فرقة (السيركلز) الفنية المكونة من عازف الأورغ الأشقر (ميشو) وضابط الايقاع الأسمر (حمادة) وعازف الغيتار النحيل الطويل (سرور) ثم المطرب الأسمر (عرقي) الذي لم يفاوض أحداً على الأجرة التي سيتقاضاها، و لم يطالب بأية امتيازات، كما لم يبد أي اعتراض على ملاحظات مدير الفندق الخاصة بهندامه، وبدانته الزائدة، وطريقته في العناية بشاربيه الأسودين اللذين لم يكتشف وحشيتهما إلا بعد دخوله ذلك الفندق، ومشاهدته للنعومة المميزة لرواده.

وحتى بدلته الخمرية التي اعتقد بأنها ستغيّر من بؤس مظهره، فقد اكتشف أنها مخجلة إلى حد لفت انتباه موظفي الاستعلامات خلف الحواجز الخشبية على يمين البهو، ولقد انبهر عرقي بما رآه في ذلك الفندق، وأحس بأن فرصته للعمل فيه، أشبه بفرصة طفل صغير يريد الزواج! لكن هذا لم يثنه عن متابعة السير خلف جبر، عبر المداخل العديدة والأدراج الصاعدة الهابطة والزوايا الملأى بالتماثيل الخشبية، والنباتات الداخلية، والمرايا الشاسعة، وكثيراً ما دهمه ذلك الاحساس القسري بالانكماش والتضاؤل أمام موظفي الفندق، وندلته، ورواده الذين رأى فيهم عيوناً واسعة ترقبه من دون غيره، كما أدى إحساسه هذا، إلى تلبُّد وجهه،واضطراره إلى فتح فمه مثل ديك مرعوب أثناء

سيره في البهو المؤدي إلى غرفة مدير علاقات الفندق "هل أنت خائف؟" سأله المدير فأجاب مكابراً "أنا؟ لا، لا أخاف" لكن صوته المتهدج نضح ازدحامات أعماقه "تعال معي" قال المدير ثم نهض يرافقه جبر الذي أشار على عرقي "سر إلى جانبنا لا وراءنا" وحينما دخلوا البار ذا الأضواء الحمراء الخافتة، قدم النادل لكل منهم كأساً مركزة من الويسكي "اشرب لأن المشروب يحل العقد، ويفلت اللسان" قال المدير مخاطباً عرقي، فتجرع خلال دقيقتين كأسين كانت نتيجتهما أن هدأت أنفاسه وعاودته الطمأنينة، وصار يدندن، وأحس بأن الأمر لا يستحق الاضطراب، ثم سار والمدير وجبر، بخطى ثابتة إلى الصالة.

- ١٠ -

في الصالة الدائرية ذات السجاد الخمري المعرق قدم عرقي عرضه الاختباري أمام مدير الفندق وجمع من المشرفين على شؤونه، فأثار إعجابهم بصوته الصداح، خصوصاً حينما قلّد أمامهم أغنية "عشرة أحدعش أتناعش" وأغنية "هزي يا نواعم" بمصاحبة العازفين الذين تحولوا تلقائياً إلى كورس مدرّب.

لكن مدير الفندق أبدى ملاحظته حول مظهره وبدانته، وهنا تدخل مدير العلاقات " أنا أقترح بأن يقوم بعمل ريجيم خلال الفترة المقبلة، لكي يتناسق جسمه، وتزداد جاذبيته، لأنه سيصبح نجماً في المستقبل" فتساءل مدير الفندق "هل تستطيع يا... ما اسمك؟" "اسمي عرقي كياز يا سيدي" أجاب بنبرة لا تخلو من تشبُّث مستميت بفرصته التي غدت على كف عفريت "هل تستطيع تحمل الريجيم يا عرقي؟" سأله ثانية فأجاب من دون أن يعرف ما الذي يعنيه (الريجيم) " نعم يا

سيدي أستطيع" " عال، اذن علموه الريجيم " قال مدير الفندق ثم مضى ترافقه زوبعة المشرفين والموظفين.

خضع عرقي بعدها لمجموعة من الأنظمة القاسية التي وضعها له المدلّك "ريتشارد" واضطر إلى الامتناع عن تناول الأرز والبطاطا والحلويات وكل ما من شأنه أن يزيد من وزنه الذي هبط خلال شهرين إلى ثمانين كيلو غراماً، وانتعشت هاجار حينئذ، "هكذا أفضل يا عرقي" لكنه لم يعلق على ماقالته زوجته، ذلك أن التغير الذي طرأ على عمله وبدنه، حمل معه تغيرات كثيرة عصفت بحياته، وصار يرفض دعوات أصحاب الأعراس من الغجر وغير الغجر "أنا ملتزم مع الفندق" كان يقول، وحينما تلحّ هاجار يصفعها بعبارة دخلت قاموس لغته الجديدة " رجاء لا تتدخلي في شغلي" فتصمت هاجار!.

عرقي تخلص من عوالق كثيرة في حياته السابقة، ملابسه العتيقة التي لم تعد مناسبة لجسمه الجديد وعمله الجديد، حذائه العتيق، جواربه الممزقة، حزامه المفسخ، جلساته اليومية في نوفوتيه نزار إلى جانب زوجته، جلساته في مقهى أبو بركة، ومعرض أبو بركة، وصالون مصطفى، ودكان سعد. الأهم من هذا، أنه تخلص من تأثير هاجار عليه، وشكاها ذات مساء أمام " عزو" الذي استدان منه خمسة دنانير حينئذ فعاتبه " ألم نقل لك قبل أن تتزوجها؟ ألم نقل لك بأن هذه المرأة لا تناسبك؟"، وإذ قرأت هاجار نوايا زوجها في عينيه، لوّحت له بتحطيم كل مجده وكل عالمه الجديد. وحسابات عرقي أدق بكثير من لحظات تأرجحه على سلم المجد الذي اعتلاه بسرعة القرود، إذ "ما الذي يمنع هاجار من دخول الفندق، والصعود إلى (البيست) الذي أغني عليه أمام الساهرين والساهرات؟ ما الذي يمنعها من الصراخ هناك

وإشهار عقد زواجي منها؟ ثم إن الناس لا يعرفون بأنني غجري! وماذا لو عرفوا بأن هذه المرأة هي زوجتي؟ سينتهي كل شيء، سأنتهي أنا".

- ١١ -

هاجار هي الورطة الحقيقية!

هذا ما توصل إليه عرقي. فبالإضافة إلى تمسكها به، فإنها لم توافقه على رغبته في استئجار بيت خارج الوادي "ولكن الحياة في هذا الوادي لا تليق بمطرب مثلي" قال لها مذكّراً بشهرته الواسعة، وبترؤّسه فرقة "السيركلز" بعد ثمانية أشهر من تأسيسها، كل رواد الفنادق وقراء الصحف صاروا يعرفون عرقي، عبر الاعلانات المتكررة عن برامج حفلات الفندق وعبر الملصقات التي ملأت واجهات المدينة، وعبر سهرات فرقته التي لم يتمكن غجر الوادي من إتقان لفظ اسمها إلا بعد ترديدها مرات عديدة، غير أن نقمة الغجر تحولت خلال أشهر إلى محبة له، واعتداد جارف بهذا الغجري الذي اقتحم عالم المدينة بفنادقها ونسائها وشخصياتها، كما نسبوا إليه العديد من الحكايات عن غرامياته في الفندق، "فهو يتدبر موعداً مع إحداهن قبل انتهاء السهرة، ثم يذهب إلى شقتها ويفعل معها ما يحلو له " يقولون، وعرقي "محبوب، النساء يفضّلنه على أزواجهن، وهو يرتب مواعيده مع النساء أثناء ترنح رجالهن السكارى في الصالات".

والغجر يبالغون في وصف تلك الغراميات، حتى أن ناصي الكناس قال ذات مرة بأنه شاهده قبيل الغروب جالساً في سيارة أمريكية إلى جانب امرأة جميلة "تفكّ عن حبل المشنقة" غير أن ما ينّغص عيش عرقي، أن هاجار مصرة على أن تظل زوجته، وأنها بهذا ترفض فكرة

الخروج من الوادي، لأنها "ولدتُ في الوادي، وبيتنا وشغلي وسبلو أبي وقبر أمي في الوادي." هذا ما قالته هاجار لعرقي الذي لم يتمكن من إخفاء سخطه وانفعاله.

***

دبيب الآتي

- ١ -

امتدت الحياة في الوادي وتشعبت، كبر الصغار، هرم الكبار، تغيرت البيوت والدكاكين، حلم السكان، خططوا لحياتهم، لمماتهم، وسّعوا البيوت، رسّخوها، كأنما لتعيش أبداً.

لكن إحساساً واحداً، ظل ينغص عليهم بهجة إنجازاتهم تلك " ماذا لو تبين أن لأراضي الوادي مالكين قانونيين؟".

كان هذا مبعث قلق دفين لا يستيقظ إلا عندما ينوي أحدهم بناء غرفة جديدة، أو تلييس جدار، هنا يبرز السؤال شرساً قاهراً " ماذا لو ظهر أصحاب الأرض؟ ماذا لو طالبوا بأرضهم؟ هل ستنفع حجج البيع في هذه الحالة؟" كثيراً ما ناقش السكان هذا الأمر فيما بينهم،لكن نقاشاتهم تلك، لم تتخذ جدية الممكن. كانوا يقولون، لو أن أصحاب الأرض موجودون لظهروا خلال السنوات الطويلة المنقضية على نشوء الحياة في الوادي، أو على الأقل، لقاموا بزيارة تلك الأرض. بعض السكان فكروا بالأمر من زاوية أخرى، إذ لو كان لدى الجهات المختصة شك في مشروعية بناء البيوت في الوادي، لما وافقت على تمديد المياه والكهرباء إلى تلك البيوت، ولما حضر جباة الضريبة والنفايات إلى الوادي، والأهم من هذا وذاك، أن السكان كلما نظروا

إلى البيوت المزدحمة المنتشرة على جانبي الوادي، أحسوا باطمئنان مبعثه استحالة امتلاك أي مخلوق، جرأة المطالبة بتلك الأراضي الملأى بالحياة والبيوت والدكاكين والأزقة والأحلام.

كان مشهد البيوت المتراصة يعمّق في نفوس السكان إحساساً مبهماً بالثبات والبقاء، أما مسافات السنين الماضية، فتكفي لإلغاء أي احتمال لأية هزة قد تطيح بالحياة في الوادي. ربما أرادوا بأقوالهم تلك، وبنقاشاتهم المتباعدة، طمس ذلك السؤال المرعب، الذي عبث بأعماقهم قبل أن يبيت في زواياها المظلمة "ماذا لو ظهر أصحاب الأرض؟".

ربما عاش السكان صراعاً خفياً مع ذلك الاحتمال الشنيع الذي لا يني يطل برأسه، على الرغم من محاولات طمسه الدائبة، ربما أرادوا قهر ذلك الاحتمال بتثبيت وجودهم في الوادي، وبناء المزيد من البيوت والجدران، وترسيخ الأساسات، وربما لم يستطيعوا وقف مسيرة الحياة، أو عرقلتها بهواجسهم.

– ٢ –

سبلو الغجري لم يعش ذلك القلق، على الأقل منذ أن قتلت زوجته.

كان يحس بأن الوادي ليس سوى محطة في طريق طويل مجهول، وبأن الأيام المتبقية من حياته، إنما هي العبء الوحيد الذي عليه احتماله، بعد أن تحرر من كل أعباء بيته وابنته، وكثيراً ما سخر من ذلك التكالب الفظيع الذي قلب حياة السكان إلى مشاحنات ومشاجرات شبه يومية، فلتدرج الأيام مثلما يحلو لها، إذ لا بد وأن يأتي

ذلك اليوم الذي تتوقف الحياة فيه، على الأقل حياته هو، فلماذا إذن، والحالة هذه، يعترض سبلو مسيرة الأيام؟ لماذا يعيش الصراع؟ لماذا يغرق في الاحتمالات؟.

- ٣ -

واحد فقط من بين سكان الوادي، تنبه إلى ذلك الاحتمال، إنه أبو سلمان الذي تمكن بعلاقاته من معرفة اسم المالك الأصلي لأراضي الوادي، وعنوانه، وما إذا كان حياً أو ميتاً، لكنه لم يشرك أحداً من السكان في تحركه هذا، فقد أراد الجلوس مع (معروف المعروف) الذي تبين أنّه الوريث الوحيد لكل أراضي الوادي، كما أراد التعرف إلى إمكانات موافقة ذلك الوريث على بيع أراضي الوادي له، وفكر فيما سيفعله بعد شراء تلك الأراضي، فقال في ذاته " لكل حادث حديث."

- ٤ -

استقل أبو سلمان سيارة (المرسيلس) الخضراء إلى جانب ابنه سلمان، وتوجها إلى بيت "الوريث معروف المعروف " في الأطراف الشمالية الغربية من المدينة، ولما وصلا، أدهشهما جمال مترله ذي الأسوار الحجرية، والتماثيل الحجرية، والحدائق المنسقة المزهرة، والممرات العشبية، والنافورة الحجرية وراء البوابة الحديدية المحكمة الإغلاق، وحارا في أمر ذلك القصر، إذ كيف السبيل إلى عبوره، كيف السبيل إلى إشعار سكانه بزيارتهما؟ وبينما يبحثان في البوابة عن زر الجرس، إذ برجل أبيض البشرة وسيم الملامح، يرتدي سترة رمادية على

سروال أبيض، يطل من وراء البوابة، ويسألهما بلكنة تركية عما يريدان، وبعد أن استجمع أبو سلمان طرفي عباءته بيديه استجمع نفسه قائلا " نريد مقابلة السيد معروف" ثم أضاف " قل له فقط بأننا جئنا من الوادي".

غاب الرجل في المترل الشاسع، فنظرا إلى بعضهما من دون أن يتحادثا، وأحس أبو سلمان باختلال بسيط في توازنه، أما ابنه فظل ساهماً في حديقة المترل عبر قضبان البوابة.

عاد الرجل واقتادهما إلى صالون واسع ذي جدران ملبسة بالخشب المحفور، وخزائن ومناضد وكراسي مؤطرة بالخشب ، وعدد لا حصر له من التحف والتماثيل واللوحات ونباتات الزينة " التعارف أولا، الأحاديث العامة المقتضبة ثانياً، العطف على الوادي ثالثاً، مع التنويه إلى فقر السكان، وعدم اقتدارهم على شراء أراضيه حتى ولو كانت بأبخس الأثمان، ثم التفاوض مع الوريث حول إمكانية بيعه لأراضي الوادي رابعاً "، تلك كانت خطة أبو سلمان لجلسته الحاسمة في ذلك المترل، وقبل أن يظهر الوريث من أحد أبواب الصالون، توصل أبو سلمان إلى نتيجة قاطعة "لن أخرج قبل الاتفاق معه".

- ٥ -

يدل وجه معروف المتغضّن، وبقايا شعره الأشقر، على أنه في نهايات العقد السادس من عمره، لكن المظهر العام لذلك العجوز، يوحي بأنه خارج لتوه من زوبعة غبارية ملأى بالأتربة. فشعر بدنه الأشقر الصاعد حتى رقبته، والممتد حتى رسغيه المطلتين من تحت كمي قميصه، إنما يميل نحو البياض المغبر، تماماً مثل وجهه وشعر رأسه، وعلى

الرغم من الدهشة التي دهمت أبو سلمان وابنه حال دخولهما منزله، إلا أن معروف استقبلهما بتواضع غريب، وصافحهما كأنه يعرفهما منذ زمن! شيء واحد فقط هو الذي نغص معروف المعروف حينئذ، إنه طريقة سلمان في المصافحة الحادة، ونظراته المسلطة الغريبة.

لقد تجاهل معروف تلك النظرات لفترة من الوقت، لكنه اضطر إلى الالتفات لعيني سلمان، وتساءل عن السبب الذي يدعوه إلى التحفز المتصل.

تدرج معروف في حديثه مع أبو سلمان حسبما أراد هذا الأخير، وعندما وصلا إلى بيت قصيدهما، فوجئ أبو سلمان بالخبر الذي قذفه معروف في وجهه ووجه ابنه، حيث قال، بأنه تقدم إلى المحكمة بقضية ضد جميع سكان الوادي منذ أيام، وأن التفاصيل كلها موجودة عند محاميه الذي تولى القضية، ثم أردف "ألم يصلكم بلاغ المحكمة بهذا الخصوص؟"، وقبل أن يتلقى الإجابة أكمل بخبث " ثم مَن قال لكما بأنني أريد بيع أرض الوادي؟".

- ٦ -

تلك كانت الصفعة الكبرى في حياة أبي سلمان، فقد اضطر بعدها إلى التزام بيته وفراشه بسبب الارتفاع الفظيع في ضغط دمه، والارتخاءات المفصلية البدنية التي سببها ارتفاع السكر في جسمه، وفكر فيما يمكن عمله من أجل إنقاذ عالمه ونفوذه في الوادي، وفي مساء اليوم التالي، وبينما يلتف حوله عدد من رجال الوادي الذين توافدوا إلى بيته للاطمئنان على صحته، أفصح بصوته المجهد، عن " الفعل الإجرامي" الذي قام به معروف تجاه السكان، وبيَّن لهم خطورة موقفهم، وأكد

على ضرورة التصرّف إزاء الشكوى التي تقدم بها إلى المحكمة، وإذ سأله الرجال بأصواتهم المصعوقة عن التصرف الذي يرتئيه قال، بأن على السكان أن يجمعوا مبلغاً من المال، من أجل توكيل أحد كبار المحامين للدفاع عن الوادي وسكانه في المحكمة، لكنه في نهاية لقائه بهم، قلل من أهمية القضية!.

لأمر ما، لوى أبو سلمان أعناق هواجسه، واستبعد أن تتبنى المحكمة تلك القضية! غير أنه أعاد التأكيد على ضرورة الاتفاق على توكيل المحامي لأن "الاحتياط واجب" هذا ما قاله في نهاية لقائه بهم.

- ٧ -

اضطر أبو سلمان إلى وقف اندفاعاته العارمة نحو الحياة، ذلك أن استفحال السكري في جسمه أدى إلى بطء حركته، وإيثاره الراحة على مشاق الخروج من البيت. توقّف أيضاً عن تفقد أعمال ابنه في معرضه وفي المقهى التي اعتاد تصدُّر جلسائها وسط لفيف أقاربه وصحبه ومريدي نعمته، وبدلاً من الاهتمام بالوادي وبسكانه المتفلّتين من سياجات رهبته، تحول اهتمامه إلى نفسه، وقَهَرَهُ امتناعه القسري عن تناول الكثير من المأكولات التي يعشقها حد الاشتهاء الدائم. امتنع عن تناول الحلويات بما في ذلك الكنافة التي اعتاد ابنه سلمان إحضارها له، إمعاناً منه في إرضاء والده، امتنع أيضاً عن ارتشاف قهوة الصباح المحلاة في بيته، وقهوة " أهلاً وسهلاً" وقهوة " مع السلامة" المحلاة في الأماكن التي يزورها، أما أكواب الشاي فلم يجد لشربها مبرراً بعد أن تلقى صفعة الطبيب التي اقتضت انتزاع أهم ما في كوب الشاي، السكر،وكثيراً ما سخر بمرارة من أقراص " السكرين" الصغيرة التي

حاول الطبيب إيهامه بجدوى وجودها في فناجين القهوة وأكواب الشاي، سخر أيضاً من الشروحات المطولة التي استعرض الطبيب خلالها معلوماته الطبية، وامتعض كثيراً حين لم يفهم الكثير مما قاله من معادلات ومصطلحات، كتوازن السكر في الجسم، والبنكرياس، والأنسولين، وحرق السكر، وضغط الدم، والهبوط...

ومما زاد الأمر سوءاً، أن ذلك الطبيب الذي صار يعوده مرة كل أسبوع، أوحى له بأن الحمية وحدها لا تكفي لعرقلة تقدم السكري في بدنه المنهك، وإنما عليه التزام الهدوء، وإلغاء الغضب من قاموس انفعالاته " دع الأمور تسير مثلما هو مقدر لها، فكل الدنيا لا تساوي ظفرك"، تلك هي نصيحة الطبيب الملتحي، بقامته القصيرة، ووجهه الأسمر، ولسانه الزهري اللون، وأسنانه الناصعة التي كشف اصطفافها الدقيق، عن أنها ليست سوى أسنان اصطناعية، إذ كيف يمكن لأسنان رجل أن تكون نظيفة إلى ذلك الحد، بيضاء إلى ذلك الحد، ومرتبة بذلك الشكل الدقيق؟.

لقد أحس بأن التزامه بنصائح الطبيب، سيعني انسحابه من حياة الوادي في أدق ظروفه، أو على الأقل، تعليق حضوره إلى حين. ولكن كيف يمكن أن تسير الحياة بلا انفعال؟ وهل أنا مجنون حتى أسمح للناس بمعرفة ما وصلت إليه حالتي؟ أليس المرض بداية للضعف؟ ثم إلى متى؟.

في البداية حاول أبو سلمان المكابرة، فاستصغر المرض، وتعملق إحساسه بنفسه وبقدراته، فحبس نفسه في غرفة الحمام لساعة كاملة، حلق خلالها ذقنه، اقتلع الشعر من فتحتي منخريه وأذنيه، نظف أسنانه بفرشاته الرمادية، استحم بالماء الساخن من دون الاستعانة بزوجته التي اعتادت أن تفرك له ظهره حين الاستحمام، وإذ انتهى أحس بأنه أزال

عن جسمه كل مظاهر المرض، بل فكر أثناء تجفيفه لبدنه، بأن السكري ليس سوى حالة نفسية مرتبطة بالكسل والتثاؤب والنعاس، وقبل أن يغادر غرفة الحمام نظر إلى وجهه في مرآة المغسلة البيضاء، فأحس بانتعاش مبعثه ذلك التورّد الذي كسا جبهته العظميَّة وخديه الضامرين، وتجاهل المشهد النصفي لصدره المترهل الذي بدا له في المرآة مكسواً بلفائف الشعر الأبيض المتكاثف بين ثدييه البنيين، وفي محاولة منه لتبديد إحساسه المؤقت بشيخوخته، اقتلع فجأة وبأظفريه، شعرتين بيضاوين طويلتين، ملتويتين كالأسلاك حول حلمة ثديه الأيسر، حيث مكنته وخزة الألم من تذويب إحساسه المؤقت السريع بالوهن، فارتدى سرواله وفانيلاته ومنامته الخضراء المخططة، ثم لف المنشفة حول رأسه ورقبته، وخرج قائلاً في نفسه المزهوة بنصر انتعاشه " قال اترك الدنيا قال، أمّا كلام فارغ "، وإذ دخل غرفة نومه زعق بصوته الذي استقام له في تلك اللحظة " يا أم سلمان، أين العطر؟"، وعندما ناولته زجاجة عطر الكركدن الذي لازمه خلال السنوات العشر الأخيرة من عمره، بلل يديه بذلك العطر، ثم فركهما ومسح وجهه، ودعك رقبته وصدره، ثم هز يديه بقوة أومضت في نفس زوجته شبابه الفتي.

غير أن صورة الشيخ المنهك عادت تحتل ذاكرتها حال خلعه منامته وارتدائه مئزره وعباءته السوداء المذهّبة الأطراف " أنا طالع" قال لها ثم توجه إلى معرض ابنه سلمان، تحدث إليه بحيوية أربكته، أشار عليه بعرض المزيد من التلفازات والمسجلات بدلاً من إبقائها في صناديق الكرتون والأسبست، طمأنه عن صحة زوجته سارة التي أصاب الصداع رأسها منذ الصباح، ذكّره بالعشاء الذي سيقيمه لأخوته (أعمام سلمان)، وحينما انتهى عدل وضع كوفيته وعقاله، ثم خرج

متوجهاً إلى مخفر الحي الشمالي من أجل زيارة صديقه رئيس المخفر، وإذ عرض سلمان فكرة إيصاله بسيارته المرسيدس، رفض قائلاً " المشي أحسن، بلا سيارات بلا كلام فارغ".

في المخفر قدم له الضابط كوباً من الشاي المحلى، فشربه مدفوعاً بزهو انتعاشه، متناسياً ما قد يسببه له ذلك الكوب من متاعب جسمية، إضافة إلى أنه لم يرغب في تذكير صديقه بضعفه البدني، ولما تذكر الضابط أن أبو سلمان مصاب بالسكري، أنكر عليه إقدامه على شرب الشاي المحلى حرصاً على صحته، فكابر قائلاً " بلا سكري بلا وجع قلب، الأعمار بيد الله، هات لنا قهوة، هات" "لكن بدون سكر" قال الضابط محذراً، فرد بلا مبالاة " بسكر بلا سكر كله واحد".

- ٨ -

حينما عاد من جولته، أحس بارتخاء في مفاصله وغبش في عينيه، وعندما وصل معرض ابنه تهالك على أحد المقاعد لاهثاً، ثم طلب نقله إلى البيت ليرتاح، غير أن سلمان لاحظ شحوب وجهه واختلاف هيئته عنها حين ذهابه إلى المخفر، كما لاحظ فتور همته وخبو نشاطه.

سأله عما إذا كان بحاجة إلى الطبيب، فعاد للمكابرة " لا، أبداً، هذا التعب بسبب مشوار الطريق".

كان أبو سلمان مكابراً في تفاهمه مع مرضه، وإن كان ثمة صراع يخوضه، فهو ليس مع المرض، إنما مع الآخرين الذين هم خارج دائرة نفسه، كان يحس بأن عليه أن لا يظهر ضعفه أمام أحد، وهنا كَمَنَ صراعه، إذ صحيح أن السكري يعيش في بدنه، لكنه يكبر ويتعاظم في ملامح الآخرين المشفقة، الآخرين الذين يزيدون من هزاله بعباراتهم

وأدعيتهم له بالشفاء، المرض، يستمد قوته من ملامح الآخرين القلقة، ويتغذى على التأثيرات الغامضة لعبارات الاشفاق والتعاطف التي يكررها الآخرون تجاه المريض، هذا ما يراه أبو سلمان، لذا فإنه يحس بأن صراعه الحقيقي ليس مع المرض الذي بدا له أصغر مما يصوره الطبيب بكثير، ولذا أيضاً، أخفى مرضه عن الكثيرين، ونفى وجود السكر في بدنه، وربما كان هذا من الأسباب التي مكنته من إكمال مشواره القوي الجارف مع الحياة منذ أن اكتشف أطباء المستشفى مصادفة، وجود السكري في بدنه عقب اصطدام سيارته الفورد الحمراء بالشاحنة.

أما الآن، فإن الأمر مختلف، الأصح، إن الأمر اختلف منذ الغيبوبة الأولى التي طرحته أرضاً في واحدة من أثمن لحظات حياته، يوم زفاف ابنه سلمان.

في ذلك اليوم، أعلن السكري عن نفسه بعد صبر دام أعواماً، كما تبع الإعلان الكثير من التغيرات التي طرأت على هيئته خلال السنوات التالية، فعلى الرغم من تكتمه، ومحاولاته المستميتة لحصر ذلك الإعلان في أضيق الحدود، إلا أنه لم يستطع إخفاء نحوله، وشحوب وجهه، ومجموعة الطباع العصبية التي تخلّقت في نفسه خلال الشهور الأخيرة، كصراخه في وجه زوجته المطواعة بسبب بطئها في تحضير شيشته الملونة، أو بسبب نومها المبكر الذي اعتادته في السنوات الأخيرة.

كان يصرخ في وجهها واصفاً إياها بالغباء كلما سألته عن صحته، وعما إذا كان ملتزماً بحميته أثناء زياراته التي يقوم بها إلى أصدقائه "ألف مرة قلت لا تتحدثي عن المرض".

وأم سلمان تصمت! غير أن حرصها عليه، دعاها غير مرة إلى مخالفة تعليماته الصريحة بعدم التطرق إلى كل ما يذكّره بمرضه، وكانت تتدخل في خلافاته وابنه جبر الذي لم يعجبه يوماً، تحاول تهدئته تجنباً لما يمكن أن يسببه انفعاله من مضاعفات، غير أن تدخلاتها تلك لم تكن سوى شرارات جديدة في حقول انفعالاته الكامنة، كان يجتث صوته من قاع حنجرته، فيودي بصفاء زوجته وابنه جبر. كان مفتوناً بابنه سلمان الذي "يشبهني أكثر من اللازم" أما جبر ف "زفت، زفت عليه وعلى اليوم الذي جاء فيه"، جبر صار زفتاً منذ أن تناهى إلى مسامع والده ذات مرة، أنه بوقفته على شباك غرفته، إنما كان يغازل ابنة سبلو الذي هو دون مستوى أقل فلاح في الوادي، كان يقول لابنه جبر الكثير من الكلمات التي تشير إلى مستواه الأسري الرفيع، وكان يشدد على كل كلمة يقولها، من أجل غرس تقاليد رهبته في نفس ابنه الهادئ، وحينما يجالس زوجته، يقول لها بمرارة " هذا ما تعلمه ابن الجامعة، المحترم."

- ٩ -

كلما ارتفع السكر في جسم أبو سلمان، اضطر إلى التزام فراشه لأيام طويلة، وكلما بقي في البيت، ازداد حنقه، وإحساسه بفقدان شيء مهم! هو لم يحدد ذلك الشيء الذي بدأ بفقدانه، كما لم يحاول البحث عنه، غير أنه لم يكن يتوانى عن الانفجار غيظاً وغضباً لأتفه الأسباب، كأنه بهذا يريد ملء فراغات هيبته، وثغراتها التي أخذت في الاتساع منذ أن بدأت تراجعاته أمام ضرورات الحمية القاسية،

والعلاجات الأبدية، والغيبوبات المتقاربة، وأخيراً، الالتزام الصارم بالفراش لأيام طويلة.

كان يرفض النوم في المستشفيات معتقداً بأن المستشفيات هي التي تزيد الأمر سوءاً، وهي التي ترسخ الاحساس بالمرض، وهي موطن الشماتة القاتلة المتمثلة في نظرات التعاطف، والاشفاق، والحرص الزائف. كان مصراً " لن أدخل المستشفى ما حييت" وصار الطبيب يعوده مرتين كل اسبوع، يقيس ضغطه، نبضه، حرارته، ضربات قلبه، قوة أصابعه وارتعاشاتها، ويرقب تنفسه، وقدرته على التحرك والنطق والسمع، وكان أبو سلمان يستغرب الكثير من التغيرات التي يراها في ملامح ولديه وزوجته، وتساءل غير مرة عن التغيرات التي طرأت على من هم حوله، مفترضاً بذلك، أنه لم يتغير! كثيراً ما طرح تساؤله هذا أمام زوجته وولديه وأقاربه وأصدقائه الذين تكررت زياراتهم له، كان متشبثاً حتى خداع النفس، بمجده الذي حققه على مدار حياته الزاخرة، غير أن هذا لم يدخل في قياسات تقدم السكري في بدنه، بل على العكس من ذلك، فقد فرّخ تشبثه هذا، مزيداً من السخط ونوبات الغضب المصحوبة بزبد شدقيه!.

على أن الملاحظة الهامة التي أدخلت الرعب إلى نفس زوجته عائشة، هي نوبات التشاؤم والسخط التي صارت تنتابه كلما رأى باب الخزانة البنية مفتوحاً "مليون مرة قلت لك أغلقيه" "نسيته يا شيخ" "لا تنسيه يا مسطولة".

وأم سلمان فسّرت الأمر على أنه إحساس من جانبه باقتراب نهايته، فقد أفلت ذات نوبة من نوبات سخطه، عبارة " أغلقي هذا النعش " ثم بعدها طلب نقل الخزانة من الغرفة التي ينام فيها، فنقلت على الفور،

طلب نقل التلفاز إلى غرفة نومه فنقل أيضاً على الفور، طلب إبقاء المصباح الكهربائي مضاء طيلة الليل، فأبقته أم سلمان محتملة بذلك سهاد ليلها وأوجاع تقلّبها في فراشها، وذات ليلة هادئة من تموز، فاجأ ابنه سلمان بقوله " اقترب مني" فاقترب سلمان " أعطني وجهك"، مد وجهه، فقبله وسط دهشة زوجته وزوجة ابنه اللتين التفتتا إلى بعضهما دون أن تجدا تفسيراً لسلوكه ذاك سوى الوداع!.

لكنه لم يقبل ابنه من أجل توديعه، وإنما بسبب توصله إلى حل نهائي لمعضلة تنازله، فبعد أن تعمق إحساسه بعجزه وما قد يترتب على ذلك من نتائج في تلك الظروف الدقيقة من حياته، أضاءت ذهنه فكرة، أو ربما حيلة، مفادها أن سلمان يشبهه، وأنه امتداد له، لذا لا ضير من أن يضطلع بمركز والده، لأن هذا سيعني بقاء أبو سلمان حتى بعد انقطاعه عن المشاركة في كل ما يجري في هذه الدنيا.

هذا هو الحل الذي أتاح له أخيراً، فرصة التنازل النفسي الذي لم يكن وارداً قبل بلوغه مرحلة الهزال هذه، كما أزاح بهذا الحل عن صدره عبء مكابراته التي أتعبته، وعبء مواجهة شكوى " معروف المعروف" الذي يصر على الاحتفاظ بملكيته لأراضي الوادي.

لكن الغريب، أنه بتوصله إلى تلك النتيجة، وبعد أن قبل ابنه، أصيب بغثيان مفاجئ، وحزن مفاجئ، وخواء لم تعرفه حياته الماضية، وحينما أراد التعبير عن حالته، لم يسعفه لسانه الذي انعقد فلم يعد قادراً على النطق، وهنا دب الصراخ في البيت، لكنه لم يمت.

أدركت أم سلمان ما ينتظرها من مهام حال انطواء زوجها وانعقاد لسانه، وأرغمت نفسها على احتمال ما لايمكن احتماله من المشاهد التي تثير في النفس رغبة التقيّؤ والانقباض، كما اعتادت القيام بواجبات نهارية ليلية تقتضي إزالة لعاب زوجها عن شفته ولحيته بمناديل الورق، إحضار الإناء المعدني ووضعه تحت مؤخرة ذلك الزوج وعند قضيبه من أجل جمع غائطه وبوله الأصفر، تبديل منامته وملابسه الداخلية كل يوم بناء على تعليمات الطبيب الذي قال بأن لا فائدة من نقله إلى المستشفى، وبأن من الأفضل أن يموت في بيته وبين أفراد أسرته. اعتادت أيضاً ربط المريلة البيضاء حول رقبته عند تزويده بطعامه الخالي من السكاكر والدهنيات والنشويات وكل ما من شأنه تسهيل مهمات تقدم السكري في جسمه المنهك، وكثيراً ما عمدت إلى التحدث إليه في أثناء صحوه، من أجل تهدئة أعماقه المرتعشة من مجرد احتمال الموت. كانت تؤكد له بأن عقدة لسانه لا بد وأن تُحَلّ، وأن صحته ستعود إليه مهما بلغت من السوء، وتضرب له العديد من الأمثلة عن أناس عادوا إلى الحياة بعد أن فقدوا كل أمل بالشفاء.

غير أنه لم يصدق أقوال زوجته تلك، فقد كان يتذكر أمه في عراكها الأخير مع السكري، وكيف تمكن ذلك الداء منها على الرغم من محاولاته التي بذلها حينئذ لطمأنتها. لقد رأى في كلمات زوجته رثاء حقيقياً له، لذا أشار بيده إليها أن اصمتي، فصمتت، لكنها لم تستطع مفارقة سريره، كانت تحس بأن كل ما تبقى له من الحياة مجرد ساعات معدودة، وكلما سكنت حركات صدرة وجوزة رقبته، قرّبت وجهها من أنفه وفمه، لكي تتأكد من بقائه حياً.

أم سلمان قامت بأدوارها تلك، بآلية تجلدت عندها أحاسيس القرف والخوف التي تملّكتها لحظة انعقاد لسان زوجها، لكن أعماقها عابثت إحساساً مبهماً تضمّن انتظاراً مريباً للحظة الخلاص من ذلك الزوج الذي لا يريد أن يموت!؟ حاولت طمس ذلك الاحساس مراراً، إلا أنه كان يعاودها بأشكال مختلفة، فتارة يدفعها إلى التنهد العميق، وثانية إلى التأمل الطويل لعينيه المغمضتين،وثالثة إلى التمشي في باحة الدار بضيق. وفي محاولة منها للتغلب على ذلك الاحساس ضاعفت من عنايتها به، ونادت ابنها جبر ليحلق له ذقنه، لكي يبدو أمامها حيَّاً على الأقل! أما هو فكانت ذكريات الماضي تتلملم في مخيلته بلا تسلسل كلما أغمض عينيه، لم يبق له غير ذكرياته الزاخرة، وكانت أحداث شوطه مع الحياة، تتداخل في ذاكرته، فلا تدع له فرصة تنسيقها أو التفرد بأي منها، عبثاً حاول أبو سلمان تصفيف ذكرياته، بل تمنى لو أن أحداً يعبر ذاكرته، ويساعده على ترتيبها. واحد فقط، استطاع العبور إلى ذاكرته بشكل متكرر شبه منتظم، إنه "معروف المعروف" الذي اقتحمه في أيامه الأخيرة مخترقاً بذلك كل أحداث حياته الحافلة، وذكرياته غير المنسقة.

- ١١ -

معروف المعروف أسهم بظهوره المتكرر هذا، في تأكيد أحاسيس أبو سلمان بنهايته المحتومة. كثيراً ما تمنى لو أن أحداً يعينه على إزالة عبء الظهور الكابوسي لصورة ذلك الرجل! لكنه أيضاً، كان بحاجة إلى من يعينه على مناقشة أمر أتاوة أثمان الأرض التي تقاضاها من السكان، أحرام هي أم حلال؟ ولحظة الموت اقتربت، يعرف هذه

الحقيقة، ويعرف بأن فعلته أبعد ما تكون عن الحلال، وأن كل ما يفعله في لحظاته العصيبة هذه، إنما هو بحث عن تبرير مهدئ يطمئنه على آخرته.

كان يتساءل في ذاته العاجزة، عن إمكانات إجراء أي تعديل على ما صنعته يداه، فيوم الحساب آت ولا ريب، وعليه إن هو أراد تجنب عذابات الآخرة، أن يكفر عن كل ذنوبه الدنيوية وعلى رأسها، تلك الأتاوة الجارية، أثمان الأراضي التي تقاضاها من السكان، لكن النطق لا يسعفه، فقد ثقل لسانه، وتحول إلى كرة لدنة متبلدة تضغط فكه السفلي، فتبقي فمه مفتوحاً أثناء صحوه، ونومه، وغيبوباته التي وصفها الطبيب قائلاً بأنها من علامات الموت.

كان يقول في نفسه " يا رب أنت أعلم بحالي، أريد التكفير عما فعلته، لكنني لا أستطيع يا رب، لا أستطيع"، وحينما يتذكر أنه من الممكن تغيير الأمور بأضعف الإيمان، يستبشر خيراً للحظة، كأنما يرمي بكل ذنوبه على رغبته العاجزة في تغيير الأشياء بأضعف الإيمان: بقلبه فقط. أما الصلاة فلم يعد قادراً على أدائها قياماً كالأصحاء، لذا اكتفى بصلواته المضطربة الصامتة أثناء استلقائه على السرير.

- ١٢ -

لقد أحس بنفور الآخرين وتقززهم من مشهده، غير أنه لم يفكر طويلاً في أمر ذلك النفور، وانشغل في صراعه الضاري مع سنان السكري التي نهشت بدنه، وأحرقت دمه وخلاياه، وأوصلته إلى حد آثر معه الاغماض على جهود فتح الجفون، كما أدى سيلان لعابه، وظهور الزبد على شدقيه، إلى ازدياد نفور زوجته وأبنائه منه، وإلى

اضطرارهم لانتظار لحظة الفرج المتمثلة في موته! هذا ما فكروا به فرادى من دون أن يصرحوا به أمام بعضهم، هذا ما قالته عيونهم وجفوهم وتقاطيعهم المتقلصة ونفحاتهم العميقة. وذات ليلة من آب، وبينما تقاوم أم سلمان سهادها، سمعت حشرجة خفيفة مكتومة، فالتفتت إلى زوجها، اقتربت منه، هزته، ثم انفجر صياحها..

- ١٣ -

على الرغم من أن موت أبو سلمان استغرق أياماً اختفى خلالها من حياة الوادي، إلا أن وجوده الملغي ذاك، كان يعرقل تفرد سلمان بالقرار، ويشعره بوجود شريك له في كل ما ينوي تنفيذه سواء في بيته، أم في عمله، أم في كيفية التصرف بأمواله، لكن سلمان حينما استمع إلى الطبيب أثناء زيارته الأخيرة لوالده، أصيب بكآبة مفاجئة، وتذكر بصمات والده في هذه الحياة، ومجده الذي بناه في الوادي، وليلة توقفت نبضات قلب ذلك الأب، قبّل جبهته الباردة، ثم قبل عينيه، فخدّه الأيمن، فالأيسر، وحينما قبل لحيته امتلأ فمه بطعم أقرب إلى الصدأ، مما دعاه إلى الابقاء على ذلك الطعم في فمه دون ابتلاعه، وبعد برهة قصيرة، انسل خارجاً ليبصق في ظلمة الباحة الواسعة ما تجمع في فمه من صديد لم يذكّره بأي موقف في حياته.

وعلى الرغم من اصفرار وجه أبي سلمان الميت، وابتلال شدقيه بزبد المغالبة الأخيرة مع الموت، ثم بروز عظمتي وجنتيه، وجفاف أصابعه ومعصميه، على الرغم من كل هذا، تفقد سلمان إمكانات وجود الحياة في ذلك البدن المتخشب، ثم أرسل من فوره شقيقه جبر لإحضار الطبيب من منزله عند التقاطع الشرقي، غير أن مجيء الطبيب

لم يغير في الأمر شيئاً، بل قوّض بتأكيده على وفاته، تلك الاحتمالات المبهمة، التي تراود الناس أحياناً، وتدعوهم إلى توقع انبثاق الحياة من لحظة الموت.

- ١٤ -

تصدَّر أعمام سلمان وبقية أقاربه، مراسم جنازة فقيدهم، وأحضروا العطور ولفائف القطن والقماش الأبيض ومحمّم الموتى، كما صعدوا أعالي الجبل الشمالي حيث المقبرة، وحفروا حفرة عميقة من أجل دفن جثمان أبو سلمان الذي تمثل في مخيلة ابنه جبر الحزين حينئذ، رجلاً مديد القامة مثلما كان في شبابه، ولقد احتلت هذه الصورة ذاكرته لساعات طويلة، وحين الدفن، أشرف بنفسه على وضع اللبنة التي ستستريح عليها رقبة والده ورأسه، ثم أشرف على إنزال الجثمان داخل القبر وسط مزيج الأدعية والتكبيرات والولولات، وبكى الكثيرون من أقارب الميت في تلك اللحظة، واحتضنوا جبر وسلمان الذي حاول استدرار شيء من دموعه العصية، غير أن تلك الدموع لم تطاوعه. لم يتمكن سلمان من تمثل أحزانه، وبدلاً من أن تحدر دموعه، أصاب وجهه انقباض ما كان له أن يستبد به، لولا إحساسه الممضّ باللازمات العائلية والاجتماعية التي تستدعي البكاء في مثل هذه الحالات، ولقد عزا سلمان في ذاته حينئذ، أسباب تمنّع دموعه، بتذكّره فرضية موت والده التي سلم بها منذ اللحظات الأولى لانعقاد لسانه، كما خاطب نفسه قائلاً، بأن الحزن لا يقاس بالبكاء، وأن حزن الرجل في قلبه. ووجد في هذه المقولة خير تبرير لجمود قلبه، ولقسوته التي أضفت على شخصيته منعة خفية، ترسخت في أذهان أقاربه، وأزواج

أخواته، وكل رجال الوادي الذين شاركوا في الجنازة، كما أدت قسوته تلك، إلى انتشار العديد من التقولات حول سلمان الذي " لم يبك مثل شقيقه وأقاربه" والذي " كان يتمنى الخلاص من والده" والذي " قلبه مثل الحجر" والذي " لا يستطيع أن يحزن كالآخرين".

لكن تلك التقولات اختفت وراء القسمات الجادة للمعزين الذين حضروا إلى بيته خلال الأيام الثلاثة التالية. ومثلما أسهمت إشاعات سكان الوادي في خلق منعة سلمان، فقد أسهمت أيضاً ملامح التأثر والبكاء التي لم يستطع جبر إخفاءها، في انتشار مفهوم مفاده، أن جبر شاب حي الضمير، وفي، مخلص، إنسان، ذو خصال حميدة قلما تجتمع في شاب مثله! غير أن أقوال السكان تلك لم تصل مسامع أي من سلمان أو أخيه أو أقاربه الذين تناولوا معاً، طعام عشاء الميت في بيت واحد من أقاربهم في الوادي، حيث تخلصوا من الدعوات التي وجهها السكان لهم من أجل " كسبهم " في أيّ من ظهيرات أو مساءات أيام العزاء الثلاثة، تخلصوا من كل تلك الدعوات متذرعين بعاداتهم الأسرية الخاصة التي تحظر على ذوي الميت الخروج من دائرة أقاربهم في مثل هذه الحالات، على أن سلمان أبو بركة، كان أكثرهم رفضاً لتلك الدعوات، وأكثرهم تمسكاً بذلك الهدوء الذي هبط عليه فجأة! والحقيقة أن سكون سلمان، وإطراقه خلال جلساته وأقاربه وجموع المعزين، لم يكن بدافع الحزن على والده الميت، إنما هو نتيجة لتفكيره فيما سيفعله بعد الانتهاء من ذيول العزاء ومستلزماته الثقيلة الظل، كان في إطراقاته تلك، يحس بأن الحياة كلها بانتظاره خارج بيته، وأنها تستحثه على ضرورة الخروج من خيام الحزن المنصوبة في ذلك البيت،

لكنه لم يتمكن من التفلّت من اللازمة الأسرية التي تطالبه بالاضطلاع بدوره ككبير لأسرته بعد والده!

- ١٥ -

الحقيقة الأخرى التي رافقت موت أبي سلمان، أن دعوة نزار أبو خنجر (تاجر النوفوتيه) لآل أبو بركة من أجل تناول طعام عشاء الميت في بيته، كانت أكثر الدعوات إلحاحاً وإصراراً، إذ ما أن اصطف آل (أبو بركة) أمام القبر لتقبُّل عناقات ومصافحات المعزين، حتى ظهر نزار أبو خنجر، بجسمه الضخم، ووجهه الحرذوني، ظهر بين صفوف المشاركين في الجنازة التي بدأت بمهابة وجلال، وانتهت بشكل لم يرق لأي من أفراد آل أبو بركة، فقد اضطروا أثناء حملهم للجثمان، إلى عبور الزقاق الصاعد الطويل، الفاصل بين صف البيوت الممتدة وراء مترل الميت، وبين صف البيوت الممتدة وراء بيت سبلو الغجري، حيث اصطدم النعش الخشبي مراراً بالجدران المحاذية بسبب ضيق الزقاق، وكثرة المتطوعين الذين لم يكتفوا بمرافقة الجنازة، وإنما شاركوا في حمل الجثمان، أو حتى لمسه.

ما أن اصطف آل أبو بركة لاستقبال المعزين، حتى اقترب نزار أبو خنجر من سلمان، عانقه وربّت على كتفيه بحرارة دفعت أعمام سلمان إلى التساؤل عن علاقة ذلك الرجل بشقيقهم الميت، وبابنه سلمان؟ وإذ أنهى نزار عناقه الطويل، قال بلهجة مشحونة بالكثير الكثير من النفحات الجادة، والمعاني المضمرة ، قال " البقية في عمرك يا سلمان، والأعمار بيد الله" قال أيضاً " يعلم الله كم أحببت فقيدنا" وقبل أن ينتقل إلى معانقة جبر قال "عشاؤكم الليلة عندي في البيت"، لكن

سلمان كان أذكى مما ظنه، فقد فسر تلك الدعوة على أنها الرسالة الأولى التي يخطها نزار إليه، من أجل إشعاره بندّيته. نزار إذن يريد التطاول. يريد وضع نفسه في مصافنا!. هذا ما خطر لسلمان حال استماعه المتيقظ لعبارة نزار الذي لم يطل انتظاره للرد المشحون بالكثير من النبرات الجادة،والنظرات المسلطة والمعاني الصادة " بارك الله فيك، لكن من عاداتنا أننا لا نقبل الطعام إلا في بيوت أقاربنا"، هنا تغير لون نزار، لا بسبب رفض سلمان لدعوته، وإنما لما يحمله ذلك الرفض من إصرار على الإبقاء على المسافات الفاصلة بينهما. وعلى الرغم من إلحاحه الذي حاول عبره التأكيد على ندّيته، إلا أن سلمان ظل متحصناً برفضه لتلك الدعوة، ولما حملته من معان لا يمكنه قبولها، أبداً.

***

الكتاب الثاني

التبليغ

- ١ -

كان من الممكن أن يظل ليل الوادي، مثلما عرفه السكان قبل ظهور " التبليغ" :

أعراس صاخبة، دكاكين مغلقة أو مفتوحة على جانبي الطريق، بقايا قشور وأوراق، أعمدة متقشرة، خيوط طائرات ورقية مشتبكة بأسلاك الكهرباء، مصابيح مضاءة; أخرى مهشمة، مراهقون يتمشون في طريق القاع، يتحدثون عن الفتيات والأفلام والحب والمباريات، رجال يسهرون أمام البوابات، يتحدثون في السياسة والنقود والمبادئ والأسعار والحرب والسلام، وشبان بثياب ملائكية يتحادثون وقوفاً أمام مسجد إسمنتي، أو يعترضون المارة من أجل هدايتهم.

كان الليل في الوادي، نوافذ مضاءة لبيوت تسلقت جانبي الوادي، تعلوها جدران ونوافذ أخرى مضاءة أو مطفأة، ثم شبابيك أكثر ارتفاعاً وأقل اتساعاً، أو هكذا تبدو من القاع، وجدران، فنوافذ أكثر اقتراباً من السماء، ثم مقبرة عالية ملتحمة بالأفق الشمالي.

ولكل كائن دوره في ليالي الوادي، فحينما تُطفأ الأضواء، وتخف الأرجل في المسارب والطرقات، يتعالى نباح الكلاب، وأزيز حشرات

الليل عند المقبرة. يتعالى مواء القطط، وخثاءات قتالها الضاري على بقايا الطعام في أكياس القمامة الممزقة، لكن قطط الوادي لا تجرؤ على الاقتراب من جرذانه الضخمة المتحدية! قطط الوادي أُعادت النظرة في عدائها التقليدي للجرذان، بل ربما تحول ذلك العداء إلى نظرة متّزنة، قادرة على الاعتراف بالواقع الجديد، الذي خلقه وجود جرذان (العرسة) المستعدة أبداً للردع.

- ٢ -

كان من الممكن أن يتلاحق نبض الحياة في الوادي، فيستمر في سيره المعتاد، مثل قطار يتقدم في ضباب المجهول. غير أن الليلة التي أعقبت زيارة (المحضرين) إلى الوادي، بلغت من الوحشة حداً، تجمع السكان معه تحت أعمدة الكهرباء هرباً من إحساسهم المالح بجدّية (التبليغ).

وقيل في الوادي، أن رؤوس الرجال انقلبت بعد اطلاعهم على نص التبليغ، قيل أنهم لم يتبينوا وجه السماء من قفاها، وأن الصواب فر من عقولهم وأفئدتهم، طار الصواب مثل عصفور شارد من دوي مروع.

قيل أيضاً، أن ثلة من رجال الوادي تداولوا أمر التبليغ فيما بينهم، وقرروا بترق "لن نترك بيوتنا حتى ولو هُدمت فوق رؤوسنا! سنوصل القضية إلى أعلى المستويات! سنلاحق المحامي الذي جمعنا له النقود! سنحاكمه في تقصيره في المرافعة بالنيابة عنا! سننصّبُ محامياً مرّاً من أجل الدفاع عن حقوقنا."

- ٣ -

"نص التبليغ مستمد من صراحة المحكمة، ومن قوة القانون الذي لا تفزعه الاحتجاجات، ولا تثنيه الاعتراضات " هذا ما قاله المحضر الأبيض في الظهيرة التي تم خلالها توزيع نسخ التبليغ على السكان.

والنسوة اللواتي اعتدن قضاء الساعات المعلقة من نهاراتهن جلوساً على الحجارة المهشمة، توقفن في تلك الظهيرة عن أحاديثهن مستطلعات ذلك الانتشار المدروس، للمحضرين الذين تأبطوا قوائم الأوراق حال مغادرتهم الاستعراضية للسيارة الكحلية، أما الصبية فكفوا عن ملاحقة بعضهم في الطريق، واشرأبت أعناقهم الرفيعة، ثم تلملموا حول السيارة، وحول المحضرين الذين دلّلت طريقتهم في قرع بوابات الدور، عن تصميم وعناد لا صادّ لهما.

كانوا يقرعون البوابات بأكفهم الملحاحة، وإذ تفتح يسألون أصحابها عن أسمائهم، ويبللون أصابعهم بلعابهم باحثين عن تلك الأسماء بين أوراقهم المسحوبة على ناسخات (ستانسل)، ثم يضعون إلى جانب كل اسم علامة، ويطالبون صاحبه بالتوقيع على قوائم الأسماء كدليل على استلامه نسخة من تبليغاتهم المحشورة بين الملاقط المعدنية.

" إقرأوا نص التبليغ جيداً" كانوا يقولون للسكان المتجمعين، ثم ينتقلون إلى أزقة أخرى موكلين أمر محاورة السكان، إلى الموظف الأبيض الذي تشاغل بتصفح أوراقه في محاولة منه لاستجماع صوته الذي ذوى " اسمعوا " قال باندفاع وأضاف بذات اللهجة " تعلمون أن أرض الوادي مملوكة لغيركم" ثم حك ذقنه بعد أن عاوده إحساسه بالارتباك الذي استدعته بداية المواجهة، أو ربما بداية التحدث إلى جمع من الناس " قرار المحكمة قطعي لا رجوع فيه، فإما أن تدفعوا ثمن

الأرض لصاحبها، وإما أن تخلوا بيوتكم وترحلوا، معكم خمسة عشر يوماً بلياليها، تدبروا أموركم"، ثم طوى أوراقه، ورفع رأسه من أجل الاستماع إلى تساؤلاتهم واستفساراتهم المحمومة حول " جدّية التبليغ" و " حجج البيع التي نملكها" و " دور المحامي الذي جمعنا له النقود" و "ما الذي سيحصل إذا لم نغادر بيوتنا؟" و "الثمن الذي يريده صاحب الأرض".

- ٤ -

المحضر الأبيض القميص والوجه والأسنان، أجاب عن كل استفسارات السكان بوضوح زاد من رغبتهم في التساؤل، والتجمع حوله، والتفكر، والاحتداد، وضرب الصبية الذين لم يكفوا عن التناهد والتضاحك.

ونهار الوادي تفسّخ عن ضجيج دَهَم الرؤوس، فاقتادها وراء المحضرين الذين أفصحوا أمام بعضهم عن توقهم إلى الانتهاء من مهمتهم تلك، ونضحوا مراراً بصقاتهم من قيعان صدورهم، حتى أن بعضهم وضعوا على أنوفهم كمامات من ورق (الكلينكس) لكي يحموا رئاتهم من تسرب الروائح الكريهة إليها، غير أن هذا لم يغثهم حينما اقتربوا من بيوت المنعطف، ذلك أن الذباب الصيفي الثقيل، انبعث من أكوام النفايات حال اقترابهم منها، ودهم وجوههم ورقابهم بشراسة أدت إلى تصدّع وقارهم، وجعلوا ينشون الذباب بعصبية، ويشتمون كل شيء، بما في ذلك، اليوم الذي تم فيه اختيارهم لتلك المهمة الصعبة كما وصفها أحدهم، وانتظروا صادقين، لحظة الانتهاء من مهمتهم تلك، من أجل العودة إلى سيارتهم التي التف الصبية حولها كالقردة،

واشتبكوا مراراً مع سائقها العابس، ومطّوا ألسنتهم في وجهه، وهوّسوا له، وشتموه فشتمهم ولحقهم، وإذ ابتعدوا، عاد إلى السيارة واستدار بها، ليوقفها عند التقاطع الشرقي حيث يكتظ الخلق، وحيث يُطحن الوقت تحت عجلات السيارات، فينفد صبر سائقيها أثناء انتظارهم لفرص المرور.

- ٥ -

عند التقاطع تتلملم محلات بيع الأدوات والأواني المعدنية والبلاستيكية، ومحلات النوفوتيه، والأقمشة والخردوات والأثاث والدكاكين، وتعلو نداءات باعة الخضار ذوي الذقون الشوكية، وباعة اللحوم والأسماك المجمدة والدجاج الأبيض في الأقفاص الخشبية، وتتلملم النسوة بسلالهن البلاستيكية حول عربات الباعة وبسطاتهم، يفاوضنهم بتجهم أو بابتسامات سريعة، والشمس تكهر في سماء الوادي وتعلو فيوغل النهار في قسوته، وتنبض العظام بالألم، كل العظام: عظام المشط، الساق، الفخذ، الحوض، القفص، العمود الفقري، الترقوة، والجمجمة، عظام الآدميين، الكلاب، القطط، الدجاج، الجرذان! كل العظام تنبض بالألم، ويتشرب الوادي من جلود سكانه عرقاً مالحاً، بينما تذوب سحب الصيف القطنية في السماء البعيدة، لتزداد جولة اللهاث اليومي شراسة واشتعالاً.

- ٦ -

لم يتوقع سكان الوادي أن تتطور الأمور إلى ذلك الحد المرعب، لم يفكروا يوماً بإمكانية بلوغهم تلك الحالة المفزعة من الترقب والتوجس،

وحتى عندما وافقوا أبا سلمان قبل موته على جمع مبلغ من المال من أجل توكيل محام للدفاع عنهم، فإنما فعلوا ذلك من باب الاحتياط لا الضرورة، لكنهم الآن وبعد معرفتهم تفاصيل قضيتهم، يتذكرون ذلك المحامي، يتذكرون أنه قال لهم بحضور أبي سلمان "حطوا أيديكم في الماء البارد" يذكرون أيضاً، أنهم وضعوا أيديهم وأرجلهم في الماء البارد، لكن المياه ستغرقهم الآن " ماذا فعل المحامي ابن المحترمين؟" يتساءلون "أين كان حينما كان الاستئناف ممكناً؟ لماذا ظل صامتاً حتى أصدرت المحكمة قرارها القطعي الأخير؟ أتراه متواطئاً؟ هل دفع له صاحب الأرض؟".

– ٧ –

في البداية أحس السكان بمزيج من الكآبة والعناد والانكسار، مجموعة من الأحاسيس المتنافرة التقت في نفوسهم، فغدوا مثل من تلقوا أوامر باجتياز حفرة عميقة، فلا هم راغبون في تخيّل قاعها، ولا هم قادرون على تجنبها.

كانوا يلتقون تحت أعمدة الكهرباء وفي البيوت، يتحاورون بغضب، يرفعون أصواتهم، يخفضونها، يكابرون، يتوعدون، حتى أولئك الرجال المعروفون في الوادي بخنوعهم، تمردوا على أنفسهم، ورفعوا أصواتهم متوعدين! كأنما بثّت المصيبة فيهم قوة مكنتهم من تملُّك أنفسهم.

كانت أحاديث السكان تدور حول التبليغ، ومعروف المعروف، وأبو سلمان والحلول الممكنة :

"- أبو سلمان هو السبب، لأنه أخذ منا ثمن الأرض أيام كانت رخيصة وباعنا الورق.

- والله يا عمي باعنا الورق والحكي الفاضي.

- هذي غلطتنا! لو فكرنا بعقولنا وقتها، لفتّشنا عن صاحب الأرض الأصلي، واشتريناها منه واسترحنا.

- على كل حال، صارت.

-أنا عارف كيف سكتنا لأبو سلمان ورضينا بأوراق الحجج؟

- يمكن الحجج تفيدنا.

-يا رجل اسكت، بلا حجج بلا حكي فارغ.

-كيف حكي فارغ؟

-لأن المحكمة لا تعترف بالحجج، ولأن أبو سلمان الذي وقّعها، مات وأكله الدود.

-يا أخي خلينا واقعيين.

-والله لو أنه حي لعملنا له مشكلة.

-أنت تعمل له مشكلة يا فسيخة؟

-آه أنا.

-طيب اسكت أحسن لك.

-كيف أسكت؟

-يا سيدي لا تسكت، تفضل إعمل مشكلة لابنه سلمان أو لابنه الثاني جبر.

-جبر محترم.

-طيب اعملها مع سلمان.

-سلمان ما له دخل.

-سلمان قال للمحضرين قدامي أن التبليغ كلام فارغ وحبر على ورق.

-بالله عليك؟

-طبعاً يا رجل.

-يا عمي سلمان صلب مثل الحديد.

-كلامكم صحيح، لكنه قال لي أن الدفع هو أفضل حل.

-هو قال؟

-أي نعم.

-متى؟

-اليوم، الصبح.

-هالله هالله، ما الذي يهمه؟

-مالك يا رجل، طالما قادر على الدفع، لماذا لا يدفع؟

-لكنه يدفع من مالنا الذي ورثه عن والده.

-أي مال يا رجل؟ وكم دفعنا لأبو سلمان؟ أكثر واحد فينا دفع له عشرين ديناراً .

-وماذا تساوي العشرين ديناراً في هذه الأيام؟

-ما أمكر صاحب الأرض! ظل ساكتاً حتى ارتفعت أسعار الأرض وظهر لنا مثل الشيطان.

-لكنه يحلم، والله انه يحلم! وإلاّ كيف يطالبنا بشراء الأرض بأسعار هذه الأيام؟

-فعلاً إنه يحلم، وإلا كيف يطلب خمسة وعشرين ديناراً عن كل متر مربع؟

-لكن قرار المحكمة واضح، إما الدفع وإما ترك البيوت.

-أي والله لو قطعوا رقبتي ما رحلت عن بيتي! قال ارحل قال!

-لكن يا عمي قرار المحكمة قطعي..

-وان كان.

-يعني لازم نلقى حل قبل ما تنطبق الدنيا علينا.

-كل عقدة ولها حل.

-لا يحلها إلا حلاّل العقد، توكلوا على الله.

-لا إله إلا الله، لكن لازم نعقل قبل ما نتوكل.

-المهم أن يكون لنا رأي واحد.

-لازم نكسب سلمان لصفنا.

-ونزار أبو خنجر.

-طز على الاثنين.

-أنا أقول سلمان واحد مستغل مثل والده، ونزار بطنه أجرب.

-إذا كسبنا سلمان لصفنا، كسبنا الحل، لأن سلمان خدوم مثل والده.

-سلمان أحسن من والده.

-إنت غلطان، لأن الضبع هو ابن الضبع.

-يا عمي اتركونا من سلمان وأبو سلمان، فكروا بطريقة تجنبنا الخازوق.

-أنا أقول نشتكي على أبو سلمان وأولاده، لأنه هو السبب.

-يا رجل فكر مثل الأوادم، أبو سلمان ميت، كيف نشتكي عليه؟

-لا تتجنى على أبو سلمان.

-حرام عليك!

-يا جماعة بالله عليكم، اتركونا من سيرة أبو سلمان، ما لنا وماله، أبو سلمان مات وأكله الدود.

-لكن سلمان موجود.

-أنت غلطان!

-آآه... رجعنا لنفس السيرة. "

***

سبلو

- ١ -

لسلمان أبو بركة مبررات تصرفاته وأقواله التي كان آخرها، القول الذي أطلقه حينما تصاغر أمامه المحضرون، واستسمحوه بالتوقيع على استلامه نسخته من التبليغ، لقد أفصح المحضرون في حضرة سلمان عن بالغ أسفهم لاضطرارهم إلى مطالبته بالتوقيع على أوراقهم، كما أعربوا له عن امتعاضهم الشديد من تلك المهمة، وتمنوا لو لم يتم اختيارهم لأدائها! لكن " الواجب هو الواجب" قالوا له أثناء خطه لتوقيعه الحاد الزوايا على أوراقهم. حينها استلّ من هالة وجوده قولاً تردد بعدها على ألسنة سكان الوادي، فقد صرح أمام المحضرين بثقة أصحاب القرار " أنا أعرف بأن هذا التبليغ مجرد حبر على ورق."

وقيل في الوادي أن سلمان يعرف خفايا الأمور، ويعرف بأن التبليغ مجرد تهديد. وكياز الغجري قال لسبلو أثناء احتسائهما العرق، بأن ذلك الرجل يعرف الكثير، وأنه قد يحلّها مع صاحب الأرض، لكن سبلو لم يعلق، بل فتح زجاجة جديدة من العرق، وملأ كأس كياز وكأسه، ثم احتضن بزقه، وأخذ يسكب أنغامه الحزينة.

- ٢ -

سبلو مستعد للتخلي عن أي شيء في هذه الدنيا عدا العرق! فهو الملاذ، وهو أحد مكونات بدنه المتكرمش، ودمه المتخثر.

كثيراً ما يتدحرج جسم سبلو في هُوىً وهمية سحيقة، كثيراً ما تنتهي دحرجته بارتطامه بقيعان لا وجود لها، قيعان حلمية تقتلع إحساسه بانسياب لحظاته فيرتعش، فينتفض، فيتألم حال ارتطام رأسه بصلابة تلك القيعان.

فجأة يصيح "آآه" ويتقبّض وجهه المتراجع عن لحيته.

لا علاقة لسبلو بتلك الرعشة التي تدهم جسمه حين ارتطامه بالقيعان، ذلك أنها لا تبدر عنه، إنما عن جسمه المنتفض من دون إرادة منه.

لأمر ما ينتفض جسم سبلو، لأمر ما ينكمش جلده على عظامه، لكأنما خوفاً وهرباً من أمر جلل، أو من خطر ماحق يستهدفه من دون خلق الله، لكنه لا يفصح عما يجول في رأسه الغاطس بين كتفيه، فهو لا يتحدث إلا فيما ندر، كأنما هو مكتف بالأحاديث الصاخبة الدائرة في رأسه، وحتى تعليقات ركاب الحافلات الذين يطلون برؤوسهم إذ يرونه واقفا عند التقاطع الشرقي، فإنها لم تعد مثار اهتمامه أو استجابته، ذلك أنهم ينظرون إليه بسخرية أو بشفقة كلما شاهدوه بشعره الأبيض، وحاجبيه الأبيضين، ووجهه الأسمر المبرقع.

- ٣ -

ركاب الحافلات التي تعبر التقاطع وسائقوها، يعرفون وجه سبلو ووقفته المميزة لصق عمود الكهرباء، وينسون في غمرة معاكساتهم له،

إلحاحات الشرطي الواقف في وسط التقاطع عليهم بضرورة السير والإسراع . لكن سبلو لا يحفل بتعليقاهم، لا سيما تلك التي يعمد طلاب المدارس المراهقون إلى إطلاقها على مسامع الطالبات، ظنّاً منهم بأن تلك التعليقات ستزيد من رصيد إعجاهن هم، واستلطافهن لهم.

سبلو يدرك هذا، لكنه لا يدري أنه بوقفته تلك، يتحول إلى جسر خفي لعلاقات جديدة، قصيرة أو دائمة، فمشهده الصباحي وهو ملتصق بالعمود مثل رجل مصلوب، سيبعث الحياة في اللحظات الحرجة الصامتة للركاب المتلازمين على المقاعد، سيجدون مادة فكهة للحديث، ومدخلاً سهلاً لقضاء الدقائق الثقيلة المأزومة، وسيفتح بغرابة مظهره ووقفته، أبواباً واسعة لأحاديث قد تشكل مداخل لعلاقات جديدة بين طالب متردد وطالبة مرتجفة، أو بين موظف مشرئب وموظفة مرشحة لأن تكون زوجة أو صديقة له.

لكن ذلك السائق الغليظ الذي يقود إحدى الحافلات، أثار غيظه في الصباح التالي لظهور التبليغ، فقد صاح من نافذة حافلته " يا سبلو، يا سبلو، أصحيح أن الجرافات ستهدم الوادي؟" ثم تابع بذات الغلظة "يعني سيرمونك في الشارع أنت وعفشك؟".

في تلك اللحظة اتفق أن أصيب بغيبوبته القصيرة السريعة، فانتفض جسمه، فأحس بألم مفاجئ أطلق لسانه، فتأوه، فاعتقد ركاب الحافلة المتوقفة أنه متألم من احتمالات هدم البيوت في الوادي، غير أنه بعد أن زال ألم ارتطامه الوهمي الغامض ابتسم بارتياح، فابتسم أحد الركاب المتأنقين وقال متظاهراً بالحكمة "صحيح أن العقل زينة!" قالها ظناً منه بأن جنون سبلو هو الذي دفعه إلى التألم والابتسام في آن معا، أما هو فابتسم ثانية حينما تساءل راكب آخر ساخط القسمات مرتجف

الأعماق لمجرد احتمال تأخره عن دوامه الصباحي، تساءل عن أسباب امتناع رجال الشرطة عن احتجاز سبلو الذي يؤدي بوقفته تلك، إلى عرقلة السير في التقاطع.

– ٤ –

لم يجد سبلو مبرراً لإصرار المُحضر الأبيض على طبع بصمته إلى جانب اسمه حينما سلمه نسخته من التبليغ "افرض أنني لا أريد وضع بصمتي على أوراقك؟" قال للمحضر الأبيض الذي تكاسل البريق في عينيه حال تنبهه إلى البقع المنتشرة في ظاهر يد سبلو "لازم تبصم" أعاد المحضر الأبيض محاولته، ثم تبادل وزميليه نظرات مسترية انتهت بتراجعهم إلى الوراء خطوة، بسبب استنتاجهم لإمكانية انتقال عدوى البقع الكامدة من جلده إلى أبدانهم.

لكن رفضه البصم على أوراقهم، دعا المحضر الأبيض إلى إعادة النظر في مبررات الحصول على تواقيع السكان، ذلك أنه " حتى لو لم يوقع السكان على استلامهم التبليغ، فإن هذا لا يعفيهم من مسؤولية العلم به عبر الصحف ووسائل الإعلام الأخرى" هكذا فكر المحضر الأبيض أثناء تفحصه ملامح زميليه تقدمةً لاستمزاجهما في إمكانية الاعتراف بوجود حالات استثنائية يجوز خلالها الاكتفاء بتسليم التبليغ من دون التوقيع على القوائم.

لكن سبلو أراح ذلك المحضر من عبء إقامة حوارات وتظاهرات بالحنكة والدراية مع المحضرين الآخرين، فقد قال لهم " لن أبصم " وانسحب بعد أن تركهم يتخبطون في " ما العمل؟".

- ٥ -

كان من نتائج عجز المُحضرين عن الحصول على بصمة سبلو أن انتشر بين السكان احتمال مفاده أن عدم التوقيع على القوائم ممكن، وأن السخرية بأولئك المحضرين الذين لا يملكون من الصرامة والحزم ما يؤهلهم لبث الرهبة في النفوس، ممكن، وأن التمرد على التبليغ برمته، ممكن، وكل شيء ممكن طالما لم يبصم سبلو الذي لا علاقة له بجلده المنكمش على عظامه، هرباً ربما من خطر ماحق يدركه ولا يدركه، لكنه لا يحتاط له، فقد ذهبت أيام الحيطة حينما قتلت هاج " إذا هدموا بيوت الوادي فستموتين يا هاج، ستموتين بالفعل" قال وهو يبتعد عن ثلة المحضرين، ثم دخل بيته وأغلق الباب محاولاً الاستفراد بشجونه التي استيقظت، وتمثلت في مخيلته لحظتئذ بوضوح غريب.

- ٦ -

بعد عام من مقتل زوجته هاج، حاول سبلو أن يتذكرها بجلاء فلم يفلح. حاول الاحتفاظ بصورها في خياله الباهت، فلم يفلح. حاول استرجاع نبرات صوتها، فلم يفلح. ويوم رسمها على جدار بيته الكالح، اشترى صباغاً ملوناً وفرشاة، وصار يتذكر ويرسم، بينما وضعت هاجار الصغيرة حينئذ، كفها أسفل فكّها، وجعلت ترقبه بشوق.

كان يرسم ويتحدث إلى نفسه، أو إلى كائن لا تعرفه هاجار "الشعر مثل الفحم" ويستخدم اللون الأسود " العينان مثل الكحل" ويرسم " الخد الأحمر مثل العناب" ويزيل عن الفرشاة آثار السواد ليغرقها بالصباغ الأحمر، الشفتان، الأذنان، القرطان، العنق، القلادة، الكتفان، النهدان، الذراعان، الاسوارتان، اليدان، الخاتمان...

حينما انتهى من الرسم بادرته هاجارالصغيرة وهي تنظر إلى ما رسمه " يا سبلو هذه ليست هاج أمي" " لا ياهاجار إنها هاج" قال وهو يبتعد ليرى الصورة بوضوح، ثم قاوم إحساساً باختلال الشبه بين تلك الصورة وبين زوجته، وقرر "نعم هي هاج" ثم كرر " هاج بشحمها ولحمها" كأنما أراد بتأكيده هذا أن يُسّرب إلى ذاكرته قناعة مفادها أن " تلك الصورة هي صورة هاج الحقيقية! " وكلما مرّت الشهور والسنون ازداد اقتناعاً بأن تلك هي هاج، بل لقد طردت تلك الجدارية صورة هاج الحقيقية من ذاكرته! وحتى هاجار فقد اقتنعت حينما كبرت، بأن تلك هي هاج! ذلك أنها لم تعد تذكر من صورة والدها سوى تلك الجدارية، ثم إن سبلو هو الذي يذكر هاج جيداً، أما هاجار فكانت صغيرة إلى درجة النسيان حينئذ " أين هي الآن يا سبلو؟" تساءلت بلهجة لم تحمل براءة الطفولة، إنما توجُّس الكبار وخوفهم "مسافرة يا هاجار" قال فبادرته " إلى أين؟" فأجابها "إلى بلاد الشمس يا هاجار.... " هاج هدجت، سافرت إلى نهر الظلام وهدء النهاية، حيث المعبر الكهفي المؤدي إلى بلد الأموات، وحيث كلاب الطهر الصامتة، البيضاء البيضاء في ظلمة المعبر، الكلاب التسعة التي تحمل الروح، تحرسها، تسير بها في المسرب المهجور إلا من بقايا حشرجات الأرواح التي مرت وبلغت مأرب الغجري بعد مماته: بلاد الشمس.

سبلو يعي أسطورة الغجر، لذا علق في خنصر زوجته قبل أن يدفنها صرة صغيرة حمراء تحتوي قطعة من النقود كي تدفع أجرة سفرها إلى بلد الأموات "ستتكلم هاج حين تشرق الشمس في السماء الأخرى، ستقول شيئاً، ستحيا هاج إلى الأبد" قال. ثم أهال التراب فوقها دون أن يأذن لعثمان أبو بركة أو لأي من أبنائه الأربعة بمساعدته، وحين

انتهى، قرفص بجانب القبر، بينما لامست شمس آب الأفق الغربي، ثم انزلقت ببطء وراء الامتداد الجبلي الصارم، والسياجات العتيقة، ونباتات الشوك.

في تلك اللحظات الرمادية المتأرجحة بين بقايا النهار الهارب، وبين بدايات الليل الزاحف، توالدت نجوم آب في سماء الوادي، ففتح سبلو صرة الطعام فوق الجدث، وتمتم ببضع كلمات، ثم تناول وطيف زوجته عشاءهما الأخير.

- ٧ -

كان من الممكن أن تنجو بهاج من موتها الأسطوري، لو أنها استسلمت للرجل المربوع أو لرفيقه الأسمر الطويل، غير أن مقاومتها لهما أدت إلى انهمار ذكورتيهما في الليلة التي أقام اللصوص فيها عرس انتصارهم على حنكة حراس البريد المركزي في المدينة.

لقد غافل اللصوص رجال الشرطة في إحدى ظهيرات آب القائظة، واستولوا على طوابع الواردات الموجودة في مبنى البريد، وعلى الطرود المكدسة على الحامل الخشبي الطويل، وعلى النقود التي احتفظ بها موظفو البريد في جيوبهم وأدراج مكاتبهم، وحتى الرسائل التي أودعها السعاة في صناديقهم الحديدية، فقد حملها اللصوص في أكياسهم حينما امتطوا خيولهم وأطلقوا أعنتها للرياح. واهتزت المدينة وصخبت، وتجمعت حول البريد بحثاً عن التفاصيل، لكن التفاصيل فرت مثلما الطوابع والنقود والطرود والرسائل.

في الليل، قرر اللصوص تحت وطأة كؤوس العرق التي مرت من حلوقهم، الإطلاع على أسرار المدينة، ففضوا الرسائل المسروقة

وقرأوها، وضحكوا بما يكفي لما تبقى لهم من حيواهم الشقية، وتفكهوا بالمقدمات والسلامات الطويلة التي يفتتح الناس بها رسائلهم إلى ذويهم وأصدقائهم، وسخروا من أخبار الالتحاق بالجندية، والسفر شرقاً أو غرباً، وولادة الأبقار والخيول والجمال، وشراء الابل، والانتهاء من نسج بيوت الشعر، وجني الغلال، وتزويج الأبناء، والبنات، وزراعة الحبوب أو شرائها، وحينما ملوا لعبة الرسائل غنوا ورقصوا على أنغام بزق سبلو، وإذ فضوا حفلهم الشيطاني، قرر الرجل المربوع وصديقه الأسمر مرافقة سبلو الذي ما أن دخل بيته، حتى فوجئ باقتحامهما ذلك البيت، وإشهارهما خنجريهما المعقوفين!

صاح فكمماه، ثم كبلاه بالحبال. كالأفاعي التفت حبالهما حول يديه ورجليه، وسطوة اللصوص أغلقت عليه حتى إمكانية الصياح، ليلتها أسقط بزقه الذي أودعه رحيق روحه المعذبة المارقة من جماعة الغجر.

لا يحسن الغجر الابتعاد عن بعضهم! ولذا، يقولون في الوادي، بأن اللصان تجرآ على تعرية هاج على مرأى من زوجها المكبل، سبلو!

حينما تفجر الصراخ من أحشاء هاج، أطبق المربوع على رقبتها وفمها، فنهشت وجهه بأظافرها، فشد على رقبتها، فعاودت الصراخ في محاولة منها لتجميع ما تبقى لها من حواسها الست حين لم تشعر بوجود كائن واحد! كائن واحد يوقف انهمار ذكورتي اللصين، أو يمسك بالمخالب الخرافية التي أطبقت على عنقها قبل أن تكف الدماء عن المرور من شرايينها وشعيرات الحياة فيها.

لم يبق من آثار هاج سوى بقايا نظراتها الهلعة، وأصداء صراخاتها المذبوحة، وصندوقها الخشبي الذي ملأه سبلو بقصاصات أوراق رجال

الشرطة، واستدعاءاتهم المكتوبة له، من أجل الكشف عن تلك الجريمة التي أدت إلى انكشاف أمر اللصوص، ثم خروجهم النهائي من كهوف الوادي، قبيل وصول رجال الشرطة !

كانت بهاج، وكانت المدينة تتردد في بسط أذرعها حول الوادي الذاهل أمام مشهد البصمات القوسية الدامية على عنق بهاج التي، عبثاً يحاول سبلو استرجاع صورتها المدفونة تحت أنقاض السنين، وتحت الغبار المتراكم فوق ذاكرته.

- ٨ -

لا صحة لما تردد في الوادي من أن مرضاً غامضاً يمزق أحشاء سبلو الملتصقة بظهره، لا صحة لما روي عن جنونه وعن عزفه المجنون على بزقه العتيق، المعتم، ذي الأوتار التي تستل من روحه ومن ذاكرته ما لا يستطيع الاحتفاظ به، أو الافصاح عنه، بحكم ذكرياته الحزينة، وهواجسه الممتدة، وبحكم استيطان الكحول لدمه المتخثر في أماكن عديدة من أهابه! فليكن ذلك البزق جزءاً آخر، قطعة أخرى من جسم سبلو الذي وهبه تجويفاً في جسمه المتكور عليه، لتكن إذن، تلك الاحتقانات الجلدية التي لم تزد حينما طالبه المحضرون بالتوقيع على قوائمهم، لتكن تلك الاحتقانات تأريخاً خفياً لما لا يستطيع سبلو الافصاح عنه في غمرة الضرورة السمجة لهذه الحياة التي تطالب المرء أبداً بالتذكر، والتنفس بحرية أو بلا حرية، والسير على القدمين، والتبول، وسماع التعليقات من ركاب الحافلات، وإخفاء الأسرار،

والأنكى من كل هذا، الرد على أسئلة أولئك المحضرين الذين: من أين جاؤوني؟.

***

تقاليد الرهبة

- ١ -

في الصباح الثالث لانتشار نبأ التبليغ، فشلت سمار في تطويق ثورة زوجها كياز، فدفعت ثمن فشلها جداول من دمائها.

لقد عرضت على زوجها، ذلك الحل المنبثق من الأرق الذي أصابها بعد ظهور التبليغ، وأفصحت عن الفكرة التي تقلبت في ليلها قبل أن تستوطن رأسها: التسول.

دب الهدير في رأس كياز وصدره حينما ذكرت أمامه فكرتها "ماذا تقولين يا كلبة؟" فدّ فيها، وكياز دائماً يقول "مجنون هو الذي يُري زوجته وجها" فكيف تجرؤ سمار على التمرد على تاريخه الحديدي؟ "من أين جئت بهذه الوقاحة يا كلبة؟" قال لها متتبعاً احتمال انطفاء البريق الذي حل في عينيها السوداوين فجأة، لكنها ردت برباطة جأش أسعفتها في أكمال عبارتها حتى النهاية "الشحاذة ولا انتظار هدم الدار يا كياز، وعرقي لا يريد مساعدتنا، ونحن غجر، والناس لا يؤاخذون الغجر إذا طلبوا منهم الصدقة."

كانت المرأة مصرة على خوض محاولتها حتى النهاية، وشتائم الرجل انصبت على رأسها مثل شلال، في حين بحثت عيناه ويداه عن عصا في فناء الغرفة، وإذ وقعت عيناه على خشبة مدقوقة بالباب، أمسك بطرفها البارز وشدها بقوة، ثم انهال بها على زوجته من دون التنبه إلى المسامير

البارزة في طرف الخشبة "تريدين الخروج من البيت يا عاهرة، تريدين أن تشحذي، تريدين أن.." وأفلتت المرأة كل حبال النجاة الممكنة عبر صياحها الذي تفرقعت أصداؤه في البيوت المجاورة، كل جيران كياز تجمعوا في بيته، ولما أمسكوا به، حاول الافلات من قبضاتهم التي جردته من الخشبة المدماة، فتحولت ثورته إلى لهاث كلبي وشتائم تهز الجدران.

كل الأشياء اهتزت في عينيه، والدماء ثرت من رأس سمار، وكتفها، وفخذها التي مزقتها الخشبة المسمرة فانكشفت، والرجال حاولوا جره من ذراعه الحديدية إلى الخارج فأبى، لكن سلمان أبو بركة استطاع تطويقه وجره إلى بيته، بينما ظلت امرأتان إلى جانب سمار التي تكورت في زاوية الغرفة وهي تئن بصوت مذبوح، ثم ارتخت وانقلبت على ظهرها، فاستقام جسدها، مثل قطعة معدنية تعرضت للنار في مرجل كياز.

- ٢ -

ربما كان من حق كياز أن يرفض فكرة زوجته، على الرغم من حاجته للنقود اللازمة لدفع ثمن الأرض.

ربما كان من حقه أن يواجه طلبها ذاك بالرفض المراهق المشحون حتى، فالخواطر التي انهالت على رأسه حينما تخيل زوجته وهي تدور في الشوارع، أوصلته إلى استنتاجات كفيلة بتحويل دمائه إلى حمم. وفكر بأن لو خرجت لتلقفّها الرجال الهاربون من بؤس التضاريس المملّة لأجساد زوجاتهم، ومن أنينهن المتردد في أسماعهم برتابة النقيق.

صحيح أن سمار كبرت و لم تعد مثار اهتمام الرجال، إلا أن كياز لا يزال يراها امرأة قابلة للغزو. إنها المرأة التي يعرفها منذ الصبا، سمار الغاوية ذات القوام المنحوت.

كانت مشكلة كياز ومبعث غيرته، أن زوجته بقيت في عينيه مثلما كانت في صباها. وأن كل ما فعلته السنون أنها عبثت بخديها فثنتهما قليلاً، وعابثت شفتيها فحزّتهما قليلاً، ونهديها فأرختهما قليلاً، وجلدها فأضمرته قليلاً.

لقد نفذ كياز ضربته الوقائية تلك بقوة وشكيمة، فالرجال "ضلوع مسحوبة من أجساد الذئاب" قال في ذاته المتفجرة، ثم سافر في البقاع البعيدة لخياله المتفتت على سنان الاحتمال الصاعق الذي بث في رأسه، وأمام عينيه المدورتين، صورة زوجته وهي تلتقي رجلاً آخر غير موجود وغير مخلوق على الاطلاق، وإنما هو من نسج الخيال الملتهب لكياز، الخيال الذي عاد ليرسم المشاهد الغريبة أمام عينيه، وتخيل زوجته وهي تدور في شوارع المدينة، وتمدّ يدها إلى المارة، فيمدون أيديهم إلى جيوبهم لإخراج القروش، بينما تلتهم عيونهم صدرها، وعينيها اللتين يعرفهما مثلما يعرف خط الحياة في كف يده الخشنة! وستهتدي سمار إلى أساليب جديدة في التسول، كأن تصعد إلى أحياء المدينة وجبالها الأخرى، حيث لا صوت في الشوارع ولا خلق، وستضطر إلى دخول العمارات المغلقة، وستضغط كبسات أجراس البيانو، ليخرج الرجال لها بملابس نومهم، وستتعثر لا محالة بأحدهم.

وازداد التقرح في خياله والتهب من جديد حتى أنه قفز عن المقعد الفستقي اللون في بيت سلمان وهو يجأر "والله لأقطع رقبتها" وحاول الخروج لكن سلمان أقفل عليه بوابة داره، وأرغمه على الجلوس، ثم

أطفأ بكلماته فرقعات غيرته الحارقة التي لم يستطع كياز حيالها غير الطأطأة، وتغطية العينين والوجه بالكفين، ثم العياط المفاجئ الممطوط.

- ٣ -

سلمان أبو بركة، هو الوحيد القادر على كبح كياز، هو القادر على وضع حد صارم لكياز ولغيره دون النظر إلى الاحترام أو الشفقة أو أي من تلك الاعتبارات المارقة من صفوف قناعاته.

لا يستند سلمان إلى قدراته البدنية أو إلى عضلاته الصلبة في اكتساحه اللامحدود للرجال، لأن "استخدام العضلات يعني بداية الضعف، أو قل بداية الانهيار، أما موطن القوة الحقيقي، فهو موجود في عيون الرجال وأصواتهم!" هذه القاعدة لم يقرأها في الكتب المدرسية، فقد طلق الدراسة بعد منعه من إكمال ورقته في امتحان الأعدادية، وذلك بسبب لجوئه إلى أسلوب النقل عن أوراق التلخيصات التي استلها من جيبه حال تعثر ذاكرته. سلمان يبحث عن عيني محدثه قبل أن يبدأ حديثه معه و "لله در العيون" يقول في ذاته، ويرى كيف أن الرجال يتجمعون في عيونهم مثل حلزونات قوية أو هزيلة أو مختبئة في الظلام.

حينما تلتقي عيناه بعيني محدثه، فإنه يعيش جولته الأولى معه، لذا فإن جفنيه لا يطرفان حتى لو حدث الزلزال، وتصعد أعماقه لتطل بقسوة من حدقتيه الزجاجيتين اللتين لا تتحركان، لأنه "إذا نزلت عين الرجل، فهذا يعني أنه حط للك الطاعة، والطاعة هي بداية انهيار الرجل، لأنك تستطيع بعدها اكتساحه أو ابتزازه" هذا ما غرسه أبو سلمان في نفس ابنه قبل أن يموت.

كان أبو سلمان في حياته حريصاً على غرس تقاليد رهبته في نفس ابنه الأكبر، سلمان، فيصحبه في زياراته ولقاءاته بالآخرين، ويعلمه الكثير من أساليب المنعة والحجة والحيلة، وذات ليلة صامتة، تمكن أبو سلمان من التسلل إلى العقل الآخر لابنه ذاك، حيث قال له في غفلة من انتباهه الذي انصرف لحظتئذ إلى عيني ذلك الأب اللامعتين:

"حينما تلتقي برجل، افتح عينيك وانظر بتصميم في عينيه، إياك أن تحرك عينيك، إياك أن ترمش، ودع صوتك يخرج من حنجرتك زخماً مستقيماً لا ينثني".

"هالة الرجل تظل قائمة ما احتفظ بغموضه، أما إذا سنحت فرصة كشفه، فإن عنقود هالته سينفرط، لأنه سيتفاعل، ويضحك، وهنا تنشأ الألفة، والألفة نقيض الرهبة".

"لا تسمح لجرثومة الألفة بالتسلل إلى نفسك، لأنها مفتاح أسرارك، ومقتل هيبتك.."

لقد انغرست إيحاءات تلك الكلمات في نفس سلمان إلى حد أصيب معه بما يشبه الحمى! وجعل في الأيام التالية يحدّق إلى جمادات بيته مثل ثور متحفز. حدق إلى سريره البني، إلى كراسي الديوان الفستقية اللون، إلى نقوش البلاط، إلى عتبة الباب، إلى بريق المفتاح، إلى صورة جده المعلقة على الجدار، إلى صورة والده وأعمامه، صورته، صورة شقيقه جبر، إلى كل شيء كان يحدق. حتى أدوات المطبخ، فقد حدق إليها، كأنما رأى في سكونها عيوناً تنافسه.

تعلم سلمان الكثير من تقاليد والده في حياته، وأصدر الكثير من التعليمات إلى نفسه التي ملت قوانينه الصارمة. غير أنه لم يلتفت إلى ذلك التململ الداخلي الغامض الذي يدعوه أحياناً، إلى ضرورة أن يرأف الرجل بالرجل، وأن لا يحشره في زوايا الاعتراف الفظيع بالضعف والهزال !

لو توقف عند ذلك التململ الغامض لما استطاع اكتساح المحضرين الذين طالبوه في البداية بطريقة آمرة، بالتوقيع على استلامه للتبليغ.

لكل رجل سياجاته وأسواره، وسياجات سلمان كانت أعلى بكثير من السياجات المهلهلة للمحضرين الذين تحطمت شوكات أنفتهم، أمام الحدقتين القاسيتين اللتين أطلت منهما رهبة سلمان.

ربما وُجدت مسافة بين كل رجلين يحدقان ببعضهما، مسافة تشتبك فيها خطوط السحر والقوة المنبعثة من الأعماق. في تلك المسافة تتكسر ملايين الخطوط الغامضة التي، ربما لم يكتشفها علماء الحواس حتى لحظة نشوب الاشتباك بين عيني سلمان القاسيتين، وبين العيون الناعسة للمحضرين الذين تلطف أخيراً بالتوقيع على أوراقهم.

***

إمرأة واحدة

- ١ -

لم يبق لعرقي من دلائل غجريته سوى لون بشرته الكهباء، وشعر رأسه الأسود اللامع، وبقايا لكنة غجرية تخالط لهجته الجديدة بخجل. أما ملابسه الهادئة الألوان، وجلساته المترفة في صالات الفنادق، وألفاظه الجديدة، وابتساماته المصنوعة، فكلها تؤكد على أنه واحد من موسري المدينة.

إن من يراه وهو يغني في حفلات الفندق ببدلته اللماعة، وكشاكش قميصه الأبيض، وشعره المصفف، لا يستطيع أن يتخيل أنه واحد من الغجر الذين ارتحلوا ذات يوم إلى الوادي.

وعرقي صار يخجل من غجريته. ويتمنى لو يشطب كل تاريخه، وكل أسباب ارتباطه بالغجر. على أن أكثر ما نغص عليه عيشه، أن هاجار تصر على أن تظل زوجته، وأنها بهذا ترفض فكرة الرحيل عن الوادي.

عرقي هو أعرف الناس بعناد زوجته التي لا تنثني إلا في السرير.

كانت تقول له، كلما فاتحها في أمر الرحيل عن الوادي، بأنها لا تستطيع موافقته على ذلك، لأنها ولدت في الوادي، ولأن بصمات طفولتها لم تزل مرسومة على حجارته، ولأن والدها وقبر أمها، وشغلها والناس الذين تعرفهم كلهم في الوادي، فكيف يمكنها مغادرته؟

- ٢ -

" طلقها إذن، طلقها يا عرقي."

هكذا قال نزار أبو خنجر لعرقي ليلة أسر له بشكوكه قائلا " يا نزار، كلام بسرّك" فأجابه مشجعا " السر في بئر يا عرقي"، " زوجتي هاجار.. "، " ما لها يا عرقي؟ "، " صارت.. "، " انطق يا بني آدم، ما لها؟ " فأشاح عرقي بوجهه قائلا بحرج " صارت تخونني "، " صحيح يا عرقي؟ من هو؟ "، " لا أعرف " فقال له نزار مشجعا من جديد "أنت تعرف، قل ولا تخف "، " لا أريد يا نزار، لا تضايقني"، " قلت لك من هو؟ "، " جبر أبو بركة "، ففتح نزار عينيه دهشة " جبر؟ "، " تصور يا نزار؟ جبر "، " والعمل يا عرقي؟ "، " الشور شورك، لكن لا تخبرها بأني قلت لك "، " وماذا أفعل لك؟ "، فتحرر عرقي قليلا من حرجه "هاجار تشتغل في محلك، وتحترمك، حاول أن ترجعها لصوابها "، لكن نزار أجابه وهو يكز على أسنانه " والله يا عرقي ما ظل فيها شور ولا قول "، " والعمل؟ " فنظر في عينيه بصرامة " طلقها يا عرقي، طلقها واكسر وراءها كوز فخار."

- ٣ -

كان عرقي متكسراً ومستسلماً، لكن نتائج حساباته أشارت إلى تعذر إمكانات تطليقه زوجته، ذلك أنّ الطلاق سيعني انهيار مجده الذي بناه، وقد يعني نهايته، فهاجر أعند من الصخر "والعمل يا نزار؟" أعاد السؤال فأجابه نزار " قلت لك طلقها يا بني آدم ".

لكن نزار كان يلتهب في قرارته، فخيانتها لزوجها كانت تعنيه بشكل ما، وأحس أنها بفعلتها تلك، إنما تنكرت أيضاً لعلاقته القصيرة بها.

لهاجار عينان غازيتان، لهاجار جسد بض، وخاصرتان شهيتان، وشفتان ناريتان،و " كفانا الله شر هاجار ".

عجائز الغجر يطلقن هذه العبارة كلما شاهدنها، لكن نزار يتفاءل كلما رآها، ألم تجلب له السعد في محله؟ ألم تسهم في إنجاح تجارته؟ أليست هي التي انتقتها زوجته من بين كل الغجريات للعمل في محله؟ لكن، هل أدركت هادية، زوجته، بأن نزار قد يسطو على ما ائتُمن عليه؟ أم أن معرفتها بزوجها أوصلتها إلى قناعة بنضوبه؟.

لقد التقط من تفاصيل وجود هاجار في النوفوتيه، الكثير من مبررات هجمته الرجولية الكاسحة. كان يرقبها، يرقب ساقيها، وما تجود به تنورتها التي ترتفع قليلاً عن مأبضيها كلما انحنت. كان يقترب منها أثناء عملها، يعّلمها أساليب ترتيب الملابس، يطويها أو يفردها أمامها، يساعدها فيلمس أصابعها، أما هي فتتجاهل تسرباته العنيدة إليها، تتظاهر الفهم الطيب لنواياه الخبيثة، بل كثيراً ما أسعفتها لباقتها على تذكيره بالفارق السني الكبير بينهما، ذكرته أيضاً بأنها امرأة متزوجة، لكنها في الوقت ذاته، استشعرت تسربه البطيء إليها.

كانت أصداء دغدغاته تنداح في بدنها، فتؤكد لها ما لم ترغب بالاعتراف به أو مناقشته، إنه التواطؤ، إنها بداية القبول. وعرقي حينئذ كان في بدايات حياته الجديدة، وكان غارقاً حتى أذنيه في تفاصيل صعوده إلى سلم المجد، أما هاجار، فخرجت من دائرة اهتمامه إلى حد أنه لم يعد يراها إلا في لحظات الظهيرة حينما تعود إلى بيتها من أجل تناول طعام الغداء.

كان يعود من سهراته قبيل آذان الفجر، يعود مهدوداً، يرتمي قربها فتصحو، تزحف إليه، تهزه، تلتصق به، فتفاجأ بخمود جسمه، وانتظام أنفاسه.

منذ أن تزوج عرقي، بالتحديد، منذ أن باشر عمله في الفندق وهو يشتري لزوجته أقراص منع الحمل الصغيرة " لا أريد أطفالاً يا هاجار قبل عشرة أعوام" كان يقول لها فترد " لماذا يا عرقي؟ " فيلقمها إجابته الجاهزة "الأطفال مقتل الشباب " ويوم انقطعت دورة أنوثتها شهراً كاملاً ارتجفت أعماقه، وحاول اصطحابها إلى الطبيب كي يمحو آثار الطفولة من أحشائها، فأبت، فاشتبكا مرة، مرتين، ثلاثاً... وحينما طالت اشتباكاتهما، آثر جنين هاجار التنازل عن هذه الحياة، فتحول إلى دماء تسربت من رحم أمه.

- ٤ -

تمكن نزار أبو خنجر من الظفر بهاجار، بعد جولة تمثيلية تعثر خلالها في رسم سياقات موفقة لشوطه معها.

كان يقول لها " يا هاجار تعالي ننبسط " فلا ترد المرأة! ونزار لا يحفل بزوجها عرقي أو بوالدها سبلو، لا وجود لأمثالهما في عالم نزار المسلط كالسهم نحو ما يريد " يا هاجار اقتربي ولا تخافي "ولا ترد المرأة! " خذي ما تريدين لكن تعالي" وحينما تمنعت، قرر البحث عن طريقة أخرى لترويضها، طريقة مفرغة من العبارات والتوسلات، اقترب منها وهي ترتب الملابس في أحد دواليب النوفوتيه، شدها من يدها غير عابئ باحتمالات مداهمة أحد الزبائن لمحله " أي تعالي" قال

لها، وأدخلها غرفة تجريب الملابس، وهناك، قبض على جسدها من دون مقدمات.

- ٥ -

لم يستطع نزار أبو خنجر إتمام شوطه مع هاجار، وتأكد له بعد غزوته الخامسة لجسدها أن الاستمرار مستحيل، فقرار الاستمرار مرهون بقدرته الجنسية التي عجزت في المرة الخامسة والأخيرة، عن إفراز لقاحات الحياة، على الرغم من مرور ساعتين كاملتين من اللهاث الخلب.

" طلقها يا عرقي واكسر وراءها كوز فخار " قال لعرقي المتهدم، ولعن النساء واليوم الذي جاء بهن إلى هذه الدنيا، ثم استرجع تفاصيل جسدها، وعض شفته السفلى متذكراً فضيحة إخفاقه أمام تلك المرأة الملتهبة، تذكر نظراتها المزدرية له، تذكر أيضاً زوجته الوفية هادية، ثقتها به، وغبنه لها، فقد كان يوصلها إلى بيت والدها كي تنام هناك، في حين يتفق وهاجار على الالتقاء الليلي في بيته أثناء غياب زوجته " ألا تشتاقين لوالديك يا هادية؟ ألا تشتاقين لأخوتك وأخواتك؟" كان يقول لها، ويحمّلها هداياه من الملابس التي تليق بأمها وبإخوتها وأخواتها، ثم يوصلها بسيارته إلى بيت والدها، لكي يستفرد بهاجار، وينضح ما لا يمكنه نضحه أثناء مواقعاته غير الممتعة لزوجته.

هاجار مختلفة عن هادية، هاجار تستطيع الوصول بأصابعها إلى كل الأماكن في الجسم والدماغ. لكن نزار استنفد كل ما لديه من طاقة وقدرة في لقائه الخامس بها، وتذرع بضرورة التوقف عن تلك " اللعبة

الخطرة "كما وصفها، لأن "عيون الجيران مفتوحة " ولأن " الجيران صاروا يتهامسون ويسألون عن زوجتي هادية."

- ٦ -

لقد أنكر عرقي على هاجار إصرارها على أن تظل زوجته، لاسيما أنه عارف بحقيقة علاقتها التي تجددت مع جبر أبو بركة، واستطاع بما تجمع لديه من معلومات عن النساء، أن يكتشف التغيرات الطارئة على جسد زوجته، كاعتنائها المفرط برموشها السوداء، وحاجبيها الأسودين الدقيقين، وخديها المتوردين. غير أنه لم يرغب بمفاتحتها في أمر تلك التغيرات، وآثر تجاهل اهتمامها المفاجئ الصارخ بمظهرها، تجاهل أيضا هجومها المباغت على الحياة! لكنه لم يستطع تجاهل وجود جبر أبو بركة في كل بقعة من جسد زوجته " والعمل؟" قال مخاطباً ذاته العاجزة عن إيجاد مخرج لمعضلة اكتشافه حقيقة الحياة من حوله "سأقتلها" نطقها لا لعزمه على تنفيذ هذا القرار الطائش، إنما لرغبته في وقف شلال إحساسه الفظيع بالخذلان.

عرقي يعرف نفسه جيداً، ويعرف أن القتل غير وارد في قاموس إمكاناته، ومفاتحة والده أو والدته في الأمر أيضاً غير واردة لسببين، أولهما، أنه لن يستطيع التخمين بما سيفعله والده كياز به أو بها في حالة كهذه، وثانيهما، أنّ علاقته بأهله ساءت وبلغت حد القطيعة بعد ثلاثة أشهر من زواجه. كما أن التضحية باسمه وعمله أيضاً غير واردة، على الأقل لسبب كهذا، لذا فالطلاق أيضاً غير وارد "والعمل؟" أعاد السؤال على نفسه محاولاً الرجوع إلى نقطة ابتداء بحثه عن الحلول.

- ٧ -

" هاجار ليست مجرد أنثى، إنها امرأة، وشتان ما بين الحالتين " هذا ما قاله جبر أبو بركة لنفسه المزهوة بنصر اقتداره على امتلاك جسدها المشرئب. قالها محاولاً الالتفاف على ضميره الذي استيقظ على حين غرة، وبعد واحدة من أكثر مواقعاته لهاجار اشتعالاً. قال أيضاً " لكل شيء في الحياة ثمن " ثم تنهد وانقلب على فراشه الصوفي.

لكن الفكرة التي أضاءت ذهنه تلك الليلة، خففت من إلحاح ضميره المزعج، فقد تذكر أن عرقي زوج هاجار، بعمله في الفندق وباقترابه من عالم المدينة المترف، قد انسلخ عن قومه، وتعالى عليهم، إذن فعرقي " لا يستاهل هاجار " قال في نفسه، ثم تنهد.

منذ أن تسلم جبر عمله في " شركة الوسط للتأمين " وهو يحاول توليف الكثير من الأمور التي تأبى على الالتقاء، وكثيراً ما بحث في يوميات كفاءاته العادية عن سبب لترقياته السريعة، كثيراً ما قرأ في عيون زملائه نظرات الحسد، وربما الحقد، لكن هذا لم يثنه عن التقرب إليهم، وإبداء رغبته في مساعدتهم ونقل وجهات نظرهم إلى مديره الذي كان يستمع إليه.

- ٨ -

" لكل شيء ثمن "هذه واحدة من المسلمات الجديدة التي توصل إليها جبر بعد مواجهته تفاصيل حياته العملية، وحتى عندما تمكن من إيجاد عمل لعرقي في الفندق، فقد أدرك بأن قدرته على إيجاد ذلك العمل، إنما هي تأكيد لتلك المسلمة التي استطاع فهمها وتمثلها، ففي أحد الصباحات لمح بوجل، جسد هاجار المتدثر بقميص نومها

الشفاف، لمحها وهي تنشر الملابس على حبل الغسيل في باحة دارها، فأصيب برجفة هزت رجولته، وأعادت إلى ذاكرته تفاصيل علاقته الصامتة العتيقة بها، وفكر في أمر ذلك الجسد الذي لم يعد صامتاً إنما صارخاً متحدياً.

يعترف جبر أبو بركة كلما جالس نفسه، بأنه حار في أمر ذلك الجسد، وبحث بشيطانية عن طريقة تمكنه من غزوه، وتوصل بعد تفكر وتفكير، إلى ضرورة إبعاد عرقي من طريقه، لذا سعى لدى صديقه (سعد راضي) من أجل إيجاد عمل لذلك الرجل المزعج، عرقي. لكن، ماذا لو عرف جبر بأن نزار سبقه إلى جسد هاجار؟ ماذا لو عرف بأن نزار جنى في غفلة منه، وعلى مدار خمسة من أيام انتظاره، بعضاً من ثمار خطته لإبعاد عرقي؟ ماذا لو عرفت هاجار، أن جبر ببحثِهِ عن فرصة عمل عرقي، إنما كان يبحث عنها هي؟ أكانت ستهب نفسها، والحالة هذه، إلى نزار أبو خنجر؟

ما زاد إيمان جبر بأن لكل شيء ثمناً في هذه الحياة، أَنَّ عمل عرقي في الفندق، تم على حساب الفرقة التي اعتادت تقديم عروضها في صالات الفندق. فقد اضطر (سعد راضي) بدافع من رغبته في تلبية طلب صديقه إلى إقناع مدير الفندق، بضرورة أن يكون للفندق فرقة فنية خاصة به ملتزمة ببرامجه، لا فرقة "طيارة" لا هم لها سوى الكسب. يدرك جبر عمق موقعه في قلب صديقه سعد راضي، فالمحبة بينهما متبادلة منذ أيام دراستهما في الجامعة، كانا يشكلان ثنائياً متفقاً في كل شيء، وكثيراً ما تزاورا، كثيراً ما خاضا معاً صراعاتهما الطلابية، وكثيراً ما تناقشا في أمور السياسة والفلسفة والكبت الاجتماعي وسباق التسلح، كانا يحملان وجهة نظر واحدة متحدة، وحتى نقاشاتهما مع

بعضهما، لم تحمل مفهوم الحوار بقدر ما حملت مفهوم التثنية وتعزيز الرأي.

وكثيراً ما اختلف جبر مع والده الذي يؤنبه على تأخره الليلي، وكانت أمه أبداً، تنبري للدفاع عنه، تتجرع الكثير من الشتائم التي يكيلها أبو سلمان لها بسبب دفاعها عنه، أما سلمان فقد شكل ووالده حلفاً واحداً، أمام جبر، وربما أمام أم سلمان أيضاً.

لو عرف أبو سلمان قبل موته بنوايا ابنه في مساعدته لعرقي، لقلب الدنيا على رأسه، لو تشمم سلمان رائحة تجدد علاقة جبر بهاجار، لأمسك بخيوط فرصته، ولقدم لوالده قبل موته،برهاناً جديداً، ودليلاً ناصعاً على صدق رأيه في شقيقه.

لكن ما نغص على جبر هدوء عيشه، أن سلمان أقحم نفسه في كل شؤونه بعد وفاة والده، كان يريد توسيع نطاق سيطرته في بيته " ألم تنته من الجامعة؟ إذن لماذا لا تساعدني في العمل؟ " كان يقول له، وتزداد تحرشاته، فيعنفه بسبب تأخره الليلي " أين تذهب؟ لماذا تتأخر؟ ليلة أمس عدت بعد انتصاف الليل؟ أهذا منطقي؟ أحرام لو أنك تساعدني في المعرض؟ حرام لو تشتغل معي بدل الناس؟" وإذ يخرج جبر عن صمته يصيح به " أنا حر يا أخي، ثم أنني أنا الذي أنظم لك دفاتر المعرض والمقهى" فيتبرم سلمان " تنظم الدفاتر؟ ثلاث ساعات في الأسبوع، أربعاً؟ خمساً؟ أتسمي هذه مساعدة؟ " ويضيق جبر " وهل درست في الجامعة لأشتغل معك في المقهى؟"، " لو أنك آدمي لوقفت معي، لكن الكلام مع أشكالك لا يفيد" وهنا ينفجر جبر " قلت لك ألف مرة لا تتدخل في حياتي".

حينما يحتد الجدل بين الشقيقين تتدخل أم سلمان التي انكمش جسمها، وتخدد لحمها، واضمحلّ صوتها. تجابه احتدادهما بالدعاء لهما، ترجوهما الرأفة ببعضهما، لكن الجزع كان أبداً يهبط إلى صدرها إذ ترى معاني الشر في عيونهما، كانت تخاف أن يأتي اليوم الذي يقتتلان فيه، غير أن خروج جبر عن صمته، ورفضه تدخلات شقيقه، أديا إلى تسييج وجوده في بيته، وإلى الحد من تقدم سلمان الذي أراد بسط نفوذه على كل ما في ذلك البيت، بما في ذلك، جبر.

- ٩ -

حينما دخل جبر بيت عرقي من أجل مساعدته في إعداد نفسه لعرضه الاختباري في الفندق، شاهد هاجار وهي تقف وراء زوجها أثناء ارتدائه ربطة عنقه الخمرية اللون. تلك كانت المرة الأولى التي يشاهد خلالها هاجار الزوجة عن قرب، غير أن رؤيته الفاحصة لها، أثارت في نفسه صدى ما كان له أن يهز قلبه، لو لم ينهمر شلال علاقته العتيقة الصامته بها.

عشق جبر اختلف عن شهوة نزار العاجزة المدفونة في منبتها، فقد أعاد إلى عيني هاجار بريقهما، وإلى خديها توردهما، وأعاد حرث الأثلام المتيبسة في جسدها فكعبت من جديد، وتنفست مثلما الأرض بعد طول جفاف "ادخل يا جبر ادخل" قالت له ليلة تجرأ على طرق بابها في هدأة انتصاف الليل.

لقد أدرك بأنها أعادت فتح أبوابها له بعد أن باشر عرقي عمله في الفندق، أدرك أيضاً إيماءات نظراتها ومعاني إشاراتها التي عادت تبثها من باحة دارها كلما رأته واقفاً في النافذة " لابد من الرجل" هذه واحدة

من مسلمات هاجار، وعرقي لم يعد سوى بدن متعب وهيكل مفرغ لا تراه إلا في لحظات ما قبل الفجر "ادخل يا جبر، ادخل " قالتها بصوت خفيض شف عن تواطؤ مع جبر الذي انسل بلا تردد داخل بيتها، بينما تفحصت هي مشهد البيوت المطفأة، والطريق الخالية إلا من الجرذان والقطط المسالمة، وهشيش السيارات في الشوارع البعيدة.

كانت الحياة في الوادي، وضعت أوزارها وانسلت في كهوف العيون، وتحت أغطية القطن والقماش الممزق، وكان الليل يمتص من التقاطع الشرقي بقايا صوت سيارة مسرعة، وأصداء سعلة جافة من حنجرة حارس متعب، وعرقي لا يعود من سهراته إلا عند الفجر. يعرف جبر هذا، وتعرفه هاجار التي نظرت إلى الساعة المنبهة على المنضدة البنية، ثم أجرت عملية حسابية ذهنية خرجت منها بنتيجة، أن زوجها لن يعود قبل ثلاث ساعات.

وهاجار أغلقت الباب بالمزلاج..

ما الذي يمكن أن يفعله شاب كجبر، إذ يرى امرأة مثل هاجار، وهي تغلق بابها عليه، ثم تصعّده بنظراتها المحمومة؟

كيف يمسك بالمقدمات وهو يواجه غمار امرأة بغلالة نوم شفافة لا تستر جسدها، بقدر ما تسهم في استحضار الذكورة والعواء من أعماق الأعماق؟

– ١٠ –

تشمم عرقي رائحة رجل آخر في كل جزء من جسد زوجته ليلة اضطر إلى مواقعتها دفعاً لشكوكها في إخلاصه لها، تلك الشكوك التي تيقنت حينما تشممت هي أيضاً، رائحة نساء أخريات في ملابسه

وعلى بدنه المتعب. ولكي تقطع على زوجها طريق التساؤل عن التغيرات الطارئة على جسدها، بادرته بهجوم الإفصاح عن شكوكها به، لكن عرقي في ردوده على تساؤلاتها الفاحصة لم يجرؤ على مفاتحتها في أمر خيانتها له، ذلك أن مجرد الحديث في أمر كهذا، سيحمل في ثنياته إيحاء بالقبول الغامض لفكرة العلاقة الجسدية بين زوجته وبين جبر. " ليته يتزوجها ويخلصني منها" قال في ذاته المستسلمة للتأكيدات المنبعثة من كل بقاع جسدها، التأكيدات التي حاول تكذيبها وتجاهلها حينما شرع بملامسة جسدها في محاولة منه لاختبار تفاعلها معه، غير أنه فوجئ بحرارتها والتهاب أنفاسها، والتصاقها الأنثوي ببدنه المتعب، فقال لها محاولاً إشغالها عن حقائقه الجسدية الجديدة المتمثلة في استنفاد نساء الفنادق لطاقاته الجنسية " أحبك يا هاجار" واعتذر لها عن انشغاله عنها في غمرة الغناء والسهر المتكرر، لكنها واصلت اقتحامها له من أجل سحب اعترافه الجسمي بالضعف والتراجع، وبالالتقاء الليلي بنساء أخريات أذبن جسمه واستنفدن طاقاته "ما لك يا عرقي؟" قالت له فاستعاد نفسه وتجمع باستماتة لينتهي من ورطة اختباره لزوجته، وقرر أن يتجنب الافصاح عن شكوكه، لأنها ستزيد من إحساسه بالهزال وبالاستسلام أمام تلك المرأة الملتهبة !

- ١١ -

عرقي هو الغجري الوحيد الذي اغتبط حال تسلمه نسخته من التبليغ، ولو لم ينتقل المحضرون إلى البيوت الأخرى، لما فرغوا من الإجابة عن الأسئلة التي أمطرهم بها حينما أراد التأكد من جدية التبليغ.

لقد انفتحت بوابات الفرج أمامه لسببين، الأول، أنه وزوجته يقيمان في الطابق الذي يعلو بيت سبلو، لذا فإن عرقي لا يملك بيتاً في الوادي ليخاف عليه، أما السبب الثاني فيتمثل في أمنيته بالخروج من الوادي، والعيش في أحد الأحياء التي تليق به كمطرب وكرئيس لفرقة (السيركلز) الفنية.

كل بوابات الفرج تفتحت أمام عرقي، وحينما زارته أمه سمار بعد قطيعة قال لها، بأن الحياة ابتسمت له ثانية، وسمار تفاعلت حينئذ بما سمعته من ابنها، وتنفست صعداء زوال خوفها من رفضه لطلبها الذي جاءته من أجله، غير أنها سرعان ما تجهمت وتمنت لو أنها لم تلده، فقد تبين لها أن الحياة لم تبتسم له بسبب زيارتها له، إنما بسبب ظهور التبليغ، ومما زادها حنقاً وسخطاً، أنه رفض تقديم قرش واحد لها في محنة التبليغ.

لقد أدى تخلي عرقي عن أهله في محنتهم، إلى تزايد إحساسهم بالخذلان والعزلة، بل أن سمار حاولت بنبشها فكرة التسول، التأثير على ابنها من أجل إرغامه على الوقوف إلى جانب والده في محنته، وإذ بلغه خبر ضرب والده لوالدته بسبب رغبتها في التسوّل قال أمام جمع من الغجر، بأنه سيستأجر لوالديه ولأخواته بيتاً في أحد أحياء المدينة، وعلى نفقته الخاصة، إذا تقرر ترحيلهم عن الوادي. لكن كياز رفض عرض ابنه هذا أمام جمع من الغجر أيضاً، وقال أن من حسنات التبليغ أنه كشف له عن نذالة ابنه.

تقربت هاجار من عرقي كثيراً، وأذابت الكثير من ثلوج علاقتهما، وقالت له "يا عرقي، هذا البيت الذي نسكنه، والبيت الذي تحتنا، سيصيران ملكنا، لأن سيلو إن لم يمت اليوم فسيموت غداً، أيامه معدودة كما تعرف" فرد بضيق " لا تتعبي نفسك يا هاجار، لو طوبوا لي كل هذا الوادي لما دفعت قرشاً واحداً"، " ومن طلب منك أن تدفع؟" قالت له فرد باستغراب "إذن ماذا تريدين؟" سألها فأجابت "أريدك أن تقف مع الناس، لأنك واحد منهم، وسيكون لك بيت مثلهم" فهز رأسه ساخرا " ومن أين لك هذه الأفكار؟" وقبل أن تجيب انفجر في وجهها مفصحاً عن كل ما يجيش في صدره "هذه الأفكار ليست منك، إنها أفكار جبر أبو بركة يا ساقطة، أتظنينني لا أعرف بخيانتك لي؟ أتظنينني غبياً يا خائنة؟ كم مرة ذهبت إلى بيته؟ ردي؟ كم مرة نمت في فراشه؟ كم مرة نام معك هنا، في فراشي هذا؟ ".

كانا يقفان وجهاً لوجه، وكانت في وقفتها أمامه، مطمئنة إلى أنه لن يجرؤ على ضربها. الضرب لم يعد وارداً في حياتها، فقد حاول في بدايات حياته الزوجية أن يضربها، إلا أنها أخذت تصيح وتصرخ حال رفعه يده، وحاول إسكاتها بأن كمّ فمها بكفّه، لكنه لم يفلح، ظلت تصيح حتى لملمت كل جيرانه في بيته، خلصوها منه، فاتجهت من فورها إلى المخفر وشكته للضابط المناوب الذي أرسل برفقتها أحد رجاله من أجل القبض على عرقي واحتجازه لمدة اثنتين وسبعين ساعة في المخفر.

في المرة التالية حاول اتباع الطريقة ذاتها، فلملمت بصياحها كل جيرانه، وإذ عزمت على الذهاب إلى المخفر توسل إليها أمام الرجال

والنساء خشية احتجازه مرة أخرى، ولما صفحت عنه فكر بضرورة تغيير أسلوبه هذا، وتوصل إلى أن خير وسيلة للتعامل مع هاجار إنما هي الاقناع! وبمرور الأيام تحول أسلوب الاقناع الذي اتبعه معها، إلى نوع من الرجاء، ثم التوسل، أما الضرب فلم يعد ممكناً أبدا.

كانت على علم بحدود تأثيرها على زوجها، وكان هو مكشوفاً كالسهل أمامها، لذا صمتت بانتظار انتهائه من نضح شكوكه، ثم انسلت من أمامه بهدوء، وجلست على كرسي في الغرفة الأخرى، فلحقها وهو يعوي ويشتم، وحينما أنكرت أقواله اقترب منها، حدجها بعينيه، ثم فاجأها " لقد رأيته بعيني وهو يخرج من عندك مع الفجر يا ساقطة! " لكن هاجار تمالكت نفسها أمام مفاجأة ذلك الزوج، وقالت له بازدراء هادئ " لكنك لم تفعل شيئاً يا عرقي."

***

اللقاء

- ١ -

أحس نزار حال مشاهدته المحضرين، بوجود جسم غير مستقر يعبث في أعماقه اللزجة، جسم أقرب إلى العلقة الجائعة، وفكر، أيمكن أن يكونوا جادين؟ وحينما علم بضرورة التوقيع على القوائم، وبمدة الإنذار المحدد للدفع أو لإخلاء البيوت، قرر الابتعاد عن المحضرين ريثما يفكر في تبعات التوقيع على التبليغ " اسمعي يا امرأة " قال لزوجته هادية إذ تذكر شقاءه في هذه الحياة " لا أريد أن أراهم" فردّت "وتتركني هنا يا نزار؟ " كان صوتها رفيعاً مثل خيط انسل من كدس خذلان مفاجئ " إلى أين تذهب؟ متى ترجع؟ " سألته بقلق فأجاب "سأغيب ساعتين، ثلاثاً، أغلقي الباب عليك وعلى الأولاد، لا تفتحيه لهم " ثم انسحب من كابوس بيته وسط تجمعات لا مرئية لمحضرين لا يعدون ولا يحصون.

كان يريد الابتعاد، وبالذات، عن أولئك المحضرين، فتسلل من بوابة داره على رؤوس تحسباته من دون الالتفات نحو اليمين أو الشمال، بل إنه عانى من عبء رأسه الثقيل الذي أحسه خاضعاً لضغط تسيره قوة مجهولة لا هم لها سوى إرغامه على إنزال ذلك الرأس إلى أسفل، وتخيل بأن المسافة بين بوابة داره وبين سيارته مزروعة بالمحضرين.

سار بحذر، وعندما سمع انفجار اسمه على لسان أحدهم جمد في مكانه، وقاوم باستماتة ذلك الدافع الخفي الذي حثه على القفز بعيداً عن أفاعي الكلمات وأقلام الحبر في أناملهم.

جمد في مكانه، ثم اقتلع رأسه من طأطأته، استعاد نفسه، ونظر إلى المنادي فلم ير سوى كياز الغجري، ولم يسمع سوى قهقهات تلك العلقة في جوفه المظلم " أهكذا يا نزار؟ تخاف من أطيافهم؟ ماذا لو كانوا حقيقة في طريقك؟ " وقطب جفونه على جمرات كابوسه المفاجئ " لو كانوا رجالاً عاديين مثلي لأرعبتهم، لكن هؤلاء المحضرين من طرف المحكمة ثم أنني لم أقرر التوقيع بعد" قال في ذاته الباحثة عن تبرير يعيد الاعتبار إلى كبريائه المتكسر، ثم اقترب من كياز فسأله عن أولئك المحضرين، فأجابه بأنهم لم ينتهوا من بيوت الزقاق المجاور.

– ٢ –

في الليل، بعد تفكير عميق في الحلول الممكنة لتجنب دفع ثمن الأرض، أضاءت ذهن نزار فكرة عقد صفقة غريبة مع سلمان أبو بركة " لقد آن الأوان للقائي به."

في نهايات حياة أبو سلمان، أحس سلمان بتضاؤل المسافة بينه وبين نزار أبو خنجر، واستطاع التوصل إلى أن طموحات ذلك الرجل كبرت إلى حد التطاول على ما لديه، فنزار نسج العديد من العلاقات مع الفلاجين والغجر، كما أن بيته لا يكاد يخلو من ضيوفه وزائريه، واستأجر ثلاثة مستودعات عند الشارع الشرقي، وغدا واحداً من تجار

الجملة المعروفين لدى الكثيرين من أصحاب محلات النوفوتيه في أحياء المدينة.

استخدم نزار، إضافة إلى هاجار، موظفاً آخر في محل النوفوتيه، وآخر في المستودعات وسائقاً للباص الأبيض الصغير الذي ابتاعه من أجل توزيع بضائعه على زبائنه في أحياء المدينة، وكتب على ذلك الباص باللون الأزرق "محلات نزار لتجارة النوفوتيه" وتحتها عبارة "جملة ومفرق" ثم عبارة "وادي الغجر" ثم رقمي هاتفي النوفوتيه والمستودع، كما أضاف إلى تجارته ما لا حصر له من أصناف الملابس والأقمشة والأحذية والأصواف والخيوط والأزرار والأحزمة، والكثير الكثير مما قد يخطر بالبال.

- ٣ -

تنامى وجود نزار أبو خنجر خلال السنوات الثلاث الأخيرة من حياة أبو سلمان المتعبة، غير أن هذا الأخير، لم يفكر ولو للحظة، بإمكانية تطاول نزار، فهو ليس سوى تاجر مسترزق لا هم له سوى الكسب، فليعش إذن. أما الآن، وبعد ظهور التبليغ، فإن نزار يرسم، يخطط، ويناور.

حينما قرر عقد صفقته مع سلمان، فكر بصعوبة الحوار معه، وبنظرته القاسية المتعالية، لذا ملأ جعبته بالكثير من الأفكار والعبارات التي أعدها قبل أن يتجه إلى بيته من أجل اللقاء به.

كانت بداية لقاء الرجلين أشبه بمواجهة بين ذئبين ضاريين في مساحة مهجورة إلا من عواء الرجولة، وزمهرير الوعيد الخفي المطل من العيون والقسمات. كان صوت سلمان صلباً مستقيماً، أما نظراته

فسلطها نحو نزار بقسوة كشفت حجم المساحة التي يحتلها في تفكيره، وحاول النفاذ إليه من خلال عينيه، حاول اقتحامه بصوته الصلب، ونظراته القاسية وسطوة وجوده العريق في الوادي، غير أن نزار رأى في الابتعاد عن مرمى السهام خير وسيلة لتجنب إصاباتها، لذا آثر تجاهل محاولات سلمان، ومجابهته بالبشاشة تقدمة للانقضاض عليه.

بعد انتهاء جولة السؤال الفاحص عن الصحة والأحوال والعمل، تأكد لنزار أن سلمان مشرف على الانتهاء من محاولته الطائشة لاقتحامه، وأحس بأن دوره قد أهل، فاعتدل في جلسته، ثم قال بخبث " أسمعت يا سلمان بالإشاعة الجديدة؟" فسأله " أي إشاعة؟ "، فاعتدل وحك ذقنه " أهالي الوادي يريدون تسليم الحجج الموقعة من والدك إلى المحكمة".

فهم سلمان على الفور ما يرمي إليه ذلك الرجل ذو الوجه الحرذوني، توصل ببساطة إلى مضمون الورقة التي لوح بها، فهو يريد تذكيره بقدرته على تحريض السكان ضده من أجل تلويث اسم والده واسمه في المحاكم.

تلك كانت الأرضية التي افترشها نزار لصفقته.

كان يدرك بأن في هدم بيوت الوادي تدميراً له وللكثير من أسباب نجاح تجارته، كان يحس بأن الوادي هو مصدر وجوده المتميز في هذه الحياة، وتوصل إلى أن الوقت قد حان للالتقاء بسلمان الذي لابد وأن توصل إلى النتيجة ذاتها، لكن هذا لم يكن السبب الرئيسي الذي دعاه إلى زيارته، فما فكر به كان أبعد بكثير مما ظنه سلمان.

تحاور الرجلان:

-عندي فكرة.

-هات يا نزار.
-أن نقعد أنا وأنت مع صاحب الأرض ونتفق معه.
-على أي أساس؟
-على أساس نستفيد كلنا، أنا وأنت وهو.
- كيف؟
-نخدمه ويخدمنا؟
-أولاً كيف نخدمه؟
- نقنع السكان بدفع ثمن الأرض له.
- وهو كيف يخدمنا؟
-ي دفع لنا ثمن هذا الدور.
- هذا تخريف.
- أنت غلطان، هذه فرصتنا ويجب أن نستغلها.
-لكن كيف؟
-فكر معي.
ثم لف نزار رجلاً على رجل، وأكمل بثقة:
-صاحب الأرض، يريد ثمن الأرض، كلام سليم؟
-لا! لأنه لو كان يريد ثمن الأرض لما طلب خمسة وعشرين ديناراً عن كل متر، وأنت عارف أن هذا السعر باهظ.
-وماذا يريد برأيك؟
-يريد الأرض نفسها.
-انت غلطان، معروف لا يريد الأرض أبداً، إنما ثمنها.
-إذن فسر لي كيف يطلب خمسة وعشرين ديناراً عن كل متر؟
-هذا سعر للتفاوض.

- هذا سعر للتعجيز.

-صدقني، صاحب الأرض لا يريدها، إنما يريد ثمنها، أنا متأكد وسأثبت لك ذلك.

-كيف؟

-إذا رفض السكان الدفع، فمعناه أنهم سيرحلون، وإذا رحلوا عن بيوتهم، فسيتركونها خراباً، سيخربونها، وفي هذه الحالة يضطر معروف إلى هدم كل البيوت، والهدم يكلفه مبالغ كبيرة، ثم أنه لن يجد من يشتري الأرض بسهولة، أو على الأقل قبل مرور سنوات، إضافة إلى أنه سيدفع للحكومة رسوم تنظيم الأرض، وفرزها، وتطويبها، بالإضافة إلى أجور المساحين وتكاليف إزالة الأنقاض، والنتيجة، أن معروف المعروف سيخسر كثيراً إذا لم يدفع السكان له.

عبث سلمان بشاربيه الأسودين، نظر إلى نزار عبر جفنيه اللذين تقاربا، ثم قال مشككاً:

-هذا كلام غير مضمون.

فانقض نزار:

-مضمون مئة بالمئة يا سلمان؟ أتدري ما هي ورقة معروف الرابحة؟ إنها ورقة تمسك السكان ببيوتهم وحاجتهم إليها.

ثم أكمل بثبات:

-اذن، في حالة عدم الدفع فإن معروفً سيخسر مبالغ كبيرة على الرغم من أنه كسب القضية في المحكمة، أما في حالة الدفع، فإنه سيكسب مليون دينار بدون أي خسارة.

-لا، لا، هذه مبالغة.

-احسبها يا أخي! كم عدد الدور في الوادي؟

-حوالي ألف دار.

-حلو. لو افترضنا أن معدل المساحات سبعون متراً لكل دار، كلام سليم؟

-تقريبا.

-لو ضربنا السبعين متراً في خمسة عشر ديناراً، ولا أريد أن أقول خمسة وعشرين حسبما يريد معروف، لطلعنا بنتيجة أن معدل المبلغ المطلوب من كل صاحب دار في الوادي هو ألف وخمسون ديناراً، كلام سليم؟

-سليم.

-لو ضربنا الألف وخمسين ديناراً في عدد الدور الألف، لطلعنا بنتيجة أن معروف سيأخذ من السكان أكثر من مليون دينار.

وساد صمت بين الرجلين مبعثه أن سلمان لم يكن قد فكر في الأمر على هذا النحو، كما لم يخرج بهذه النتائج الجاهزة التي فوجئ بها، لذا صمت من أجل التأكد من صحة تلك النتائج، أما نزار فظل صامتاً منتظرا معرفة الآثار التي ستتركها استنتاجاته في نفس سلمان الذي اطلق من بين شفتيه صفيراً مضمحلاً وقال بدهشة:

-مليون دينار؟ !

-نعم، مليون دينار.

ثم أردف:

-أنا وأنت، نخدمه بأن نقنع السكان بالدفع، وهو يدفع لنا مقابل هذه الخدمة.

ثم أضاف بلهجة من وصل إلى بديهية :

-خدمة مقابل خدمة.

فتنهد سلمان بيأس:

-أنسيت أن معروف حصل على قرار من المحكمة؟ أنسيت أنه لا يحتاج لخدمتنا؟ وأنه قادر على تنفيذ قرار المحكمة بدون مساعدتنا؟

-هذا إذا كان يريد الأرض، أما إذا أراد ثمنها، مثلما قلت لك، فسيحتاج إلينا، أنا متأكد أنه بحاجة إلينا، خصوصاً أنه يعرف مكانتنا في الوادي، ويعرف تأثيرنا على السكان.

-وكيف يعرف؟

-معروف على علم بكل ما يجري في الوادي.

-أنا أشك.

-أنا متأكد، ثم أنه لا يوجد في الدنيا رجل يضحي بمليون دينار.

-ومن قال بأنه سيضحي بمليون دينار.

-المنطق يقول هذا. لأنه إذا لم يدفع لنا، أنا وأنت، فسنخرب عليه خطته، سنقنع السكان بعدم الدفع، خصوصاً أنهم فعلاً لا يريدون الدفع، ولا يملكون المال للدفع.

كان نزار يتحدث بثقة من لا تعوزه البراهين، أما سلمان، فتأرجح بين الاقتناع بصحة استنتاجاته، وبين الرغبة في اقتناص الفرصة التي بدأت معالمها تتضح في ذهنه، غير أنّ فلول إحساسه بعظمته، دعته إلى التريث في إعطاء كلمته على الرغم من تسرب القناعة إلى نفسه، وقال باحثاً عن نهاية لشوطه هذا:

-طيب، وماذا تريد ثمناً لخدماتنا.

-هذا يعتمد على لباقتنا في التفاوض مع معروف.

-على كل حال، أتمنى أن تسير الأمور حسبما تتصور.

ثم تأمله بعينيه:

-أتدري! أنت شيطان حقيقي.

قالها، فتذكر على الفور كلمات والده " الألفة نقيض الرهبة " لكنه هز رأسه، ثم انفجر بنزار، في موجة من الضحك المتواطىء الصاخب.

***

جبر أبو بركة

- ١ -

تردد جبر بين الدخول في معمعة ما يجري، وبين الابتعاد عن كل ما من شأنه خدش صورته في الوادي، فكر فيما يمكن فعله من أجل هؤلاء السكان الذين درج على تسميتهم بالبسطاء، وتخيل ما قد يترتب على وقوفه معهم من خلافات مع شقيقه الذي قدّر بأنه لن يقف إلا مع مصلحته الخاصة.

في القضية خلل ما، لأن صاحب الأرض يملكها فعلاً. قال في نفسه محاولاً العثور على مخرج لتردده، لكن التساؤل الذي خطر له حينئذ، أغلق في وجهه ذلك المخرج "ولكن أين سيذهب السكان؟ كيف سيعيشون إذا تركوا بيوتهم؟".

كان يفكر، يقيس، ويضع الاستنتاجات "من العبث أن يبحثوا عن محام لتولي القضية، لأن قرار المحكمة قطعي غير قابل للاستئناف" ثم يتخيل والده وهو يتقاضى من أولئك السكان أتاوات إقامتهم في الوادي، فيشير بإبهامه إلى صدره "نحن نتحمل جزءاً من المسؤولية."

في الليلة الأولى لظهور التبليغ، ذهب عرقي كعادته لأداء وصلته الغنائية في الفندق، فانتظر جبر همود ضجة السكان وصخبهم، انتظر حتى خلت الطرق من المارة والمتحادثين، وكفت الأصوات عـــن تعكير

صفو ليلته، ثم تسلل إلى بيت هاجار.

قالت له بصوت خفيض "ادخل يا جبر"فولج الباب ثم أغلقه وراءه متلفتاً إلى وجهها الشاحب وملامحها المتعبة، تلك كانت المرة الأولى التي يرى خلالها هاجار بذلك البؤس، فهي التي تتفجر الحياة في محياها، هي التي استمد منها دفقات سعادته المتأخرة "ما لك يا هاجار؟" قال متقرباً منها، مبتعداً عن كبريائه الذي لا يفارقه إلا عند هاجار "أفكر في مصيبتنا" قالت وهي تنظر إلى عينيه باحثة عن دلائل موقفه من التبليغ الذي غدا زاد كل من في الوادي "سنحلها! هل تريدين الدفع؟"فأجابته"كل الغجر اتفقوا على أن لا يدفعوا" سألها "وأنت؟" فأجابت بلا تردد "وأنا مثلهم."

لكنها فوجئت بكلماته التي نطقها بثبات "هذا ما أردت قوله لك، يجب أن لا يستجيب أحد لطلبات صاحب الأرض" وصمت متتبعاً في عينيها آثار عبارته التي أحس بأنها شرارة معركة قادمة "أنا فكرت في المشكلة، ووجدت بأن أفضل الحلول هو أن نثيرها بشكل آخر" وإذ سألته "كيف؟" أجابها " نحوّلها إلى مشكلة عامة، ونخبر الصحف لكي ترسل مندوبيها إلى الوادي" ثم فك واحداً من أزرار قميصه الأزرق متأففاً "الطقس حار" فسمع فحيحها "والهواء ساكن"، "لابد من التأثير على الرأي العام في البلد، لابد من توسيع اهتمام الناس بالمشكلة لأنها تخص عشرة آلاف إنسان قد يصبحون بلا مأوى" فقالت مؤازرة "ونتحدث في الإذاعة" والتمعت عيناها ببريق بث في نفسه إحساساً بأنه مقدم على خوض معركة حقيقية مختلفة عن تلك التي اعتاد خوضها مع الطلبة في الأندية والجمعيات "هنا يستطيع المرء ترجمة أفكاره" قال في نفسه فتعاظم أمامها "هذه فرصتي للخروج من جفاف النظريات إلى

حيث المشاركة الفعلية" وحلق في فضاءات بعيدة عالية فوق بقاع موحلة مزروعة بالأيدي الممتدة المستغيثة، فتعاظم إحساسه بنفسه إلى حد أنه قال لها بصوت خطابي مشحون "اسمعي يا هاجارا يجب أن نكون جميعاً يداً واحدة، وصفاً واحداً" ثم صمت برهة وقال "وجدتها" ولملم صوته، حشره في أعماقه التي رددت "سعد راضي".

"ما هي التي وجدتها؟" قالت له بإلحاح فأجاب" لي صديق سيساعدنا، إنه مدير علاقات الفندق.."ثم هز يده باستخفاف "الذي أوجد العمل لعرقي" سألته "كيف سيساعدنا؟" فأجاب "سعد راضي هو الذي سيوصلني إلى الصحف، وإلى الناس المهمين، لأنه يلتقي هم في الفندق، ويعرفهم، هؤلاء الناس هم القادرون على حل المشكلة."

- ٢ -

لكن أعماق جبر ضجت بتساؤلات لم يستطع تجاهلها على الرغم من محاولاته البائسة لطمسها، إذ كيف يمكنه تكسير الجدران التي تفصله عن سكان الوادي؟ كيف يمكنه الحصول على ثقتهم وهو ابن أبو سلمان؟ هل سيصدقون نواياه؟ من أين سيبدأ معهم؟ تلك كانت التساؤلات التي شرّدت احتمالات النوم في ليلته، فقد كبرت مشكلة الوادي في تفكيره بعد مغادرته بيت هاجار، وتحولت المشكلة إلى قضية تحتاج إلى وقفة مع النفس والأفكار والمبادئ، وتخيل نفسه مقتحماً تجمعات الرجال في الوادي، متحدثاً إليهم، متصدراً اهتمامهم، لكنه تخيل أيضاً فجاجة مثل هذه الخطوة المفاجئة التي لن تهبه ثقة السكان، بل ربما زادت من شكوكهم، المشكلة في الخطوة الأولى، لكن كيف ستكون هذه الخطوة؟.

لم يُبق أسلوباً إلا فكر به، وقبيل الفجر ، توصل إلى أن خير وسيلة للاشتراك في المعمعة، إنما هي بالدخول المدوي إليها، وقرر "غداً سأحضر الصحفيين إلى الوادي".

- ٣ -

كان لحضور مندوبي الصحف أثر عجيب أسكن الطمأنينة في نفوس السكان، فقد جاؤوا إلى الوادي بأوراقهم وأقلامهم وكاميراتهم، يرافقهم جبر أبو بركة الذي التف السكان حوله حال معرفتهم بأنه هو الذي أحضر الصحفيين، وخاطبوه بامتنان مبعثه اعتقادهم بالفائدة العظيمة التي ستتحقق لقضيتهم بنشرها في الصحف، واستمعوا إليه حينما خاطبهم مخترقاً الذهول الذي اعتلى وجوههم "يا إخوان، نريد أن نشرح قضيتنا، نريد أن نفضح معروف المعروف، الصحفيون أمامكم، قولوا لهم ما تشاؤون، لأن ما ستقولونه الآن، سيظهر غداً في الصحف، وسنرى ما الذي يستطيع معروف عمله أمام إصرارنا على عدم الدفع."

وعلا ضجيج الحشد، أفصحوا أمام بعضهم عن استهجانهم لموقف جبر المفاجئ "إذن فهو معنا!" قال أحدهم بغبطة وتفاؤل، وقال آخر "أسمعتم ماذا قال؟ قال نريد، ونفضح، وإصرارنا، يعني كأنه واحد منا" وتدخل ثالث "أنا قلت لكم، جبر نظيف ومختلف عن والده وعن سلمان" وأفصح رابع عن شكوكه التي لم يستطع إخفاءها "لكن صبركم! لا تتعجلوا الأمور، لأن جبر يظل ابن أبو سلمان" وأيده آخر وآخر،.... وتناقضت الأقوال والآراء، وارتاب الكثيرون منهم، لا بسبب استهجانهم لما قاله جبر وحسب، وإنما أيضاً بسبب جرأته في

التقدم نحوهم، ثم أن الأمر الآن مختلف، صحيح أنهم يحترمونه، لكنه الآن يقتحم عالمهم، كما أن الأمر يتعلق بحياتهم ومستقبلهم، لذا فإن الحذر واجب " فمن يدري ما الذي يخفيه في أعماقه؟ ألا يمكن أن تكون له مآرب أخرى؟ كل شيء في الحياة جائز، خصوصاً في هذه الأيام التي فقد الأخ فيها ثقته بأخيه، فكيف بابن أبو سلمان؟ لكن ألا يمكن أن يكون مخلصاً وصادقاً؟ وهل سنسلّمه رقابنا لنخاف عليها؟ لماذا لا ندعه يحاول؟ لماذا نسيء الظن؟ ألم يحضر الصحفيين إلى الوادي؟ أليس هذا دليلاً على صدق نيّته؟"

كل واحد فكر بطريقته، غير أن معظمهم، كانوا ميالين إلى تصديق نوايا جبر، بل أن أحدهم قال قبل أن يقف أمام المصورين " والله أنه أحسن منا، لأننا لو كنا في مكانه لما فعلنا مثله" وقال جبر حين رأى تزايد الحشد حول الصحفيين "ابتعدوا، لو سمحتم، أفسحوا المجال للمصورين، دعوهم يصورون" وكانوا يلتقطون الصور الطولية والعرضية للوادي وللسكان، ويتخذون أثناء ذلك أوضاعاً مضحكة، فينحنون ويلوون أعناقهم وخواصرهم وبطونهم، كل هذا من أجل إبراز تعبيرات الوجوه المستفزة والمستعطفة والقاسية والمهمومة، ومن أجل إظهار نوافذ البيوت والأبواب والجدران والقنوات في الصور المقربة، وكان الصحفيون يكتبون، يكتبون كل شيء، كل كلمة، ويستخدمون لغة ورموزاً عجيبة على الورق، بينما لا يكف السكان عن الالتفاف حولهم، وعن معابثة الأحاسيس الجديدة التي توالدت في نفوسهم بحضور الصحفيين "قريباً ستحل المشكلة" قالوا حينما رأوا ذلك الاهتمام الوثائقي الذي أضفاه ذلك التطور على قضيتهم، بل إن بعضهم سخروا في دخائلهم من مطالب صاحب الأرض الذي "يفكر

بأن الدنيا فوضى" حسبما قالوا أثناء تتبعهم للصحفيين المتأففين من شدة الحر "يا جماعة اختنقنا، ابعدوا عنا قليلاً" قال أحد المصورين، ثم هف الهواء حول وجهه بالأوراق التي بين يديه، وفتح آخر زر قميصه الليلكي، بينما مسح ثالث عرق جبهته الذهبية بمنديل أصفر.

- ٤ -

كان الاحتدام الشديد الذي مس سكان الوادي قد أنساهم أشياء كثيرة، حتى أن أحدهم خلط الكثير من الأمور في اللقاء الذي أجري معه، فشتم صاحب الأرض، هدده، تطرق أيضاً إلى تفاصيل عمله في كنس الشوارع! وطالب بنقله من منطقة عمله إلى الوادي لكي لا يدفع أجور السرفيس! وسرد آخر بعد أن تبسم للكاميرا، البدايات الأولى للوادي وتطور الحياة فيه، ولما وصل إلى مرحلة التبليغ شتم ولعن مبيناً موقفه الرافض للدفع حتى "ولو على قطع رقبتي" ثم تحدث عن عدم كفاية راتبه، تحدث عن الأقدمية في العمل، وعدم الانصاف، والواسطة، وعندما سأله الصحفي عن علاقة كل هذا بقضية الوادي قال، بأن الأمور كلها مرتبطة ببعضها وتؤدي إلى بعضها. ووصف ثالث صاحب الأرض قائلاً بأنه "برجوازي حقير" فتدخل شاب في بدايات عقده الثالث وقال مصححاً "لا، هذا أرستقراطي" وكان من الممكن أن ينشب الخلاف بينهما حول تصنيف صاحب الأرض لولا أن وضع جبر سبابته لصق شفتيه "هشش، لا تبتعدوا عن موضوعنا."

كل الذين تحدثوا إلى الصحفيين حاولوا بث ما يدور في خلدهم، فتحدثوا عن الغنى وعن الفقر بعد أن عرضوا قضيتهم، تحدثوا عن غلاء

الأسعار وعن استغلال التجار لهم، تحدثوا عن كل شيء، كأنما رأوا في أنامل الصحفيين مفاتيح سحرية لهمومهم التي لن تتاح لهم فرصة بثها ثانية عبر الصحف " فلنتحدث بصراحة طالما جاء الصحفيون إلينا" قالوا من دون أن تغيب عن أذهاهم فكرة إزجاء الشكر في نهاية كل لقاء، إلى كل من الصحفيين، والمصورين، وصاحب الجريدة، وكل أولاد الحلال الذين يحبون الخير لسكان الوادي.

لقد اقترب كياز الغجري من بسط القضية أمام الصحفيين بتركيز وتعقل، لولا دخول العديد من الرجال على خطوط لقائه الصحفي "لماذا تريدون أن تتحدثوا كلكم دفعة واحدة؟ لماذا لا تدعون المجال له؟" قال الصحافي للناس بصوته المجهد، وكان الناس يسكتون، يسكتون دقيقة أو دقيقتين ثم يزجّون بأنفسهم في معمعة اللقاء فيسكتهم جبر أو أحد الصحفيين من جديد "من شان الله يا جماعة، واحد واحد."

وقد هدد أحدهم غير مرة بالعودة إلى جريدته إذا لم يصمت أولئك الرجال المحمومون، غير أن هذا لم يغير في الأمر شيئاً، كان إحساسهم بضراوة الاحتمالات، وبضرورة التأكيد على صحة موقفهم، يطغى على كل ما عداه من الأمور، بما في ذلك سخف الانتظام ومثاليته.

– ٥ –

تلك كانت المرة الأولى التي يقدم خلالها جبر على الوقوف مع السكان والاقتراب منهم إلى ذلك الحد، كان بعيداً عنهم على الرغم من عيشه بينهم، وكانت صورهم في ذهنه ليست سوى صورة لأناس بسطاء مغلوبين على أمرهم.

منذ أن شب وتعرف على الحياة، وبذور التعاطف مع أولئك السكان تنمو في نفسه، لكن ذلك النمو كان بطيئاً محصوراً، كان يحس التعاطف وحسب، أما أن يحيل ذلك الاحساس إلى جزء من يومياته ، فهذا ما تطلب تحطيم العديد من الجدران التي اصطدم بها حال إدراكه حقائق الحياة من حوله. لكن السكان احترموا حياده ذاك " ما ذنب جبر فيما يجري؟ جبر إنسان في حاله، ما له دخل في شيء " هكذا تحدثوا عن جبر حال احتدام الجدل بينهم في اليوم الأول من مدة الانذار.

لقد استشعر جبر، بمزيد من الحرج، سعة المسافة التي تفصله عن عالم أولئك السكان على الرغم من عيشه في الوادي، وحينما بدأ حديثه إليهم بعد مغادرة الصحفيين للوادي، دهمه إحساس أقرب إلى ذلك الذي يصفع المرء كلما تدخل فيما لا يعنيه من شؤون الآخرين، وتساءل في ذاته أثناء إطلاقه المتردد لعباراته، عما إذا كان يبحث عن البطولة باقترابه من السكان ومشاركته لهم في مشكلتهم، وإذ قرأ الاستهجان في عيون الكثيرين منهم، قال في نفسه "معهم حق" غير أن هذا لم يثنه عن مواصلة محاولاته لانتزاع ملامح التحفظ التي رافقت نظراتهم إليه ثم إلى بعضهم "يا أستاذ، نحن نحترمك، لكننا بصراحة، استغربنا اهتمامك بنا" قال أحدهم محاولاً التوصل إلى ما قد يعينه على إبعاد هواجس الشك في نفسه "ولماذا لا أهتم؟ ألست واحداً من سكان هذا الوادي؟" رد جبر ممعناً في محاولته، فتراجع الرجل قائلاً بحشمة "صحيح يا أستاذ، لكن، مع عدم المؤاخذة، أنت قادر على دفع ثمن الأرض" فتنهد جبر " لكن غيري لا يستطيع أن يدفع، فهل نتركه بلا مأوى؟" وهنا قال أحد الواقفين بنبرة مغموسة بالشكوى "ومن أين ندفع؟".

في تلك الظهيرة قالوا لجبر الكثير مما لا يمكنهم قوله لشقيقه سلمان، خاطبوه بلهجة خالطتها الشكوى والتوجس والألم، أما هو فوجد فرصته لتكسير الجدران التي أقصته عنهم "يا إخوان، أنا واحد منكم، والكارثة علينا كلنا، ومن جانبي سأبذل كل ما بوسعي لحل هذه المشكلة، لكن يجب أن يكون موقفنا واحداً، يجب أن نرفض الدفع، فالأرض مسكونة منذ عشرات السنين، لماذا لم يتذكر صاحبها بأن له أرضاً إلا الآن؟ ألأن أسعار الأرض ارتفعت؟ هل نتحمل نحن مسؤولية ارتفاع الأسعار؟".

كان في حديثه إليهم، يستخدم لهجة مختلفة عن تلك التي تتدحرج على ألسنتهم، لهجة أقرب إلى الفصحى المشرّكة بالمدنية والبدوّية والفلاحية، وهي اللهجة التي تولدت من اختلاطه بالطلبة وبأصدقائه ومعارفه في أنحاء المدينة، لكن لهجته تلك، كانت مفهومة لهم على الرغم من احتوائها ألفاظاً غير متداولة في أوساطهم، كان يتحدث بينما يتزايد الحشد حوله، حتى أنه وجد نفسه بعد دقائق، وسط عدد من الرجال والشبان والصبية يزيد على المائتين!

- ٦ -

كان السكان حينئذ، مثل قطيع يبحث عن طريق النبع في مفترق صحراوي جاف، وحينما تأكد جبر من تفاعلهم وقبولهم لعباراته التي أعدها في ليلة أرقه بعد مغادرته بيت هاجار، قال بصوت خطابي مشحون "إذا أردنا الحل، فالحل موجود، إنه في إصرارنا على موقفنا وعلى عدم الدفع " فقاطعه أحدهم "لكن يا أستاذ، ماذا نفعل إذا بدأت

الجرافات بهدم بيوتنا؟" فانبرى له كياز الغجري "نتصدى لها" قالها بضم النون في بداية كلمة "نتصدى" فسأله الرجل "وكيف نتصدى لها يا كياز؟" فردّ "مثلما يفعلون في التلفزيون، نضع البراميل والتراب في طريقها.." وأضاف شاب متحمس " ونحرق إطارات الكاوتشوك لنمنعها من دخول الوادي" فابتسم جبر في دخيلته.

كانت كل خلية في جبر، تعمل في تلك اللحظات التي اعتبرها تاريخية وحاسمة في حياته "هذا كلام خطير يا سيد كياز! ويجب أن نستعمل عقولنا، فمثلاً نحن نستطيع نشر القضية في كل مكان، نستطيع أن نخاطب الوجهاء والمسؤولين والشخصيات المهمة.." فقاطعه شاب رفيع طويل يحاول إيجاد حيز لصوته الرفيع المبعثر بين أصوات الرجال الخشنة " ونأتي بالتلفزيون ليصور الوادي.." فأكمل جبر مزهواً بذلك التفاعل الذي أشعل الحشد "سنجعل قضية الوادي قضية الساعة في البلد، لأن المتضررين لا يقل عددهم عن العشرة آلاف نسمة" وهنا تخابث أحدهم محاولاً توريطه في التزام اعتقد بأنه غير قادر على الوفاء به "لكن يا أستاذ، من يقدر على الوصول إلى المسؤولين والوجهاء والشخصيات؟" فأكد جبر "أنا أتكفل بهذه المهمة! وأتكفل بمقابلة كل الذين يستطيعون خدمة قضيتنا" ثم أردف بلهجة من توصل إلى استنتاج خطير "أتعرفون متى تحل المشكلة؟" فعلت الأصوات "متى يا أستاذ، متى؟" فقال بثقة "حينما ننقلها من الوادي إلى الخارج، إلى الرأي العام، لأن هذا ما سيكفل لنا تدخل كل الجهات في القضية" ولقد أحس جبر بموجة من التأثر حينما قال له أحد الرجال "يا أستاذ، المهم هو حل المشكلة، وإن شاء الله يكون الخلاص على يد الله ثم يدك."

في اليوم الثالث من أيام الانذار، جازف معظم سكان الوادي بشراء الصحف، ورأوا صورهم على صفحات الجرائد بأوضاع مختلفة،مقبلين ومدبرين، ومتقبّضين ومبتسمين وفاغري الأفواه، وتعرفوا إلى بيوتهم وأزقتهم ودكاكينهم، وقرأوا أقوالهم وتعليقاتهم، وأحسوا بأن جبر أبو بركة فتح لهم منافذ كثيرة على عالم المدنية والناس، عن طريق نشر تصريحاتهم في الصحف التي أثارت غيظ نزار أبو خنجر حال اطلاعه عليها في تلك الصبيحة ذات الآفاق المشمسة، "تفضل يا سلمان! هذا ما استفدناه من أخيك جبر" قال، ثم وضع الجريدة أمام سلمان المتأرجح على كرسي مكتبه في المعرض "هذا أخوك خرب علينا خطتنا" ثم أشار بإصبعه إلى العناوين الرئيسة المتضمنة مناشدة المسؤولين بالتدخل في قضية الوادي "قرأت كل شيء، وأنا أقول عافاك يا جبر لأنك خدمتنا" قالها بفتور ثم طوى الجريدة " كيف يا سلمان، كيف؟" ثم جلس على الكنبة الجلدية السوداء لصق طاولة المكتب بأعصاب ثائرة، واستمع إلى سلمان " جبر خدمنا لأنه يجب أن يعرف صاحب الأرض، معروف، بأن السكان لا يريدون ولا يستطيعون الدفع، لأن هذا سيرفع من أسعارنا، هذا الكلام سيجبره على أن يقبل عرضنا، ويدفع لنا أكثر، وسترى غداً عندما نجلس معه حسب موعدنا."

كانت نبرته أقرب إلى نبرة معلم منها إلى الشريك، ونزار رفع حاجبه الأيمن، حك رقبته الغليظة معاتباً ذكاءه الذي لم يوصله إلى هذه النتيجة من قبل، لكنه، بعد أن بحث مع سلمان صحة الاستنتاج الذي فاجأه به قال له مداعباً "وتقول لي بأنني أنا الشيطان يا سلمان؟" ثم أردف ممعناً في مداعبته "بدأت أشك في أنك أنت الذي دفعت جبر

للتظاهر بالبطولة" فابتسم مستجيباً لتلك المداعبة، غير أن ابتسامته لم تحدد ما إذا كان وراء ما فعله شقيقه، أم أنها امتداد لما بثته تلك المداعبة في نفسه من أحاسيس التفوق والذكاء، ولولا تذكره المفاجئ للكآبة التي انتابته ونزار حينما علما بحضور الصحفيين إلى الوادي لادّعى- ربما- وقوفه وراء ما فعله جبر! هذا ما قالته ابتسامته التي امحت على حين غرة في ذلك الصباح.

- ٨ -

الصورة التي جذبت أنظار سكان الوادي، والكثيرين من قراء صحف اليوم الثالث، وسكان المدينة اللاهثة، كانت صورة سبلو المكبرة.

لقد احتل سبلو بصورته تلك، جزءاً كبيراً من الصفحة الخامسة لإحدى الصحف التي أفردت لسكان الوادي وقضيتهم صفحتين كاملتين من صفحاتها الست عشرة. كانت صورته أشبه بتلك التي يبرزها محترفو التصوير في معارض الصور الفوتوغرافية، لم يكن مبتسماً، لم يكن عابساً، وكانت أيامه وانتكاساته وأفراحه وأحزانه كلها محتشدة في ملامحه المجهرية، في خطوط وجهه، في شبكات الحزوز المتقاطعة وتجاعيد الرقبة.

قراء الصحيفة توقفوا طويلاً عند صورة سبلو التي نبشت همود الزمان في أذهانهم، فاستلتهم من حاضرهم وربما، من زمانهم، ودعتهم إلى التوقف والتفكر والتذكر، ثم قراءة القصة بكاملها.

لقد أصاب مصور الجريدة حينما ترك الناس المتجمعين حوله واتجه إلى سبلو الذي كان يقف كعادته لصق عمود الكهرباء عند التقاطع الشرقي، لكنه لم يجب على أي من أسئلة الصحفي الذي حاول

استفزازه واستنطاقه، واكتفى بما بثه مشهده الصامت المصلوب من معان عجزت تعليقات الصحفيين وتعبيراقم المدروسة عن إظهارها، وحتى التعليق الذي أثبته المحرر أسفل تلك الصورة المجهرية (خطوط الزمان والمكان) فلم يكن سوى قطرة في بحر المعاني التي بثتها الصورة في عدد اليوم الثالث من مدة الإنذار.

هاجار كانت المرأة الوحيدة التي تجرأت على التحدث إلى الصحفيين، واستخدمت في حديثها ذاك، كلمات جماعية أتقنت اختيارها، كانت تقول " نحن، نريد، لا نوافق، لا نقبل، لن ندفع، ماذا يريدون منا؟" ولقد قالت هاجار بشكل ما، بأن الأوان آن للكف عن مضايقة سكان الوادي، واستغرب الرجال أن يكون لديها كل تلك الجرأة والقدرة على تلخيص الكثير مما أرادوا قوله، وكان جبر ينظر إليها مشجعاً وحافزاً، كان يرى في كلماقا الحارة تلك، نقلاً أميناً صادقاً لما دار بينهما في الليلة التي سبقت حضور الصحفيين إلى الوادي، أما صورقا التي ظهرت في الجريدة، فذيلت بعبارة "هاجار، ابنة المكان والزمان".

– ٩ –

صعق عرقي حال رؤيته صورة زوجته في صحيفة اليوم الثالث "بنت الكلبة" قال مخاطباً صورقا بغيظ، ثم انزوى وراء طاولة في صالة الفندق، وقرأ – كعادته– ببطء سببه أنه لم يكن يقرأ الصحف إلا لرغبته في تقوية قدرته على القراءة والكتابة إذ "لا يجوز أن يكون المرء مطرباً من دون أن يتقن القراءة السريعة". قرأ بدقة كلمات زوجته واحتجاجاقا، قرأ تصريحات السكان الغجر والفلاحين، شاهد صورة هاجار وهي تتحدث إلى مندوب الجريدة، شاهد جبر وهو يقف

بالقرب منها، فهز رأسه بينما انتابه إحساس مبهم بتفرده دون غيره من قراء الصحيفة، بمعرفة كل الأسرار المختبئة وراء تلك الصور. انتابته مشاعر شتى حينما أكمل قراءة لقاء زوجته الذي صاغه الصحفي بما يخدم تحقيقه "أكلّ هذا الكلام من هاجار؟ معقول؟" قال مخاطبا ذاته، ثم انتقل إلى صورة كياز وبقية السكان الذين يعرفهم، وشاهد بحيادية غريبة صورة سبلو التي توسطت الصفحة الخامسة، لكنه وبعد أن طوى الجريدة، تنفس بغبطة مكتومة، ذلك أنه لم يجد له اسماً في مساحات حديث زوجته ووالده، لم يجد أية اشارة إلى حياتها الخاصة أو حياته، وحتى حينما ذكرت اسمها للصحفي، فقد قالت بأنها ابنة سبلو، لم تقل بأنها زوجة عرقي، وكان هذا مبعث تنفسه صعداء غبطته التي خبت على حين غرة "ماذا لو فضحتني في الجريدة؟" وأظلم وجهه، اسودّ، وتسارعت دقات قلبه، أشعل سيجارة، ثم طلب فنجاناً من القهوة التي اعتاد ارتشافها مثلما اعتاد النوم في الفندق مرتين أو ثلاثاً كل أسبوع.

أطرق عرقي مفكراً فيما يمكن لهاجار أن تفعله لو أنها أرادت إيذاءه في لقائها الصحفي ذاك، وأحس بأن رقبته ذاتها بين يدي تلك المرأة، ونظر حوله، فرأى جدران الخشب البني ، والطاولات الصامتة التي تحمل الشراشف البيضاء، والمزهريات الفضية، والأكواب المقلوبة، نظر إلى أسفل فرأى زخارف السجاد، وكعوب الأعمدة المضلعة الملبسة بالخشب، أعاد فتح الجريدة فرأى التفاصيل البائسة للوجوه والطرق والأزقة والنوافذ والجدران المتآكلة، حينئذ أحس بأظافر حادة لأصابع قوية، تنغرز في جسمه، ثم تسلخ جلده عنه دفعة واحدة.

***

الأسماء ذات الوقع الساخن

- ١ -

كانت الأحداث تتسارع في وادي الغجر، ونيران التوجس تلتهم الساعات والأيام.

كان السكان يلتقون تحت أعمدة الكهرباء، أمام الأزقة والبوابات، يتحادثون بأصواتهم المرتفعة، ويتلفتون، ربما دون أن يعوا، إلى كل رجل آت، كل امرأة، كل طفل يركض باتجاههم، وإلى كل سيارة تدخل شارع الوادي، علها تحمل لهم خبراً جديداً.

كانوا يلتفون حول سيارة جبر حال وقوفها، يطبقون عليها كالجراد، يمطون رؤوسهم عبر نافذتها، كلهم يريدون إدخال رؤوسهم من نافذة السيارة قبل أن يغادرها "طمّنا يا أستاذ" يسألونه بلهفة فيجيب "مازلنا نحاول"، "يا أستاذ ما ظل من مدة الانذار غير أيام معدودة"، "النتيجة يا أستاذ؟ ما هي النتيجة؟" فيرد بضيق "قلت لكم، ما زلنا نحاول مع صاحب الأرض".

عبثاً كان يحاول إخفاء انحناءات شوطه مع الناس ومع المسؤولين وأولئك الذين التقاهم من أجل مساعدته في إيجاد حل لقضية الوادي، كان مثل ضابط اتصال بين السكان وبين كل الآخرين، ويخفي الكثير مما لا يستطيع قوله أمام السكان، لن يستطيع التطرق إلى الكلمات

السريعة التي صفعه بها أولئك الذين التقاهم في مراكز أعمالهم وفي بيوتهم، لن يستطيع وصف أساليب انزلاقهم من أمامه، لن يجرؤ على البوح، فقد التقى- بمساعدة صديقه سعد راضي- الكثيرين من أصحاب الأسماء المدوية في سماء المدينة، وجلس وإياهم لأول مرة في حياته، محققاً بذلك أمنيته العتيقة بامتلاك شرف التعرف إليهم، كانوا ينصتون له كل على انفراد، وحسب طريقته الخاصة، ويحرقون لفافات التبغ والدقائق أثناء استماعهم لحكايته "المثيرة" كما وصفها غير واحد منهم.

بعضهم تحدثوا بمزيد من التعاطف والألم، ورفعوا سماعات هواتفهم، وهاتفوا بعبارات مخلصة صاحب الأرض الذي يعرفونه. بعضهم وعدوه بعمل كل ما بوسعهم من أجل سكان الوادي. آخرون تسربوا كالرمل من بين الأصابع. لكن جبر، أحس بوجود نقطة ضعف قاتلة في بنية منطقه، وهي أن والده هو الذي تقاضى من السكان أتاوات إقامتهم في الوادي.

تلك كانت الثغرة التي لم يتمكن من سدها إلا بإخفاء هذه المعلومة عن كل الذين تحدث إليهم في قضية الوادي.

أحدهم، وكان يرتدي بدلة رمادية اللون هادئة، استقبله في بيته باهتمام، أجلسه في الصالة التي انبعثت من إحدى زواياها أنغام "موزارت" وافتتح حديثه متسائلاً عما إذا كان التقاه من قبل "وجهك ليس غريباً عني" ثم اعتذر عن عدم تمكنه من وقف انسياب الموسيقى من المسجلة الضخمة في ركن الصالة، وذلك بسبب العادة المستحكمة في حياته، والتي تقتضي سماع الموسيقى في ذلك الوقت بالذات من

ساعات النهار، كما بين لجبر، بمزيد من المتعة والانسياب، أسباب ولعه بالموسيقى الكلاسيكية التي تهدئ أعصابه، وتركز أفكاره، وقال إن الإنسان في هذا العصر المركب الفتاك بحاجة إلى ما لا يقل عن ست ساعات من الموسيقى الهادئة، لكي يتمكن من الاسترخاء، وإراحة الأعصاب، وإذ أسعفته ذاكرته في تذكر السبب الذي دعا جبر إلى زيارته قال باهتمام مفاجئ "تفضل، ما هي مشكلتك؟" فاعتدل جبر في جلسته بعد أن كان مسترخياً أيضاً، وسرد على مسمعي ذلك الرجل ملابسات قضية الوادي وتفصيلاتها، ولما انتهى، بادره بمجموعة من الأسئلة عن تفاصيل ما جرى، وعن عدد السكان في الوادي، وحياتهم، وعن علاقته بسعد راضي الذي امتدحه كثيراً، وأثنى على قدراته المميزة في نسج العلاقات وتنميتها، ثم نهض من على مقعده قائلاً "أعرف شخصاً له تأثير على معروف المعروف، سأتصل به الآن" ورفع سماعة الهاتف الفضي اللون، أدار القرص مرات، انتظر للحظات انتهت بأن سأل عن شخص بعينه، ثم سأل عبر الهاتف أيضاً عن الوقت الذي سيعود فيه ذلك الشخص إلى بيته، واذ تلقى الجواب، أقفل السماعة قائلاً لجبر " غير موجود الآن" وعاد إلى مقعده متأففاً "على كل حال سأتصل به بعد نصف ساعة" وجلس، وأبدى تأثره الشديد لما يجري في الوادي، وحزنه على أولئك السكان، وعلى الغجر الذين يعرف الكثير عن آلامهم وعن تاريخهم، وعن اللعنة التي حاقت بهم فشردتهم منذ بداية التاريخ، بسبب رفضهم إيواء العذراء في خيامهم أثناء هروبها مع يوسف النجار والطفل يسوع إلى مصر.

ويبدو أن الرجل وجد في حديثه عن الغجر خير وسيلة لتبديد نصف الساعة التي سيعود بعدها إلى مهاتفة صديقه، وبدلاً من إتاحة

الفرصة أمام جبر لشرح المزيد من ملابسات قضية الوادي، سأله بحاجبين مرفوعين "هل صحيح أن الغجر يسيطرون على النيران؟" فرد مستغرباً ذلك السؤال المفاجئ، من ذلك الرجل بالذات "كلا يا سيدي من قال هذا؟" غير أن الرجل بين له اتفاقه معه على تكذيب تلك المقولة التي قال عنها "أطلقها الاوروبيون على الغجر" ثم تحدث عما يشاع هناك عنهم، وتطرق إلى بغض الغجر لفرانشيسكو فرانكو، دكتاتور أسبانيا الذي فرض الرقابة الصارمة عليهم قبل موته " لا رده الله " قال، وتساءل عن أسباب اضطهاد الغجر، مبيناً أنهم فنانون جديرون بالاحترام، وأنهم بلغوا مرحلة من الوعي السياسي أتاحت لهم فرصة دخول البرلمان الأسباني من خلال نائب يمثلهم.

تسلسل الرجل في حديثه عن الغجر إلى أن عاد إلى اهتمامه الأساسي، الموسيقى الكلاسيكية! فتحدث عن الإيحاءت الغجرية الغامضة التي تعكسها "اوبرا كارمن" ل(جورج بيزيه) ثم أدار قرص هاتفه، وإذ تلقى الإجابة من الطرف الآخر قال بعد مقدمات السؤال عن الصحة والأحوال "سأرسل لك شاباً جيداً متحمساً، وهو من طرف سعد راضي، اهتم بقضيته قدر استطاعتك، متى يأتيك؟" وبعد لحظات أقفل السماعة ثم عاد وهو يقول "الليلة، الساعة التاسعة تماماً، اذهب إليه وسيساعدك بالتأكيد" ثم دون عنوانه على بطاقة بيضاء ناوله إياها، فودعه شاكراً وانصرف.

- ٢ -

لقد أحيل إلى أشخاص آخرين أربع مرات من دون أن يتلقى مساعدة أي من أولئك الذين أحيل إليهم، وكان في نهاية كل لقاء

يسمع هذه العبارات "سأتصل بك" أو "سأحاول" أو "اتصل بي غداً". الأربعة استخدموا هذه العبارات كأنما هم على اتفاق.

أحدهم، وكان قصيراً ممتلئاً ذا أصابع قصيرة غليظة، قال لجبر قبل أن يبدأ بسرد حكاية الوادي "اسمع يا عزيزي، الوقت من ذهب، الوقت هو الهر الوحيد الذي فقدنا السيطرة عليه، اعرض قضيتك باختصار، وبشكل علمي وسريع، يعني، واحد، اثنان، ثلاث... على شكل نقاط مركزة، جميل؟"، "جميل" قالها وباشر بسرد الحكاية بسرعة أحس معها بأنه في سباق مميت مع ذلك "الهر الوحيد"، وإذ انتهى، بادره الرجل بسؤال سريع "وما المطلوب مني؟" فقدّم إجابته الجاهزة "المطلوب يا سيدي هو أن نحول القضية إلى قضية عامة، من أجل الضغط على الرأي العام في البلد، لكي لا يستفرد صاحب الأرض بالسكان، ومن أجل إيجاد حل مقبول بحيث لا يموت الذئب ولا تفنى الأغنام.." فسأله بسرعة "مثل؟" ردّ بسرعة أيضا "مثلاً أن لا يزيد سعر الأرض المطلوب عن الدينار أو الدينارين ، مثلاً إذا تعذر هذا، أن تقوم الجهات المختصة ببناء إسكانات لهؤلاء الناس كي يعيشوا فيها بأمان" وفي النهاية قال "الحلول كثيرة يا سيدي، لكنها تحتاج دعمكم وتحرككم" فتثاقل الرجل "على كل حال، سأحاول"، ثم نهض موحيا بانتهاء اللقاء.

- ٣ -

كانوا ينظرون إلى ساعاتهم بين اللحظة والأخرى، وكان الحرج يدهم جبر كلما دخل بيت أحدهم أو مكتبه، بل إنه أحس غير مرة، بأنه في عالم لا يمت بصلة إلى العالم الذي تخيله عن هؤلاء الرجال، غير أنه كان يخاطب نفسه "سينتصرون لأهالي الوادي، هذا ما يقوله

تاريخهم على الأقل " وكان يتعثر في بداية حديثه مع أي منهم، يحس بالتصاغر! لهؤلاء الرجال هيبة لا يجوز انتهاكها! كان شلال تاريخهم يتدفق على رأسه كلما التقى أحدهم، فيحس بالانكماش وبضرورة التقيد بآداب الحديث، وكثيراً ما أومأ برأسه كدمية آلية، موافقاً آراءهم التي لم تقنعه. كانوا يتفحصونه بعيونهم المدربة، بعضهم يلف رجلاً على رجل ويسرح، أو يسعل، ويترك في أحاديثه فراغات كبيرة، بعضهم يوقفه عند نقطة ما من حديثه، يستفسر عن شيء بعينه، ثم يطلب منه أن يكمل، ربما لكي يشعره باستماعه واهتمامه، وربما لسبب آخر.

لكنه في النهاية، امتلك دعامات جديدة من الثقة بالنفس، بحيث أصبح بإمكانه التحدث بطلاقة أمام أي منهم، ودونما أي اهتزاز أو تردد، كما تعرف إلى أساليبهم الخاصة في الاختصار والحديث الملغّز، وأتقن الكثير من الحركات اليدوية المدروسة التي يسخّرونها لتوضيح أفكارهم. أكثر من هذا أنه حفظ بعضاً من مصطلحاتهم الانجليزية التي يلجأون إليها كلما تعسرت ولادة العربية في أذهانهم، ولقد قال أحدهم لجبر بعد أن استمع إلى عرضه لقضيته "أسلوبك مرتب، أفكارك علمية متسلسلة"، وعلى الرغم مما بثته هذه الملاحظة في نفسه من أحاسيس الثقة والنجاح، إلا أنه لم ينس تذكير ذلك الرجل بالسبب الذي دعاه لزيارته "شكراً يا سيدي، لكن ماذا بشأن موضوعنا؟" قال مبدداً الكثير من امتدادات أصداء تلك الملاحظة في نفسه "آه، بخصوص موضوع الوادي! سأتصل بك على كل حال" أجابه الرجل، وبنفاد صبر لم يعهده جبر في ذاته الهادئة التي خرجت في تلك اللحظة عن جبلتها قال "لكن الوقت يا سيدي، الوقت يدركنا"، فانفردت ملامح الرجل الذي قال بنبرة من حضرته حكمة قيمة "آه! قلت لي الوقت! أتدري أيها

الشاب بأن الوقت هو.. " فقاطعه جبر " الهر الوحيد الذي فقدتم السيطرة عليه يا سيدي" حينها رفع حاجبيه قائلاً بإحساس رجل انكشف أمره " هل قابلت..؟"، " نعم قابلته وحدثني عن الهر" وإذ سأله " هل ساعدك؟" أجابه من فوره " حاوَلَ، المهم الآن أنه لم يبق من زمن الوادي سوى بضعة أيام فقط وبعدها سيهدمون البيوت، سيتشرد الآلاف، ستنتهي القضية"، "أي قضية هي التي ستنتهي؟" قال بتحفز، فأوضح جبر "قضية الوادي"، عندها تناول بطاقة صغيرة من جيبه، وكتب على ظهرها "أرجو مساعدة حامله في قضيته قدر الامكان" وناوله البطاقة قائلاً "اذهب إليه، إنه مسؤول مهم، حدثه عن قضيتك وسيساعدك، أنا متأكد من أنه سيساعدك."

***

صفقة

- ١ -

تمكن كل من نزار وسلمان ومعروف من الالتقاء عند نقطة توفيقية أثناء جلستهم الطويلة في بيت معروف.

كان الطرفان مثل لاعبي شطرنج على رقعة خالية إلا من محاولاتهما تحقيق أكبر قدر من الكسب، أما الحجارة، فلم يكن لها وجود على الرغم من تحريكهم لها على مدار تلك الجلسة القياسية.

في ذلك المساء توصل معروف، بعد استدعائه لكل ما وهبته الطبيعة من ذكاء، وكل ما أفرزته تجربة أعوامه الطويلة من خبرات، وكل ما جمعه من معلومات عن الوادي وسكانه، توصل بمرارة إلى أن سلمان ونزار يدركان بدقة أبعاد لعبة التهديد بهدم الوادي.

توصل أيضاً إلى أنهما يدركان حقيقة ما يريده، وبأنه لا يريد الأرض إنما ثمنها، وبأن السعر الذي طلبه ثمناً لكل متر إنما هو سعر تفاوضي قابل للتخفيض، على الأقل بما يتناسب ومنطق الأسعار المتداولة.

لكن ما خلخل تماسك حجته، أن نزار أوحى له، بمعرفته الكاملة بالخسائر التي ستلحق به إذا لم يدفع السكان، وبين له بأن كسبه الحقيقي لقضية الوادي لا يكمن في قرار المحكمة الذي ترك للسكان

خياري الرحيل أو الدفع، وإنما في تسلمه ثمن أرضه الذي سيزيد على المليون دينار.

وعلى الرغم من تجاهله المكشوف لإيحاءات نزار، ومن إبدائه لقدرته على استلال حقه " من عيون السكان " مثلما قال، إلا أنه صرح أخيرا " طيب، وهل تستطيعان إقناع السكان بدفع الثمن الذي أريده؟".

هنا التمعت عيناهما ببريق الظفر، وقال سلمان مؤكداً تأثيره ونزار على كل سكان الوادي "نحن نضمن لك أن تتم الأمور حسبما تريد، إذا قلنا للسكان ادفعوا، فسيدفعون، وإذا قلنا لهم لا تدفعوا، فلن يدفعوا".

وعلى الفور، تذكر معروف الزيارة التي قام بها سلمان برفقة أبيه إلى بيته، وقال محاولاً خلخلة ثقة سلمان بنفسه " أنت واثق من نفسك كثيراً كوالدك رحمة الله عليه" فردّ "عشت يا سيد معروف، لكنني قلت لك الحقيقة"، ثم أردف ممعناً في تأكيده تأثيره " وسترى بنفسك" فابتسم معروف له وقال متنهداً " المهم الآن، ماذا تريدان بالمقابل" فقال سلمان " ما تراه مناسباً، لكن، ولكي لا نختلف في المستقبل لا سمح الله، فإن علينا أن نحدد هذا المناسب" قالها فأحس بأنه وضع إصبعه على النقطة المهمة في صفحة ذلك اللقاء " لكنني لا أدفع لكما إلا بعد أن يدفع السكان لي " فانبرى له نزار مستعيداً نتائج تفكيره بتلك الصفقة "هذه المشكلة محلولة يا سيد معروف، كلما دفع لك واحد من السكان، تعطينا عمولتنا، وهكذا تكون ضمنت حقك، وضمنا عمولتنا."

- ٢ -

في تلك الجلسة حقق كل من الطرفين مزيداً من النقاط لصالحه، إذ على الرغم من موافقة معروف على إعطائهما معاً نسبة ثلاثة بالمائة من المبالغ التي ستدفع له، إلا أنه لم يوافق على تلك النسبة إلا بعد تيقنه من قدرتهما على التأثير على السكان، وقلب وجهات نظرهم، والضغط عليهم، وفي النهاية تحقيق ما يريده هو. أما هما فوجدا بأن تلك النسبة تزيد على الحد الأدنى الذي اتفقا على قبوله فيما بينهما، واعتبرا موافقته على تلك النسبة فوزاً لهما، ومكسباً يزيد على تقديراتهما، غير أن معروف المعروف الذي بدا لهما ليناً في تلك الجلسة، كان أذكى بكثير مما توقّعا، ذلك أنه أرغمهما بالمقابل، على تبني السعر الذي حدده، وهو عشرون ديناراً لكل متر، بعد أن كان مستعداً - في دخيلته - للقبول بأقل من خمسة عشر ديناراً.

- ٣ -

في ذلك اللقاء اتفقوا على كل التفاصيل، تحدثوا في الخطوات، واقترح سلمان ونزار أفكارهما التي ستساعد في الضغط على السكان، كقطع المياه والكهرباء عن الوادي من أجل الإيحاء بجدية النية في هدم البيوت إذ " أليس من حقك أن تفعل هذا طالما أنك تملك قرار الهدم يا سيد معروف؟"، "بالتأكيد " قال ثم أردف "رأسمالها أن أوعز للمحامي بتزويد الجهات المعنية بنسخة من قرار المحكمة". لقد أوجد اتفاق الرجال الثلاثة تآلفاً بينهم، وتحدثوا في كثير من أمور الوادي، وقال معروف لسلمان معاتباً، لكن بشيء من الانفعال "أتدري ما الذي

أغضبني حينما قرأت بالأمس تحقيقات الصحف عن الوادي؟ الذي أغضبني أنني علمت أن لأخيك دوراً في إحضار الصحفيين إلى الوادي، كيف تسمح لأخيك بهذا؟" فرد سلمان بليونة "هذا جهل يا سيد معروف، جهل" فلوى معروف شفته السفلى "على كل حال أنا أعرف من هو الشخص الذي أرسل الصحفيين إلى الوادي، أما أخوك فليس سوى الوسيلة التي استخدمها ذلك الوغد من أجل الاختباء وراءها" وابتلع ريقه، بينما تصعد انفعاله "أنا أعرف كل شيء، لكنني ألومك أنت، لأنك سمحت لأخيك بأن يكون مطية لواحد من هؤلاء الدجالين" ورد سلمان ببراءة رجل خالي الذهن "وما أدراني يا سيد معروف بهذا الكلام، أنا مثل يا غافلاً لك الله".

لم يتمكن معروف في تلك الليلة من كتم غيظه، لاسيما أنه تذكر المكالمات التي تلقاها، والزيارات التي قام بها غير واحد إلى بيته من أجل التوسط في قضية الوادي، وازداد غيظاً فور تذكره الكلمات التي أسمعوه أياها حينما ناشدوه الرأفة بالسكان، ومراعاتهم، منطلقين بذلك، من دالاّت أسمائهم المدوية، ووقع تاريخهم وماضيهم، وقال في تلك الليلة بمزيد من الحقد والغضب "أعرفهم، أولئك الشياطين، مدعي القيم والمبادئ، المصلحين، الغيورين، الذين لا هم لهم سوى الحفر وراء الآخرين"، وبلل سبابته بلعاب لسانه كمن يريد قلب صفحة، بينما ظل نزار وسلمان صامتين مغتبطين بالحميمية التي خصهما بها، ببثه مكنوناته تلك على مسامعهما " سبحان الله! لا يتركون فرصة إلا ويستفيدون منها " وبلل سبابته بذات الطريقة " إنهم أسوأ الخلق، فلو كانوا مكاني، لما تخلوا عن قرش واحد من حقوقهم، ولوجدوا لأنفسهم كل المبررات،

أعرفهم"، وبلل سبابته من جديد "يريدون الظهور بمظهر المدافعين عن الناس؟ ليكن، لكن ليس على حسابي، وعمن يدافعون؟ عن.." وقطع عبارته التي كان سيكملها قائلاً "عن اللصوص الذين سرقوا أرضي؟"، ذلك أنّه تذكر بأن الرجلين الجالسين أمامه، المصغين لكلماته، إنما هما من أولئك السكان على الرغم من كل ما دار بينهم.

- ٤ -

كان معروف، في تلك الليلة، ينتفض غيظاً لسبب آخر، هو ما ورد على لسانه من أقوال تضمنها التحقيق الصحفي الثاني، المنشور في واحدة من صحف اليوم الرابع! فقد هاتفه الصحفيون بإلحاح في صبيحة اليوم الثالث من أجل اللقاء به، وتوجيه الأسئلة إليه حول رأيه ورده على ما تضمنه تحقيق صحف اليوم الثالث "من يظنون أنفسهم حتى ألتقي بهم؟" قال حال إنهائه الفظ للمكالمة السادسة التي تلقاها من أحد الصفحيين اللحوحين "يا سيدي سمعت وجهات نظر سكان الوادي، أريد، إذا تكرمت، أن التقي بك لكي أنقل وجهة نظرك أنت! هل تناسبك الساعة السادسة؟"، "كلا"، "السابعة؟"، "كلا"، " الثامنة، التاسعة، غداً.. متى يناسبك يا سيدي؟"، قال بتكدر " اذهب إلى المحامي وهو سيقول لك كل شيء" فأجابه الصحفي " ذهبت، لكنه رفض التجاوب معي، ثم إنك أنت القادر على وضعنا في الصورة الصحيحة"، " لا وقت عندي"، "أريد فقط ربع ساعة من وقتك الثمين، قد تكون محقاً، وقد يكون السكان مخطئين"، " وهل يحتاج هذا إلى ذكاء؟"، " قد يكون لديك تصور حول الأسعار التي تريدها، نريد عرض هذا في الصحف"، " طلبت خمسة وعشرين ديناراً للمتر

الواحد، وإذا لم يدفعوا فسأطلب ثلاثين"، "السكان قالوا في التحقيق الصحفي بأنهم لا يملكون خبز يومهم.."، "ليتسولوا، ليسرقوا! فقد سرقوا أرضي من قبل" قال بانفعال، فسأله الصحفي من جديد " إذن هنالك أشياء كثيرة يمكنك قولها يا سيدي لو وافقت على لقائي بك"، "ليس لدي ما أضيفه على قرار المحكمة"، " لكن للسكان وجهة نظر أخرى يدافعون عنها، وسيكون من المفيد لك أن تدافع عن نفسك في الصحف إزاء ما قاله السكان.." فصاح به " وهل أنا متهم يا قليل الأدب"، ثم أقفل السماعة بعصبية من ضاق بملابسه.

غير أنه لم يخطر بباله، كما لم يتوقع، بأن ذلك الصحفي اللحوح، بلغ من الفطنة حد تسجيل مكالمته الهاتفية معه على شريط كاسيت، ثم تفريغها مع المقدمات اللازمة، في تحقيقه الصحفي الثاني المنشور في صحيفة اليوم الرابع.

لقد أصيب معروف بنوبة من الغضب الراجف حال قراءته كلماته التي نطق بها عبر سماعة الهاتف، وهاتف بحنق، رئيس تحرير الجريدة التي سمحت لذلك الصحفي بنشر أسرار مكالمته، وتنصل من الكثير مما ورد على لسانه متهماً ذلك الصحفي بالتزوير "هذا الصحفي، حقير" قال لرئيس التحرير عبر الهاتف، فأجابه بهدوء " معك حق يا سيد معروف " فأكمل "وحيوان"، "حيوان أيضاً يا سيد معروف، ولن نبقيه في الجريدة إلا إذا غفرت له"، " أنا لا أغفر لمزور، هذا مزور"، وهدد برفع دعوى قضائية ضد الصحيفة بسبب تزويرها أقواله، وهنا رد رئيس التحرير مدافعاً عن جريدته " لكنك يا سيد معروف، قلت كل ما ورد في التحقيق"، "أبداً! هذا كذب" قال فأكمل رئيس التحرير "ووصفت الصحفي بقلة الأدب، لقد سمعت الشريط المسجل للمكالمة الهاتفية

التي.... " لكنه فوجئ حينما أقفلت السماعة من طرف معروف قبل أن يكمل عبارته تلك.

- ٥ -

في مساء الخامس من الانذار، عاد جبر إلى الوادي فوجده مقلوباً، ورأى سلمان يتحدث إلى جمع كبير من الرجال بصوته الصلب الرنان، بينما لا يكف العرق عن الانحدار من جبهته إلى خديه ورقبته السمراء الثخينة، وكانت شبابيك البيوت تعج برجال آخرين، وبنسوة وصبية يتفرجون جميعاً على ذلك الجمع من السكان الملتمين أمام بيت سلمان "اسمعوا يا جماعة، القرار قطعي، لا تحاولوا تجاهل الخطر، دبروا أموركم قبل فوات الأوان" قال ثم أشار إلى نزار الذي كان واقفاً إلى جانبه "أنا ما قصرت معكم، الليلة الماضية، رحت أنا ونزار إلى بيت معروف المعروف، وحاولنا معه، يعلم الله كم حاولنا معه، وقلنا له أن أهل الوادي مساكين، وما معهم ثمن طعامهم، قلنا له كل شيء، وطلبنا منه تمديد فترة الانذار، اسألوا نزار، أنا في حياتي ما رأيت إنساناً أعند من هذا المخلوق! والله إنّ الصخر ألين منه! كلمته كلمة، لا يتزحزح ولا يتلحلح، الله وكيل، وقال لنا بأن محاميه حصل على إذن بقطع الماء عن البيوت، وقال أنه سيقطع الماء قبل الظهر، وقلت لكم هذا الكلام صباح اليوم، وبالفعل قطع الماء قبل الظهر مثلما قال، عنيد يا ناس، عنيد! ولعلمكم.." وصمت لحظة ليستجمع انتباه الرجال من جديد "لعلمكم، بعد يوم أو يومين سيقطع الكهرباء عن الوادي، بالعربي الفصيح الرجل يريد أرضه، ومعه قرار رسمي من المحكمة" ثم صفق غمض يده اليمنى بكفه اليسرى في حركة أشبه بختم ورقة "قرار مختوم

من المحكمة، يعني القضية ما فيها مسخرة.." وعلت الهمهمات بين الواقفين، تقولوا فيما بينهم حول ما قاله عن نية صاحب الأرض بقطع الكهرباء عن الوادي، وازداد إحساسهم بالخطر، لكن شيئاً ما، كان يدعوهم إلى العناد والتمسك بموقفهم! ذلك العناد الذي لم يكن بسبب عدم اقتدارهم على الدفع فحسب، إنما لسبب آخر مبهم كان يدعوهم إلى عدم تصديق ما يشاع من أن بيوتهم ستهدم إذا لم يدفعوا.

كانوا يحسون بأن هنالك الكثير من الروادع التي ستحول دون تنفيذ ذلك التهديد، روادع لم يتمكنوا من تحديدها أو الإمساك بها، إنما أحسوها " يا إخوان" قال نزار مبتدئاً حديثه إلى ذلك الجمع، مكملاً ما بدأه سلمان، وربما مستدركاً ما نسيه، فتوجهت الأنظار إلى وجهه الحرذوني وسنه الرمادية الشاغية "يا إخوان، فكروا بعقولكم! اتركوا كلام الجرائد، لأنه... كلام جرائد! كلام الجرائد يا إخوان لا يطعمنا الخبز! القرار واضح، ادفعوا أو ارحلوا، وأظن بأن الأخ سلمان كفى ووفى، وحكى لكم عن معروف وعن عناده، وبالمناسبة، أحب أن أبشركم بأننا، وبعدما نشف ريقنا ودمنا، اتفقنا مع معروف على تخفيض السعر الذي طلبه.."، وهنا توقدت العيون، انتصبت الآذان " تكلم يا نزار، تكلم، احك لنا، كم يريد؟"، حك ذقنه "يا إخوان، الأرض غالية هذه الأيام، ومع ذلك قدرنا على تخفيض السعر! سلمان من جهة، وأنا من جهة، وبالموت قدرنا على تليين معروف، ووافق لنا على تخفيض السعر إلى عشرين ديناراً لكل متر" واذ تعالت الأصوات رفضاً لذلك السعر، قال بصوته الجهوري "يا إخوان، يا إخوان" وصمتوا "الانسان يعمل بأصله، وهذا سلمان - أشار إليه بيده- إنسان أصيل، والله أنه دافع عنكم بالباع والذراع، وأنا في حياتي ما رأيت

إنساناً مخلصاً لأهل حيه مثل سلمان" وطأطأ سلمان رأسه متظاهراً الخجل، وزحزح حذاءه بحركة عفوية، ثم شبك يديه خلف ظهره "هذا آخر ما قدرنا عليه، ومثلما قلت لكم، فكروا بعقولكم، ودبروا أحوالكم، وما ظل من مدة الإنذار غير عشرة أيام، والأيام مثل لمح البصر"، "لكن هذا السعر غالي يا عمي" قال أحدهم فتصدى له سلمان "يا عمي تفضل، فاوض معروف، وخفض السعر، أنا زعلان؟ أي أنا لو كان بيدي، ما دفعت ولا قرش"، "طيب، والذي لا يقدر على الدفع؟" قال أحدهم فأجابه بسرعة "يستدين من أولاد الحلال، الدنيا فيها الخير"، "والله ما ظل في الدنيا جنس الخير" قال الرجل بتبرم، فتغيرت نبرة صوت سلمان "اسمعوا يا إخوان، أنا قلت لكم وكل واحد يبحث عن خلاصه، وأنا مني وعلي سأدفع عشرين ديناراً عن كل متر وأرتاح، لأنني أعرف منكم بنية معروف" فقال نزار منفذاً اتفاقهما المسبق "وأنا سأدفع" وانتظر كلمة أنا من شفتي أي من الواقفين، لكن صوت كياز الذي ارتفع من بينهم، قطع عليه توقعاته "والله لو هدموا البيت فوق رأسي ورأس عيالي ما دفعت ولا رحلت" وأدار وجهه "من أين أدفع؟" ويبدو أن كلمات كياز أسهمت في تخفيف ما فعلته خطبتا الرجلين في نفوس الواقفين الذين تضاحكوا وتلفتوا باحثين في وجوه بعضهم عن آثار ما استمعوا إليه، ثم تنبهوا إلى وقوف جبر خلفهم، تلفتوا إليه باستغاثة، اقترب أحدهم منه، فتبعه آخر وآخر حتى التموا حوله "أسمعت يا أستاذ كلام سلمان ونزار؟" قال "سمعت"، "والرأي؟"، "أنا قلت لكم رأيي، لا تدفعوا وتمسّكوا بكلمتكم"، "لكن يا أستاذ، اليوم قطعوا عنا الماء، وبعد يوم أو يومين الكهرباء، يعني النية لهدم الواد موجودة" فقال بصوت عال "الهدف من قطع الماء هو الضغط عليكم

لإرغامكم على الدفع، يجب أن تصمدوا " لكن أحدهم قال بيأس "يا أستاذ القضية صارت جد" فأجابه جبر "يا أخي قل لي، هل تملك المبلغ المطلوب؟"، "لا"، "هل تستطيع تدبيره؟"، "لا"، "إذن ما عليك إلا الرفض" فصمت الرجل، صمت الآخرون، كأنما أصابهم يقين لم يستطيعوا حياله سوى الارتداد إلى حقيقة مستورة تعمدوا إخفاءها "يا أخ جبر" قال نزار أبو خنجر مداخلاً "والله لو كان عندي ذرة أمل بمعروف المعروف، لقلت للناس لا تدفعوا، لكن يا عمي انت لا تعرف هذا الانسان، هذا الانسان يحلب النملة، لو رحت معنا لقلت نفس الحكي.."، وقبل أن يعلق جبر تدخل سلمان "اسمع يا جبر،أنا معك، معك على طول الخط، لكن من واجبي تنبيه الناس للصحيح، والصحيح أن معروف لا يريد أن يوصلها للبر، ومثلما تفضل الأخ نزار وسبقني، لو كان عندنا أمل في تليينه لقلنا للناس لا تدفعوا، واصمدوا، لكن الكلام شيء، والفعل شيء آخر، مثلاً، اليوم قطع عنا الماء، فمن يعيدها لبيوت الناس؟ من أين يشربون؟ طيب، بعد يوم أو يومين يقطع الكهرباء عنا، فمن يعيدها؟ بعد حوالي أسبوع تهدم الجرافات بيوتنا، من يوقفها؟ قلت لك، الرجل مصرّ يعني مصرّ"، وتلفتت وجوه الرجال إلى جبر، وتنبه عدد منهم إلى احمرار وجهه وتورد وجنتيه حينما قال "أتدري يا سلمان، موقفك وموقف نزار هما الثغرة الوحيدة في صفوف السكان"، "نحن يا جبر؟" قال سلمان بينما أفلتت عيناه نظراتهما المتوعدة "نعم، أنتما تلعبان دوراً هداما" قال جبر فاغتاظ سلمان، لكنه كتم انفعاله من أجل الإجهاز على ما تبقى من مواقع شقيقه وقال "طيب اقنعني بعدم الدفع، ولك مني عهد بأن لا أدفع" وأيده نزار "يدي في حزامك يا جبر، دلني على طريقة تجنّبي الدفع، وأنا معك، تفضل"

وكتّف ذراعيه، رفع واحداً من حاجبيه بانتظار ما سيقوله جبر الذي استشعر حينئذ وجود كمين له وللسكان، فقال " على الأقل، إذا رفضنا الدفع، فسيضطر معروف للقبول بسعر أقل، على الأقل سيقبل بمبدأ التقسيط، أو.." فقاطعه نزار بنبرة رقيقة مستخفّة "يا أخ جبر، أنت إنسان طيب، وابن حلال، وقصدك الخير، لكن الطيبة وحدها لا تكفي في هذا الزمان، ولو كانت الطيبة تفيد، لكان السكان أسعد الناس، لأنهم طيبون، وما دمت تتحدّث عن التقسيط، فأنا أحب أن أتحدث عن نية معروف المعروف" ونظر إلى سلمان بعينين ظافرتين قبل أن يفجر الفكرة التي حضرته حينئذ "يا إخوان، لكل واحد منكم ملاك على كتفي، والانسان بين حياة وموت، وما دام الأخ جبر يقول لكم لا تدفعوا، فأنا سأبرئ ذمتي، وأبلغكم بالسر الذي عرفته، وأنتم بعدها أحرار" وصمت، فساد الحشد صمت امتد حتى شمل الصبية والنساء في نوافذ البيوت، وامتد حتى إلى سبلو المقرفص الذي ارتطم رأسه حينئذ بقيعانه الوهمية دون أن ينبس بآه واحدة "معروف المعروف لا يريد ثمن الأرض، وإنما يريد الأرض، نعم، الأرض، أتعرفون لماذا؟ لأنه يريد بيعها للحكومة بسعر أعلى، من أجل إنشاء أوتوستراد جديد، ومنتزهات وحدائق في هذا المكان، خذوا مني، أنا عندي معلومات مؤكدة عن هذا الموضوع، لكنني لم أقل لكم هذا الكلام، لأنني لا أريد زيادة همومكم.." ثم نظر إلى سلمان الذي تهلل وجهه لتلك الفكرة حتى كاد ينطق "حقاً أنك شيطان" وأكمل " فيا أخ جبر، إذا أردت مصلحة السكان فعلاً، فعليك أن تنصحهم بالدفع، لكي يفوتوا على معروف فرصة بيع الأرض لغيرهم" وتدخل سلمان "أتصدق وتؤمن بالله يا أخي؟ والله وحياة أولادي إنك يا معروف نطقتها قدامي وقدام المر..م

والدي يوم زرناك قبلما يموت والدي، قلت بأنك لا تريد بيع الأرض" وقال نزار بتهكم "يا عمي أنت في واد والدنيا في واد يا أخي" فرد جبر بحنق "ما قصدك يا أبو خنجر؟ أتريد أن تقول بأنني لا أفهم يا قليل الحياء" لكن نزار تدارك نفسه، وتجنب إسفين جبر، وقال بصوت هادئ مسالم "أنا؟ أنا قليل الحياء؟ على كل حال سامحك الله! أنت مثل أخي الأصغر" فواصل جبر محاولته "لو كان لي أخ مثلك لتبرأت منه"، "سامحك الله" قال نزار بينما انتقلت عيناه المستغيثتان إلى سلمان الذي قال لشقيقه "عيب يا جبر! احترم من هو أكبر منك".

لم يكن جبر راغباً في الاشتباك مع نزار، إنما حاول الايقاع بينه وبين سلمان، وحينما فشلت محاولته، قال بغيظ "المصيبة أن الناس ما زالوا يستمعون إليكما" ثم اتجه إلى بيته بخطى مسرعة.

***

النمل البشري

- ١ -

كانت هاجار مصرة على امتلاك نفسها، غير أن هذا لم يقنع نزار الذي اغتاظ منذ اللحظة الأولى لمعرفته بعلاقتها مع جبر، فإضافة إلى ما أوحته تلك العلاقة من تنكر للقائه الجسدي بها، إضافة إلى رفضها الاقتراب منه، منذ أن تركته ممدداً على سريره جسماً عاجزاً عن إتمام محاولته الخامسة بعد يوم كامل من سابقتها، إضافة إلى هذا وذاك، أحس بأنه مسؤول عن سلوك هاجار كمستخدمة في محله، وبأنها جزء من صلاحياته المتعددة "من قال لك يا نزار؟" سألته فأجاب عابساً "الناس الذين شاهدوا جبر وهو خارج من بيتك في غياب زوجك".

لكن الحقيقة أن أحداً من السكان لم يشعر بوجود تلك العلاقة عدا زوجها ونزار الذي حفظ السر في بئر مصلحته، إذ من غير اللائق أن يتقول الناس في أخلاق مستخدمته! لقد كظم نزار غيظه حينما حسمت أمر تدخله في حياتها، إلا أنه لم يستطع لأم كبريائه المتصدع أمام إصرارها على مواصلة شوطها مع جبر، كان هذا مبعث ضيق خفي لنزار الذي لم يشف من جروح كبريائه المكشوفة على سموم الغيرة، تلك الجروح التي تقرحت وتقرحت حتى ظهيرة اليوم السابع من الانذار، حين سألها عما إذا كانت تريد الدفع لصاحب الأرض أم لا؟ وإذ تلقى صفعة رفضها العنيد حاول امتصاص تلك الصفعة قائلاً بهدوء

جاف " يا هاجار، مثلك مثل السكان، كل السكان سيدفعون، أنا أعرف، لا تصدقي كلامهم، ونحن الفلاحين عندنا مثل يقول: حط راسك بين الروس وقل يا قطاع الروس" فردت باستخفاف " وعندكم مثل يقول: لا يقطع الراس غير الذي ركبه" فابتلع ريقه وصمت، أحس بأنها ستسهم في الإفساد عليه، لاسيما أنه في أثناء جلسته الأخيرة وسلمان، دوّن توقعاته لأولئك الذين سيكونون أول من يدفعون لصاحب الأرض، واعتقد أنه سيتمكن من إقناعها بالدفع، لذا كتب اسمها في قائمته، أما الآن فإنها تستعصي على الاقتناع، بل إنّ نبرات صوتها، وحركات كتفيها، وعينيها، وحتى لون فستانها الأصفرالصاخب، كل ما فيها يوحي بالتحدي الذي لم يعهده خلال سنوات استخدامه لها، وإذ ازدادت تقرحات كبريائه أطرق مفكراً بطردها من العمل في النوفوتيه من أجل إرغامها على الدفع، لكن ذكاءه أسعفه في التوصل إلى أن مثل هذا الاجراء سيكشف نواياه أمام السكان، إضافة إلى أنها ستفسد عليه الكثير من ترتيباته إن هو فعلها، لذا آثر تأجيل طردها، والاكتفاء بالتلميح إلى نواياه تجاهها " طيب، ستندمين يا هاجار" قال لها متنهداً بضراوة، ففكرت بما أخفته عبارته من معان، وبما أضمرته ملامحه الحرذونية من نوايا، حينئذ أدركت بأن الأيام المتبقية لها في عملها، ستكون معدودة..

- ٢ -

في العصرية السابعة من الانذار، عاد جبر من عمله، فوجد الوادي مقلوباً أيضاً.

كانت بقايا المياه نفدت من البيوت، والرجال والنساء والأطفال يلتمون حول ثلاثة من صهاريج الماء خضراء اللون. كانوا يتدافعون بأوعيتهم البلاستيكية وصفائحهم الفارغة حول صنابير الصهاريج، بينما تشتبك أصوات ارتطامات تلك الأوعية بصياحات المتزاحمين تحت شمس آب "يا ناس تعلموا النظام" ويتزاحمون، وتسيل المياه على الأرض هدراً في غمرة التدافع والتزاحم.

كانت أعداد أخرى من الرجال والنساء يتجمعون في حلقات متوترة غاضبة "حتى النساء يا الله؟" قال رجل ملتح ثم ارتد إلى نفسه متمتماً "هذه محنة من الله تعالى" وتوصل بسرعة إلى ضرورة الصمود متخيلاً أيوب وزكريا، متذكراً خواء جيبه وبيته.

كانوا يقولون بأصواقم المخدوشة المسموعة "لا حول ولا قوة إلا بالله" ويبحثون في نسيج السماء المتكاثف عن مخارج وفتحات للفرج والخلاص "افرجها يا رب" ويتقربون إلى الله فيهمسون "أنت أدرى بالحال"، وجبر أطلق آخر سهم في جعبته قبل أن يتلقى في صبيحة اليوم السابع اعتذار آخر رجل في جوقة الأسماء ذات الوقع الساخن "لا فائدة يا عزيزي، حاولت لكن... ".

في ذلك الصباح أحس بأن القضية أكبر منه بكثير، وأنه بتصديه لها إنما قطع على السكان فرص التفكير في حلولهم الخاصة، وإذ عاد إلى الوادي، راعه أن يرى بؤس التشبث بالحياة، عبر التدافع حول صهاريج المياه، وتغير لون وجهه حال اصطدامه بمشهد التجمعات المتوترة للسكان، أوقف سيارته عند بوابة داره، وقبل أن يغادرها، لمح عبر زجاجها الأمامي هاجار بفستانها الأصفر الطويل وشعرها المتهدل فوق كتفيها، كانت تتوسط جمعاً من النسوة، تتحدّث وإياهن مستخدمة

أصابعها ويديها اللتين كانتا تتحركان، ربما من أجل تأكيد أقوالها "هذه المرأة عظيمة" قال في نفسه بينما امتدت أصابعه إلى مفتاح سيارته بآلية، وأطفأت محركها "خسارة أن يتزوجها واحد مثل عرقي"، وإذ غادر سيارته سمع صوتها فانبعث في نفسه زخم جديد أعانه على تملك نفسه والتحدث إلى السكان الذين حاصروه بأسئلتهم واستفساراتهم "ما ظل غير سبعة أيام يا أستاذ، والعمل؟".

لم يستطع جبر إخفاء يأسه وفتور حماسته على الرغم مما بثه مشهد هاجار في نفسه من زخم "صاحب الأرض لم يستجب لكل الوساطات حتى الآن، لكننا ما زلنا نحاول معه"، "لكن الوقت يا أستاذ"، كلهم يتحدثون عن الوقت "ماذا أفعل للوقت؟" حينئذ سمع لأول مرة عبارات اليأس والتذمر التي لم يتمكن السكان من كتمانها مدة أطول "الليلة سيقطعون الكهرباء عنا، سلمان قال لنا،البارحة الماء واليوم الكهرباء، وغداً يهدمون البيوت"، "بصراحة، أنا نويت الدفع"، "آه، لعنة الله عليك! كيف تدفع"، "والله يا عمي، ما ظل فيها كلام، أنا الليلة زارني سلمان ونزار، وفهمت القصة كلها، بالعربي الفصيح، إذا قطعوا الكهرباء، أنا دافع"، "ها، بدأنا ننسحب؟"، "مثلي مثل غيري".

- ٣ -

قبل أن يحل الظلام في الوادي، اشترى بعض السكان شموعاً، وبحث آخرون عن قناديلهم العتيقة المركونة في زوايا بيوتهم، أزالوا عنها غبار السنين، وملأوها بالكاز تحسباً لانقطاع التيار الكهربائي.

كانوا يجربون الأزرار الكهربائية بين لحظة وأخرى من أجل التأكد من بقاء التيار، غير أن تكرار عبثهم بتلك الأزرار تحول إلى نوع من الرغبة في بلوغ مصيبة التعتيم والتبشير بها " يا ولد، جرب اضغط على الزر" وينط أحد الأولاد، يضغط، فيضاء المصباح "صبركم حتى يجيء الليل"، "يمكن يقطعوها في الليل" ويكملون أحاديثهم، لكن شيئاً في نفوسهم، كان يدعوهم إلى توقع سماع خبر انقطاع التيار من أحد الأولاد الذين حصلوا على تصاريح مفتوحة من آبائهم للعبث في الأزرار الكهربائية وتجريبها.

غابت شمس الوادي، وطقطق نزار أصابعه بعد أن جهز (اللوكس) والمصابيح التي تعمل بالبطاريات، سألته هادية عما إذا كانوا فعلاً سيقطعون الكهرباء فأجابها بتنصل "علمي علمك"، ونزار لم يخبر زوجته بشيء مما دار بينه وبين سلمان أو معروف، لأن "الذي يسلم أسراره للنساء، كالذي يخبئ الحبر في الماء" هذه واحدة من مسلماته، لذا كان يتحرك بمنأى عن زوجته التي سألته غير مرة عن موقفه من الإنذار دون أن تتلقى إجابة واحدة شافية.

غابت الشمس، وحذر سلمان زوجته من الخروج من البيت، ثم طلب من والدته النوم مبكراً، وحينما استوضحته أبدى توقعه لانقطاع التيار الكهربائي، لكنه كنزار، لم يفلت واحداً من أسراره أمامها أو أمام زوجته الصامتة، سارة.

زحف المساء إلى الوادي متردداً وحائراً، والتيار الكهربائي لم يقطع، أضيئت الأعمدة على جانبي الطريق، أضيئت البيوت، الباحات،

الشرفات، وبدأ السكان طقوس ليلهم، تناولوا طعام العشاء، رشفوا أكواب الشاي، أداروا مفاتيح تلفازاتهم، جلس بعضهم قبالتها، تزاور آخرون، تلاقوا في البيوت، تحت أعمدة الكهرباء، تحدثوا، قضى الصبية حاجات أهلهم من الدكاكين بتبرم، انطلقوا في الطريق، لعبوا، تصايحوا، نقر أحدهم على تنكة فارغة، تجمع عدد منهم حوله، غنى فغنوا وراءه، انتهرهم أحد الرجال، ابتعدوا قليلاً، ثم عادوا للغناء، علا صوت المؤذن من السماعتين المعدنيتين، توجه بعض الرجال إلى المسجد لأداء صلاة العشاء، غادر عرقي بيته متوجهاً إلى الفندق دون أن يكلم زوجته، ورمت سمار حذاءها بعصبية وراء قطة وجدتها في المطبخ، ارتطم الحذاء بالباب محدثاً طرقة مقطوعة، تسلقت القطة جدار باحة الدار بذعر فخانتها مخالبها، سقطت على الأرض، ركضت وقفزت إلى جدار آخر، ثم إلى بيت سبلو الذي كان يتفقد حماماته البيضاء في برجها، أقعت القطة في زاوية الدار، أغلق سبلو البويب الشبكي على حماماته.. وفجأة أظلم الوادي.

تحول إلى هوة دامسة معزولة، ودب الصراخ في البيوت وأصوات قرقعات الأواني المنزلية والشتائم، تصايح الصغار في الطريق الرئيسي وفي الأزقة والبيوت، واستل المدخنون القداحات وعلب الثقاب من جيوبهم مستشعرين الفائدة العظيمة المتأتية من حملهم لها.

- ٤ -

أظلم الوادي فارتعش بدن سبلو، تحسس علبة الثقاب، أشعل السراج، ثم صعد على غير عادته إلى بيت هاجار فوق بيته، تعثر بالدرجات المؤدية إليه، وإذ وصل، تبين شبحها المتكئ على افريز

الشرفة، كانت تنظر بصمت إلى ظلام الوادي، اقترب منها، تعثر بكرسي خشبي صغير، تماسك بعد أن كاد يسقط، وضع السراج على حافة نافذة الغرفة، ثم وقف بصمت إلى جانب هاجار..

كان الوادي يخفق ظلمة أمام عينيه، ويصمت في أذنيه المنتصبتين على الرغم من هول الضجيج المرافق لانقطاع الكهرباء، والماضي تكوم أمامه، فرأى في بيوت الجبل المقابل صخوراً مظلمة في مساحة متروعة الهواء والضياء، والمنعطف عاد مثقلاً بأشجار السرو المتكاثفة، رأى كهوف الأشفار والقاع الممتد في الظلمة وبيت عثمان أبو بركة العتيق، رأى سلاسل الحجارة حوله، وقطيع أغنامه المسروق، وحزن هاج التي أطلت حينئذ فتبينها بجلاء لم يشهده منذ ليلة ارتحالها الأبدي، رآها وهي تلوح له بيدها حين ودعها متوجهاً إلى حفل الأعالي، سمع صياحها المذبوح فتفجر صياح الوادي في أذنيه، ممزوجاً باستغاثات الرياح في الليالي البعيدة، أحس جسمه متدحرجاً نحو قيعان حلمية لا وجود لها سوى في رأسه، تدحرج ثم ارتطم، تأوه بوهن، فرمت هاجار رأسها على صدره الناحل "يا أبي" قالتها بالغجرية لأول مرة منذ أن شبت، فخرجت من فمها ممزوجة بالتعب والوهن، طوق كتفيها بذراعيه فانسربت دموعها على يده، كثلوج ذابت في دفء صيف مفاجئ.

تشمم رائحة شعرها "يا ابنتي" قالها بالغجرية أيضاً، فالتصقت به، مسح بكفه دموعها، وكانت بيوت الوادي تضاء تباعاً بالشموع والسرج والقناديل العتيقة، لكن بلا بريق، كان الضجيج يخفت كلما أضيء بيت جديد، كأنما الصياح أبداً وليد الظلام، والشموع والسرج والقناديل، جمعت ما فرقته الكهرباء، فازداد اقتراب الناس من بعضهم،

لفّهم إحساس عارم بالضعف والبؤس، حتى أولئك الذين فرقتهم السنين، وعملت العداوة بينهم، تناسوا أحقادهم، والتفوا حول تلك الأضواء الخافتة، متجاهلين بغضهم لبعضهم.

تماسك رجال، تحدث آخرون في الظلام، تحرك سلمان ونزار في ظلمة الوادي، زارا بضعة بيوت، اقتتل كياز وزوجته التي أعادت إلى ذهنه فكرة التسول، بدأت وصلة عرقي الغنائية في صالة الفندق، أضيئت سيارة جبر، تحركت إلى حيث التقاطع الشرقي، بددت ظلمة الطريق لثوان، وإذ ابتعدت، لم ير السكان منها سوى أضوائها الخلفية الحمراء الحمراء.

- ٥ -

تميزت الصبيحة الثامنة بسخط كوني غريب! فقد غطت السماء طبقة مصفرة من غيوم مغبرة، وثارت زوابع ملأى بسموم الأتربة، واختفت الشمس، تحولت إلى كيان محايد لا معنى له، فانحدرت الكآبة إلى البيوت المقرفصة على الآكام الصخرية وفي القاع، وضاق الوادي، ضاقت عيون السكان وصدورهم، إلى حد أنهم تساءلوا عما إذا كان ثمة علاقة بين مفاجأة الزوابع، وبين ما يجري في الوادي.

كان الرجال يرودون الطريق الرئيسي كالحيارى، يدسون أيديهم في جيوبهم، يتلفتون إلى بيوت الوادي، أزقته، دكاكينه، أطفاله، وكل ما تراه عيونهم من معالمه المستغيثة، ويتوقفون كلما اجتاحتهم زوبعة، يحتمون ببعضهم ريثما تبتعد، ثم يتابعون سيرهم كأنما نحو غاية مبهمة، ربما بحثوا عن مخارج وثغرات في أطواق الحصار المريع للحياة من حولهم، ربما بحث كل واحد منهم عن حلوله الخاصة بمنأى عن

الآخرين الذين يشاركونه السير في طريق الوادي، وربما حملتهم الزوابع إلى عوالم أخرى مختلفة.

كانت الزوابع تشتد، فيتطير السكان "يا لطيف، اللهم استر، اللهم تمم هذا النهار على خير".

لكن ذلك النهار من عمر الوادي لم يمض مثلما أراد السكان، بدليل أن الزوابع حملت فيما حملته إلى الوادي، سيارة جيب رمادية توقفت أمام بيت سلمان، وحينما فتحت أبوابها تبين أن تلك السيارة على صغرها، كانت تضم أحد عشر رجلاً تقافزوا منها تباعاً ثم تحلقوا إلى جانبها، تحادثوا قليلاً، أشار أحدهم بسبابته إلى بيت سلمان ثم نزار، فتبعته عيونهم، وإذ سار نحوهما تبعته أرجلهم.

كانوا يتأبطون دفاترهم ذات الأغلفة المقواة، وبكرات أمتارهم الطويلة، وأثقالهم المعدنية الصغيرة، وخيطانهم، وكل أشيائهم، وحينما توزعوا بين البيتين تسلقوا سطحيهما بأدواتهم، فأثاروا فضول السكان الذين تلملموا مستطلعين، وإذ أدركوا بأن أولئك الرجال هم المساحون المفوضون بكيل مساحات البيوت انتشر الذعر في نفوسهم، وأحسوا بأن ذلك الحضور ليس سوى تأكيد لما قاله سلمان ونزار أثناء زيارتهما المتكررة لبيوتهم، فقد قالا بأن "المسّاحين سيحضرون إلى البيوت التي يوافق أصحابها على الدفع" وها هم يحضرون. قالا بأنهم "سيكيلون مساحات البيوت" وها قد بدأوا يكيلون, قالا بأن "الكهرباء ستعاد إلى البيوت في اليوم الذي يتم فيه الدفع" واليوم سيدفع نزار، وسلمان، وكل الرجال من آل (قتال الضبع)، "ما يقوله نزار وسلمان هو الصحيح إذن، هو الذي يتم في نهاية الأمر".

كان المساحون يثبتون أطراف أمتارهم عند زوايا السطوح، ويركعون على ركبهم خشية أن تطيح بهم زوابع الوادي، ثم يقيسون أطوال الأضلاع، والفراغات الفاصلة بين البيوت، والجدران المتعرجة والمنكسرة والأسافين والتواءات الحيطان وسماكتها، يقيسون كل شيء، وبطريقة عجيبة يستخرجون المساحات الصافية، ثم يسجلون النتائج في دفاترهم.

أما المحاسب ذو النظارتين السميكتين، والبدلة الزرقاء، فكان يحمل إضافة إلى دفتره البني السميك، رزمة من الاستمارات المطبوعة تتضمن البنود الخاصة باسم صاحب البيت، مهنته، رقم جواز سفره، مساحة بيته بالأمتار المربعة، والمبلغ الإجمالي المطلوب منه.

كان يسجل في دفتره النتائج التي يتوصل المساحون إليها ثم يملأ نسخة من استماراته بخط يده بعد أن يستل من جيبه آلة حاسبة صغيرة تعينه على احتساب المبالغ المطلوبة.

التف الرجال والصبية حول بيوت آل قتال الضبع حال انتقال المساحين إليها، وتتبعوا بعيونهم المحمرة الملأى بالأتربة ما يفعله أولئك الشبان والرجال أولو الملابس المرتبة. كانوا ينظرون إلى آل قتال الضبع بفضول ممزوج بالحسد وربما الحقد، ذلك أن موافقتهم على الدفع تعني بداية التفسخ في لحمة التماسك الممتد على مدار الأيام المنقضية من مدة الانذار. والزوابع عسفت بالوادي وبأوراق المساحين وخصلات شعرهم وملابسهم التي فقدت هيبة اتساقها. كانوا يفركون عيونهم بين الفينة والأخرى، بينما لا تفارق وجوههم ملامح الامتعاض والتقبض. ولقد قال أحدهم للمحاسب بعد كيله لواحد من بيوت آل قتال الضبع، بأن المساحة الكلية لذلك البيت بلغت اثنين وتسعين متراً وستين

سنتمتراً مربعاً، وعلى الفور وضع المحاسب سيجارته في فمه وسجل الرقم في دفتره، ثم أجرى بآلته الصغيرة عملية حسابية سريعة، خرج منها بنتيجة أن المبلغ المطلوب من صاحب ذلك البيت هو ألف وثمانماية واثنان وخمسون ديناراً "أين صاحب البيت؟" سأل فاتجهت الأنظار إلى رجل رفيع ممطوط القامة ذي يدين ناحلتين متقشرتين، اقترب الرجل من المحاسب فطلب منه جواز سفره، وحينما أحضره من بيته، سجل في دفتره الكثير من المعلومات، ثم ملأ الاستمارة وسلمه إياها قائلاً "اذهب الآن إلى مكتب المحامي، ادفع المبلغ لكي نعيد الكهرباء والماء إلى بيتك" وبين الفرح والحرج، قال الرجل الممطوط القامة بصوته المتهدج "أهذا كل المطلوب مني؟" فرد المحاسب دون أن ينزع سيجارته من فمه "هذا هو المطلوب الآن، وعند التطويب ستدفع رسوم التسجيل والفرز والتنظيم".

وقارن السكان المحتشدون مساحات بيوتهم بمساحة بيت ذلك الرجل "مساحة داري أقل من مساحة داره بكثير"، "أنا داري تقريباً مثل داره"، "أين داري وأين داره؟" واشتهر ذلك الرجل بعد أن كان مغموراً، وصار بيته مقياساً يقارنون به مساحات بيوتهم من أجل تقدير المبالغ المطلوبة منهم.

– ٦ –

في المساء انقشعت الغيوم المصفرة، فتوالدت نجوم آب في سماء الوادي، غير أن السكان فوجئوا ببريق انبعث على حين غرة من بيتي سلمان ونزار، ثم من بيوت آل قتال الضبع كلها، وتصايحوا، صفق الأطفال وتراكضوا، وضع الفتيان أصابعهم في أفواههم وأطلقوا صفيراً

حاداً، وتجمع الكثيرون كالفراشات حول البيوت التي أضيئت، بينما خطف أبصار الكثيرين من الناس وبهرهم مشهد التجمع المضيء لبيوت آل قتال الضبع التي طغت على الأضواء الشاحبة في البيوت المجاورة لها، وبدت مثل شعلة من الوهج في المساحات المظلمة من الجبل الجنوبي، أما بيتا سلمان ونزار فأضيئت كل مصابيحهما الكهربائية، وامتد تأثيرها إلى البيوت المجاورة لهما، لكن تلك الأضواء بدت شاذة متواطئة على الرغم من بريقها.

في تلك الليلة تجشأ الوادي من أحشاء بيوته أحاديث ملأى بالأمنيات والاحتجاجات، تبادل السكان الزيارات والآراء، استقبل سلمان الكثيرين منهم في بيته، وأكد نزار معرفته بالحقائق الأبعد من الإنذار، الحقائق الخفية المدمرة، والنوايا الخبيثة التي يكنها معروف للوادي، حسبما قال لهم.

بعض الناس آنئذ، بلغوا حافة الاقتناع بضرورة الدفع، وكانوا بحاجة إلى من يستخرج تلك القناعات الخفية الخجولة من أعماقهم، ويحيلها إلى قرارات معلنة. لكن الناس أيضاً ذكروا في جلساتهم جبر أبو بركة الذي لم يعد له وجود في الوادي. قالوا بأنه شاب غر تنقصه التجربة في الحياة، قالوا بأنه اختفى قهراً لأنه لم يتمكن من مساعدة السكان، قالوا أشياء كثيرة عن جبر، وغزا الغم قلب أم سلمان، فحثت ابنها الأكبر على البحث عن شقيقه، لكنه طمأنها " قلت لك أنه في الفندق عند صاحبه سعد راضي، يأكل ويشرب ويسهر وينام، وماذا ينقصه؟"، "لكن متى يرجع؟"، "اتركيه الآن يستريح، وعندما تهدأ الأمور أنا الذي سأعيده لك".

كان سلمان يريد الانتهاء من مهمته بأي شكل، أما جبر فأحس بخذلان فظيع لم يعهده في حياته، وشحب وجهه على الرغم من رغد عيشه في الفندق، بل إنه أصيب بكآبة وضيق شديدين، وأحس بوجود كتلة ثقيلة في صدره، كتلة لم يستطع التخلص منها على الرغم من كل أصناف الكحول التي مرت من حلقه أثناء مجالساته لصديقه سعد، كما لم يتمكن عرقي بأغنياته الصاخبة وببريق سهراته، من التخفيف عن جبر الذي أحس بعداء غريب لهذه الدنيا.

كان يعيش عزلة قاتمة، ويجلس وحيداً على الرغم مما تعج به الصالة من ساهرين وساهرات، أما عرقي فلم يكن سوى يدين وشفتين متحركتين صامتتين في مساحات العزلة التي يعيشها جبر.

– ٧ –

حينما هدأ الليل وأطفئت أضواء البيوت، عاد الوادي إلى ظلمته، وتثاءب كياز ثم هم بمغادرة بيت سبلو، لكن ما سمعه لحظتئذ، أدى إلى جمود وجهه وتحفز أطرافه، فقد تردد في ظلام الوادي زعيق بومة مرعب، ودق قلب سبلو، صمتت هاجار، صمتوا جميعاً وأصغوا، كان الزعيق يزحف نحوهم، يقترب، يلجم ألسنتهم وحواسهم، فلا يبقي لهم سوى تلك الحاسة التي انشحذت حينئذ: السمع.

والزعيق اقترب ممزوجاً بلغط رجال أفاقوا من نومهم، رجال كثيرون سلّطوا شعاعات مصابيحهم اليدوية بطيش نحو الأعمدة والسطوح "من هنا الزعيق"، "لا، على العمود الثاني"، " فوق سطح دار كياز".

كانت البومة تنتقل من مكان إلى آخر، كأنما تريد إيقاظ كل السكان، وكانوا يخرجون من بيوتهم بمصابيحهم اليدوية وعصيهم،

مستذكرين الحكايات المشؤومة التي رواها لهم آباؤهم وأجدادهم عن البوم، وعلى الرغم من أنهم أصابوا البومة بأضواء مصابيحهم، إلا أنهم لم يجرؤوا على صعود أي من السطوح التي اعتلتها. لقد رأوا عينيها الواسعتين، وأذنيها المنتصبتين، وسمعوا رفيف جناحيها المرعبين في حلكة الليل، لكنهم لم يقتربوا منها. كانت النسوة بنداءاتهن المتكررة على أزواجهن وأبنائهن، يسهمن في تضخيم رعبهم، كن يحذرنهم بأصواتهن المذعورة، فيوقظن في أعماقهم خرافات الشؤم العتيقة التي عادت تحتلهم من جديد.

لأمر ما أطفأ الرجال مصابيحهم التي مست بحزم شعاعاتها تلك البومة. ولأمر ما أيضاً، لم يتمكنوا من اقتلاع ذلك الرعب الذي بثه زعيقها في أعماقهم، والبومة أصيبت كالسكان بالذعر، فظلت تنتقل من سطح لأخر، ومن عمود إلى آخر دون أن تستقر في مكان، ودون أن تكف عن الزعيق، وحينما سقطت على الأرض منهكة، تهارب الرجال والنساء، كانت مثل قذيفة سقطت في قاع الوادي دون أن تنفجر، لكن احتمالات انفجارها ظلت قائمة، لذا تحاذروا منها.

سبلو هو الذي اقترب من البومة. هو الذي أضاء بقنديله الشاحب رقعة سقوط القذيفة المشؤومة، فجثت البومة على الأرض بذعر، فتقدم نحوها بتصميم وإصرار، غير أن الناس لم يكفوا عن مناداته بأصواتهم المتهدجة "اقتلها يا سبلو"، "هل تريد عصا يا سبلو؟"، "بالحجر، بالحجر أحسن"، "دق رأسها"، وسبلو لم يلتفت إليهم، بل وضع قنديله على الأرض، ثم قبض عليها بكلتا يديه.

كانت كبيرة بحجم دجاجة، وكانت عيناها شاسعتين، لكنهما مذعورتان. في تلك اللحظة تقدمت هاجار من والدها بطريقة امرأة

تريد القيام بعمل يومي اعتادته، ركعت إلى جانبه، وفضت تحت ضوء القنديل صرة قماشية صغيرة ملأى بمسحوق الكحل، ثم شرعت تكحل عيني البومة التي استسلمت لها، كان ذلك الاستسلام مذهلاً ومرعباً، والناس قالوا لها "هذا جنون يا هاجار"، وصاحت إحدى عجائز الغجر " كفانا الله شرك يا ابنة هاج" ورددت أخرى "اقتليها وخلصينا منها"، وحينما أكملت تكحيل عينيها اتسعتا، فمسدت رأسها بأصابعها، ثم نفخت في القنديل فانطفأ لينفدع الظلام.
حينها أطلق سبلو البومة من يده لتطير مبتعدة عن الوادي دونما زعيق.

- ٨ -

في تلك الليلة أيضاً، أفاق صاحب أحد البيوت على رجل تسلل إلى بيته، وعبث في خزانته! وحينما دب الصياح في ذلك البيت، فر اللص دون أن يتخلى عن الاسوارة الذهبية التي عثر عليها في تلك الخزانة، وأفاق الكثيرون من السكان وخرجوا بعصيهم بحثاً عن اللص الذي اختفى! وأطلق سلمان بضع رصاصات في الهواء إرهاباً للص كما قال، غير أن تلك الرصاصات أيقظت بقية السكان، وتوصل كل منهم إلى ضرورة القبض على اللص حتى ولو قلبوا الوادي بحثاً عنه! وقالوا بأنه واحد من أصدقاء أو أقارب صاحب البيت المسروق، وإلا "كيف عرف بأن الأسوارة موجودة في الخزانة؟ كيف عرف أين هي بالضبط؟".

استطاع اللص الاندماج بين الرجال متظاهراً البحث عن "اللص!" لكن الأسوارة كانت قد برزت من تحت قماش جيب بنطاله الضيق، فبدت مستديرة فاضحة، ولما تنبه إلى ذلك البروز أصابه الذعر، فاستدار

متلفتاً حوله، ثم أخرجها من جيبه ليخبئها تحت قميصه، فسقطت على يده حزمة من شعاع مصباح قريب، ارتجفت تلك اليد، تراجعت دون أن تتمكن من إكمال مهمتها، فتراجع اللص مستشعراً خطر افتضاح أمره، ودون أن يفكر استدار هارباً، فصاح صاحب المصباح ولحقه، فلحقه آخر وآخر.. وتصايحوا، كلهم لحقوا اللص المذعور، وحينما أمسكوا به، انهالوا عليه ضرباً بعصيهم! ضربوه بقسوة وحقد، كأنما أرادوا بذلك تفريغ سموم غضبهم وضيقهم بما آلت إليه أحوالهم. لم يكن اللص سوى بدن أو كيان وجد الرجال فيه الوسيلة لنضح ما لا يستطيعون نضحه، وهوت أعقاب عصيهم على رأسه ووجهه وكل جزء من جسمه الناحل الذي هوى على الأرض مضرجاً بدمائه.

وعلى عكس ما توقع الناس، فقد تبين أن ذلك الرجل - اللص- لم يكن من أصدقاء أو أقارب صاحب البيت المسروق، إنما كان واحداً من سكان المنعطف، غير أن ما أثار ذهولهم، أنه كان معروفاً في الوادي بصدقه واستقامته، بل إنّ بعضهم أحسوا بالفجيعة حينما اقتادوه إلى مخفر الشرطة بدناً ممزقاً، وروحاً محطمة.

- ٩ -

في الصبيحة التالية لم يجد السكان فرصة للتحدث في أمر البومة أو اللص، فقد فوجئوا بمشهد الجرافات التي عسكرت عند مدخل الوادي منذ الفجر.

عشر جرافات صفراء اللون مغبرة عسكرت بجنازيرها الحديدية القاسية عند مدخل الوادي، فبدت للسكان مثل كائنات وحشية متحفزة، لكل واحدة منها عينان شرستان، وفم متحرك هائل، وأنف

عريض لاهب، وقائمتان ساحقتان. أما سائقوها فعابسو الوجوه، متحفزون، متيقظو العيون والحواس.

يعرف السكان الجرافات، بل إن بعضهم استخدمها لتسوية الأرض تحت بيوتهم حين بنائها، لكن هذه الجرافات مختلفة، إنها قاسية، وملأى بمعاني الوعيد والتهديد، وحتى أولئك الرجال الذين يعتلونها فإن في عيونهم نظرات متوثبة متوعدة، وفي صمتهم سكون الأجسام الغريبة الموقوتة! هكذا أحس السكان الذين اكتفوا بالاحتشاد أمام الجرافات دون لمسها "ألم أقل لكم بأن معروف أعند من الصخر؟ ألم أقل بأنه لا يرحم؟" كان سلمان يقول لهم، وكانت الخيبة ترتسم على وجوههم، فيرددون في نفوسهم "أهكذا؟ إلى هذا الحد؟" والوادي عج بالإشاعات في ذلك الصباح، فقيل بأن معروف لا يريد الانتظار حتى اليوم الخامس عشر، قيل بأنه يريد الأرض فعلاً، وبأنه يتمنى أن لا يدفع السكان له، لكي يتمكن من تنفيذ ما يدور في ذهنه! هذا ما تناقله السكان الذين تلملموا، وتفرقوا، وتجمعوا، بينما عابثت نفوسهم أفكار لم تخطر لهم من قبل! أفكار أنبتتها بذور رعبهم وعجزهم أمام التطورات السريعة التي عصفت بالوادي وبهم، وانقسموا خلال اليومين التاليين بين مؤيد لفكرة الدفع، وبين رافض لها.

الذين اقتنعوا بضرورة الدفع لجأوا إلى البنوك، وتقدموا بطلبات للحصول على القروض، غير أن البنوك لم تستجب للكثيرين منهم بسبب انعدام الضمانات اللازمة للإقراض، تلك الضمانات التي لا يمكن التنازل عن أي منها.

كانوا يشرحون ظروفهم لموظفي البنوك من وراء الحواجز الرخامية والخشبية، ويستعطفونهم مستخدمين عبارات كفيلة بتليين أكثر

الصخور صلابة، لكن ردود الموظفين واعتذاراهم كانت تنطلق بآلية من أشرطة التعليمات المسجلة في أذهاهم وأوراقهم.

أما تلك المحاولات التي أعلنت عنها الصحف حول اتصال مندوبيها بمؤسسات الإقراض من أجل المساعدة في تقسيط أثمان الأرض، فقد باءت جميعها بالفشل، ذلك أن المؤسسات اشترطت أن تكون الأرض مفروزة منظمة، وأن يتم تقديم مخططات مواقع ورسومات هندسية ثم ضمانات وكفلاء..

لجأ بعض السكان إلى أقارهم وأصدقائهم، وكانوا يغادرون بيوهم منذ الصباح خفية، ترافقهم أدعية زوجاهم وأمهاهم، كانوا يذهبون إلى أقارهم وأصدقائهم في الأحياء الأخرى من المدينة وفي المدن الأخرى، ينشدون عوهم بعد أن يشرحوا لهم ما حل بهم، مستشهدين بما كتبته الصحف حول قضيتهم "الحياة تعاكسنا" يقولون، ويتألمون "الله عالم بحالنا" لكنهم يتلقون الكثير من عبارات التأنيب والتشفي "ألم نقل لكم بأن أصحاب الأرض لابد أن يطالبوا بأرضهم؟" فيردون " غلطة وصارت "، "ألم نحذركملو كان عندكم ذرة تفكير لما أقمتم في ذلك الوادي"، وحينما تزداد تأنيبات الأقارب يردون " يا عمي لا ترشوا على الموت سكراً، وهل كنا نملك المال لنشتري أرضاً في ذلك الوقت؟".

بعضهم عادوا إلى بيوهم ظافرين مفتخرين بأقارهم الذين أقرضوهم فأنقذوهم، وحمدوا الله الذي وهبهم أولئك الأقارب المحبين الذين هم "العزوة الحقيقية في هذا الزمان الصعب"، كانوا يطلقون في غمرة تحمسهم الكثير من العبارات التي لا يقولونها إلا في مثل تلك المناسبات،

فإذا استدانوا من أقاربهم لآبائهم قالوا بأن "الدم لا يصير ماء" وهنا يتعزز نفوذ الآباء بين أبنائهم وزوجاتهم، وإذا استدانوا من أخوالهم، ازداد نفوذ الأمهات اللائي يقلن بأن "الأخوال أحنّ من الأعمام" وأن "ثلثي الولد لخاله لا لعمه" أما إذا استدانوا من أصدقائهم فإن "الصديق هو الذي ينفع في وقت الضيق" ويصير الصديق خيراً ألف مرة من القريب الذي خذلهم "ورب أخ لك لم تلده أمك".

- ١٠ -

الذين أصابهم العناد أبوا على أنفسهم اللجوء إلى أقاربهم أو معارفهم من أجل استدانة أثمان الأرض منهم، وقالوا بأنهم لن يدفعوا ولن يغادروا بيوتهم! ولوحوا " سنرى إن كان باستطاعته إخراجنا من بيوتنا".

وانضمّ إلى أصحاب هذا الرأي، أولئك الذين تستروا وراء العناد بعد أن لجأوا سراً إلى أقاربهم وأصدقائهم طالبين عونهم، وحينما خذلوهم، كظموا آلامهم وتظاهروا بالعناد قائلين بأن "القضية ليست قضية نقود، إنما هي قضية ابتزاز مرفوضة، ولن ندفع، وليفعل صاحب الأرض ما يريد" تبعهم أيضاً، السكان الذين أفلتوا من كوابح أسرارهم الاجتماعية وأعلنوا صراحة بأنهم طرقوا - دون جدوى- كل الأبواب من أجل الحصول على النقود، لهذا فإنهم أيضاً، لن يدفعوا "والذي يكتبه الله هو الذي سيصير في النهاية".

لقد تقارب كل أولئك الذين اتفقوا على عدم الدفع، وشكلوا معاً كتلة واحدة متماسكة، وصاروا يدورون على البيوت من أجل إقناع أصحابها بالانضمام إليهم، غير أنهم فوجئوا بقناعات جديدة تولدت

عند أولئك السكان، كما تلقوا بمزيد من المرارة والأسى، ردودهم التي لم تكن سوى نقل حرفي لعبارات سلمان ونزار!

عبثاً كانوا يحاولون تغيير الآراء التي تكونت بفعل زيارات ذينك الرجلين إلى بيوتهم، وبفعل مشهد الجرافات التي ظلت تعسكر عند مدخل الوادي مثل هواجس لا تني تهدد استقرارهم وتلح عليهم بضرورة الدفع وإلا...

وازدادت انقسامات السكان وتعمقت، وصار بعضهم يتجنب الاحتكاك بالبعض الآخر، وتحول رأي كل واحد منهم في قضية الدفع، إلى موقف ثابت لا يجوز التنازل عنه! وصار لكل موقف مبرراته وركائزه، بل إن الرافضين من السكان صاروا يرددون في أقوالهم عبارة "القضية هي قضية مبدأ" في حين أن الموافقين رددوا باستمرار عبارة "الكف لا تلاطم المخرز".

الغجر الذين قرروا الدفع، باعوا لسلمان مسجلاتهم وتلفازاتهم والكثير مما يمكن بيعه، لكنهم تمنوا بعدها، لو أنهم أبقوا تلك الأجهزة في بيوتهم، ذلك أن سلمان ابتاعها منهم بأبخس الأثمان، وحينما وجدوا بأن ما تقاضوه منه لا يساوي شيئاً بالمقارنة مع المبالغ المطلوبة منهم، أطلقوا نساءهم وأبناءهم في شوارع المدينة التي أفاقت في الصبيحة الثانية عشرة على جحافل من النمل البشري الذي غزا شوارعها المكتظة! هكذا أفاقت المدينة من سبات ليلها، هكذا تنفست، هكذا أصبحت: أفقاً كالحاً ممتداً، شمساً تكهر بشراسة فوق البيوت والتلال الشرقية، سيارات تتحاذى بلا انتظام، أبواق لا تكف عن الصياح، شوارع تئن تحت وقع أقدام لأناس مسرعين، ولموظفين لا يرون أثناء

سيرهم سوى أشباح مدرائهم ورؤسائهم، وأرصفة تشمر عن سيقان فتيات جميلات.

هكذا أفاقت المدينة: نمل بشري لا يكف عن احتلال المفترقات والأرصفة وأبواب الدكاكين والمتاجر، نمل يسير على قدمين وعينين، يتسرب من شقوق المدينة، يلاحق المارة أنى ذهبوا، يبيع الصحف، وأوراق اليانصيب، والعلكة، والتبغ، ويمسح السيارات المتوقفة، ويمد يده متسولاً، فيثير الضيق في صدور المارة، حتى إن أحد كتاب الصحف آثار في صبحية اليوم التالي، ظاهرة الانفجار المفاجئ للمتسولين وفتيان التقاطعات، وطالب الجهات المختصة بالتدخل من أجل منعهم من تلطيخ وجه المدينة المشرق.

بعض الغجر حزموا أمتعتهم استعداداً للخروج من الوادي "حياة الارتحال أفضل بمليون مرة من حياة الاستقرار" قالوا وفوجئ كياز الغجري باختفاء زوجته سمار في تلك الصبيحة، وبحث عنها في بيت هاجار، وبيت سبلو. بحث في كل بيوت الغجر، وحين لم يجدها أيقن بأنها خرجت للتسول! والهدير دب في رأسه وصدره، وغادر الوادي باحثاً عنها مثل مجنون في الشوارع والأرصفة ومواقف السيارات، لم يبق مكاناً إلا بحث فيه، وحينما عاد إلى بيته عند الغروب، وجدها ممدّدة على فراشها! كانت تئن تعباً، وكان وجهها شاحباً مغبراً، وعيناها حاسرتين، غير أن هذا لم يخفف من غضب كياز وغيظه، وبدلاً من أن يهون عليها قسوة يومها، صاح بها مستعيداً لحظات قوته الجارفة "أهكذا يا خالعة؟" عندها تسللت يدها تحت وسادتها، تناولت صرة الدنانير التي جمعتها، ثم مدت يدها لتناوله إياها فصفعها، واتجه إلى باحة داره، أمسك بخشبة مركونة في إحدى الزوايا، عاد إلى سمار،

حاولت بناته الإمساك به، أبعدهن بقسوة ثم هوى بالخشبة على رأسها. حينئذ، أحس بأن كل آلام شوطه مع الحياة هوت دفعة واحدة، لكن أنفاس سمار سكنت لحظتئذ أيضاً. لم تصرخ، لم تستغث، بل ظلت ممدّدة على فراشها بعينين مفتوحتين، مذعورتين أو مندهشتين، وتصايحت بناتها، تجرأن على دفعه بعيداً عنها، التصقن بها، هززنها، لكن هيهات، فسمار كانت تخلت عن حياتها تلك إلى الأبد، وكياز ألقى بخشبته مقترباً من جثتها ، حاول التأكد من صحة الاحتمال الصاعق الذي راوده آنئذ، فدق قلبه بعنف، أصفر وجهه، انفتحت عيناه عن آخرهما، ثم تفجر صياحه وعويله، وبللت دموعه خديه وشعر ذقنه البارز الأشيب، تجمع الرجال حوله، أمسكوا بذراعيه فاستسلم لهم، اقتادوه إلى خارج البيت، فأدار وجهه نحو جثة سمار، نظر إليها بعينين مبلولتين حمراوين، فبدا وجهه كوجه مجنون.

في ذلك المساء، سُجن كياز الغجري..

- ١١ -

كان ضوء الكهرباء لا يحمل سوى معنى واحد: الدفع. والسكان تناسلوا واحداً واحداً، تسربوا كالنمل، دفعوا غير عابئين بإحساسهم غير المؤقت بالتواطؤ! كلما أضيء بيت جديد، اشتعل أصحاب البيوت المطفأة غيظاً وغضباً "إذا لم تستح فافعل ما شئت" يقولون، ويواسون بعضهم بالكثير من العبارات التي توالدت في جلساتهم، فكرروها مراراً، بل إنهم فلسفوا موقفهم قائلين بأن الحياة كلها لا تستحق كل هذا العناء والتفكير، قالوا أشياء كثيرة، تضاحكوا، وقلبوا أيديهم بحركات توحي باللامبالاة، لكنهم أيضاً تساءلوا كل في ذاته: إلى متى؟.

كان معروف يدفع لسلمان ونزار عمولتهما كلما استجاب له واحد من السكان "ثلاثة بالمئة حسبما اتفقنا" يقول فيردان "كثر الله من أمثالك سيد معروف، هكذا يكون التعامل الصادق"، كان يدفع لهما بنفس راضية، فقد تلمس الدور الكبير الذي قاما به من أجل تحقيق انتصاره المزعوم، ذلك الانتصار الذي هلل له أمام أصدقائه وأعدائه، وأمام نفسه التي ضاقت بتدخلات الآخرين، وباحتمالات الفشل "يجب أن يعرفوا من أنا"، كان يردد في ذاته المزهوة بإنجاز نجاحه في إرغام السكان على الدفع، بل لقد بلغ به الأمر أن هاتف واحداً من أولئك الذين حاولوا ثنيه عن مطالبته بأراضي الوادي، وقال له "أرأيت؟ ها هم يدفعون"، وكانوا يدفعون.

كان الرجال يتفقون فيما بينهم على الدفع، يخلقون الكثير من المبررات، ويرددون الحكم والأمثال التي تساعدهم على التغلب على إحساسهم بالتواطؤ والانصياع "الكف لا تلاطم المخرز"، "آل الخلق كلهم دفعوا"، "وآل خيط الذبان، واللزق، وجبيلان"، "اليوم راح الرجال من عائلة الفقع ليدفعوا، وأخذوا معهم اثنين من آل الطش"، "السمكري قال بأنه سيدفع، وحسان الغجري، والنجار واللحام، وناصي الكناس، حتى ناصي الكناس؟!"

كان الآخرون يتلقفون الأخبار الجديدة، ثم يشيعونها بينهم، لكن تلك الأخبار أربكتهم، ودعتهم إلى إعادة تجميع أنفسهم بعد أن انثنى الكثيرون منهم ووافقوا على الدفع "يا لهم من جبناء" قالوا وتلملموا من جديد، لكنهم فوجئوا بقلة عددهم، وتملكتهم أحاسيس العزلة والوحدة

"لم يبق غيرنا" كانوا يتحسرون، ويشتمون أولئك المكابرين الذين "أشبعونا كلاماً وعند الجد انسحبوا ودفعوا ".

كان إحساس الناس بالاستقرار يطغى على كل ما عداه، بما في ذلك تلك المكابرات والتهديدات التي بدرت عنهم في بدايات ظهور التبليغ، وتحولت الكهرباء من جديد إلى مقياس لليسر أو العوز، فالبيوت المضاءة هي التي تخص القادرين على الدفع، لا يهم كيف تم الدفع؟ أو من أين؟ المهم أنهم تدبروا أمورهم! المهم أن الكهرباء أعيدت إلى بيوتهم والمياه! أما تلك البيوت المطفأة فهي لأناس " فقراء، مساكين، صغار العقول على الرغم من زعمهم بأن المسألة هي مسألة مبدأ! أي مبدأ هذا الذي يتحدثون عنه؟ كيف يتحدثون عن المبادئ والجرافات تقف عند أول الوادي؟ يا لهم من أغبياء".

- ١٢ -

بعد أن تفسخت الصفوف، فكر نزار في كيفية الإجهاز على تلك القلة من المتمسكين برفضهم، فأشاع بين السكان معلومة مفادها أنه لن يتم تسجيل الأرض بأسمائهم طالما أن هناك أناساً لم يدفعوا بعد، لأن الوادي قطعة واحدة لا يجوز تسجيلها إلا دفعة واحدة، هذه بديهية تحكمها اعتبارات عديدة أهمها ذلك التداخل بين البيوت، وانعدام التنظيم والفرز من الأساس. تسجيل الأرض بأسماء السكان مرهون بدفع ثمنها كاملاً، هكذا يقول معروف المعروف، وهكذا يقول المنطق، ثم " ما سبب الموقف الأناني الطائش لأولئك الذين لا يريدون الدفع؟ ألا يعلمون أنهم تسببوا بطيشهم في تأخير إجراءات التسجيل؟ "، "طيب والعمل يا نزار؟" سألوه فأجابهم بخبث "اقنعوهم، دبروهم".

لم يبق من مدة الانذار سوى ثلاثة أيام، والرجال توافدوا إلى بيوت أولئك الذين لم يدفعوا، حاولوا إقناعهم بكل ما أوتوا من وسائل الرجاء والالتفاف والترهيب! كانوا يقولون لهم " يا جماعة لا تعطلونا، ما الذي تريدونه بالضبط؟ وهل تظنون أنكم أحسن منا؟" وحينما أصروا على كلمتهم ازداد غيظ السكان ونفورهم منهم، بل أخذوا يتحرشون بهم، ويسمعونهم عبارات الزجر والتحقير، كما نشب قتال بين عائلتي اللزق والبس نتيجة تلك التحرشات، وانضمّ آل جبيلان إلى آل اللزق في ذلك القتال، وانهالوا بعصيهم على الرجال والنساء والأطفال من آل البس "طالما أنهم يرفضون الدفع، فعليهم أن يتحملوا، يجب أن يصيروا عبرة لأولئك المتصلبين"، وسالت الدماء، وتراجع آل البس أمام جحافل الرجال الذين اقتحموا بيوتهم، تراجعوا واستجاروا بسلمان! اندفعوا عبر بوابة داره، فهب لحمايتهم بمسدسه "هيا اذهبوا، كل آل البس في حمايتي" قال للرجال الذين التموا حول بيته مطالبين بأولئك الذين أجارهم، حينئذ تفرق الجمع من حول بيته، انسحبوا بهدوء شف عن شبهة بوجود اتفاق مسبق فيما بينهم! هذا ما أحس به السكان الذين احتشدوا أيضاً من أجل مشاهدة ما كان سيحدث! لكن الرجال من آل البس، في الصبيحة التالية، خرجوا من بيت سلمان معلنين موافقتهم على الدفع و "مئة مرة جبان ولا مرة واحدة الله يرحمه".

- ١٣ -

لم يكن الوادي هادئاً على الرغم من عباءات السكون التي حطت على بيوته، فقد ارتدّت هواجس النهار إلى الوراء، تراجعت، وتحولت إلى

رؤى وأحلام ليلية صاخبة ومؤرقة.

كان مشهد الجرافات يثير في نفوس السكان قلقاً لم يتمكنوا من اقتلاعه، حتى بعد دفعهم المبالغ المطلوبة منهم، وكانت الكوابيس تغزوهم كلما فكروا بتلك المعدات المترصدة، فكل شيء قابل للفهم إلا تلك.

في نهايات الليلة الثالثة عشرة، أفاق السكان على حريق شب في إحدى الجرافات ورأوا من بعيد ألسنة النيران وشآبيبها المتطاولة التي أنارت الوادي بضوء محمر متموج ذي ظلال متحركة، وتراكضوا نحو مدخل الوادي، احتشدوا بلا انتظام حول تلك الجرافة تاركين للنيران أمر التهامها حتى البرغي الأخير "وما دخلنا نحن؟" كانوا يقولون كلما علت من بينهم أصوات تطالب بإطفاء النيران، لكن سلمان "مالكم واقفين؟ تحركوا " صاح بهم حال وصوله حشدهم "وما لنا وما لها يا سلمان؟" قال بعضهم، لكن آخرين استجابوا له على الفور، فتقدموا وأخذوا يعفرون الرمال على النيران محاولين إطفاءها، فتبعهم آخرون، وآخرون..

كانت الجرافة أشبه بعقرب ضخمة أغرقت بالكاز ثم أضرمت فيها النيران، كانت تطقطق وتتقشر تماماً كجسم عقرب عاجزة محصورة! والرجال حذروا بعضهم من الاقتراب منها، بل إنّ إحساساً نفاذاً خرق نفوسهم حينئذ، فانتقل إلى أجسامهم التي ارتجفت بفعل ذلك الإحساس الممزوج بالقلق والفرح المذعور، وحتى حينما تمكنت سيارات الإطفاء – التي وصلت متأخرة – من إخماد النيران، فقد بدت الجرافة للسكان مثل عقرب متفحمة مثيرة للنفور.

غير أن همود النيران أيقظ الحشد من هول المفاجأة، فصاروا يتحدثون باتزان وحذر، قالوا بأن الحريق لم يحدث مصادفة، إنما هو من فعل فاعل، إذ "أيمكن أن تحترق الجرافة من تلقاء نفسها؟ لابد أن أحداً أحرقها! لكن كيف أشعل الحديد؟ ربما استخدم الكاز! ربما السولار"، وقال آخرون "والله إنه جريء"، وسخر آخرون "جريء؟ ها، سترون ما الذي ستجلبه لنا هذه المصيبة الجديدة".

لقد أثار الحريق في نفوس السكان ذعراً لم يستطيعوا حياله سوى دفع التهمة عن أنفسهم، وإلصاقها بثلاثة من رجال الفلاحين "هم الذين كانوا يتهددون ويتوعدون"، "كل الناس دفعوا إلا هم"، "هم السبب في تأخير تطويب الأرض بأسمائنا" وأخيراً "هم الذين فعلوها".

لكن هذا لم يؤكد الاتهام الموجه إلى الرجال الثلاثة، إذ "صحيح أننا لم ندفع، صحيح أننا لا نملك النقود، لكننا لم نحرق الجرافة"، "من الذي أحرقها إذن؟"، "الله أعلم يا سيدي".

***

آخر الليلات

– ١ –

في الليلة الرابعة عشرة، اشتعلت النيران في جرافة ثانية على الرغم من كل الاحتياطات المتخذة، ومن جديد حضرت سيارات الإطفاء، وتفرق الناس، لكنهم هذه المرة تحدثوا عن هاجار الغجرية وعن والدها سبلو.

قالوا بأنها هي التي أحرقت الجرافة. إذ "طالما أن الرجال الثلاثة محتجزون في المخفر، فمن سيكون الفاعل؟"، "ولكن كيف لم يخطر هذا ببالنا من قبل؟"، "كيف لم نفطن إلى أنها ووالدها لم يدفعا حتى الآن؟"، "ولماذا لا يكون سبلو هو الفاعل؟ إنه سكير ومجنون".

كان سبلو وابنته يستندان بأكواعهما إلى الإفريز الحديدي في بيتها، والكهرباء تنير كل البيوت الا بيتيهما،وبيت كياز، وثلاثة من بيوت الفلاحين. كان لغط الرجال يتعالى، فيميزان الأصوات والكلمات، وصوت نزار آنئذ، كان أعلى الأصوات "هي التي فعلتها، اسألوني أنا، أنا أعرف الناس بعنادها، هي سبب البلاء، هي.."

".. أنا أقول بأن الذي فعلها هو سبلو.

".. أنا أقول هاجار وسبلو معا.

"..أنا أقول الفلاحون الثلاثة.

"..أقول هاجار.

"..سبلو.

".. الفلاحون.

".. هو.

".. هي.

".. هم.

اقتربت الأصوات من بيت سبلو وهاجار، ثم تلاحقت الطرقات العنيفة الغاضبة على البوابة الخشبية السفلى، حينئذ لم يرتطم رأس سبلو بقيعانه الحلمية، إنما بحديد الإفريز الصلب..

***

آخر الصباحات

كان جبر أبو بركة يجلس وراء طاولة مستطيلة في صالة الفندق السفلى. في الركن الآخر جلس عرقي الغجري. والصالة هادئة وخالية.

كانا يرتشفان قهوة الصباح في آن، ويقرآن في آن، الخبر الذي نشرته الصحف في الصبيحة الأخيرة من مدة الإنذار:

تم حل مشكلة وادي الغجر بالتراضي، حيث اتفق كل من صاحب الأرض وأهالي الوادي على سعر نهائي للمتر الواحد قدره عشرون ديناراً، وقد قام الأهالي خلال الأيام القليلة الماضية بدفع المبالغ المطلوبة منهم إلى صاحب الأرض في جو من المودة والرضا..

*****

صدر للمؤلف

روايات:

- الطريق الى بلحارث/ الطبعة الأولى: منشورات رابطة الكتاب الاردنيين – عمان – ١٩٨٢
- وقت/ الطبعة الأولى: منشورات دار ابن رشد ١٩٨٥
- مخلفات الزوابع الاخيرة/ الطبعة الأولى: منشورات المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت – ١٩٨٨
- الحياة على ذمة الموت/ الطبعة الأولى: منشورات المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت – ١٩٩٣
- ليلة الريش/ الطبعة الأولى: منشورات المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت ٢٠٠٤
- عندما تشيخ الذئاب / الطبعة الأولى: منشورات وزارة الثقافة الأردنية ٢٠٠٨ – سلسلة التفرغ الابداعي

مجموعات قصصية:

- رجل خالي الذهن / الطبعة الأولى: منشورات دار الكرمل – عمان ١٩٨٩.
- رجل بلا تفاصيل/ الطبعة الأولى: منشورات مؤسسة عبد الحميد شومان بالتعاون مع رابطة الكتاب الاردنيين – ١٩٩٤.
- ما جرى يوم الخميس / الطبعة الأولى: منشورات وزارة الثقافة الاردنية ٢٠٠٦

البريد الإلكتروني للمؤلف
jamalnaji@gmail.com

لقيت هذه الرواية رواجا كبيرا عند صدور طبعتها الأولى في بيروت سنة ١٩٨٨، وحازت على جائزة الدولة التشجيعية في الاردن بعد عام من صدورها، وكتب عنها ما يزيد على خمسين دراسة نقدية ومقالة في الصحف والمجلات والمؤلفات النقدية العربية، ونال عدد من طلبة الدراسات العليا درجات الماجستير والدكتوراة استنادا إلى دراساتهم ورسائلهم العلمية التي أعدوها عنها، وقام المركز العربي بإنتاج مسلسل تلفزيوني مأخوذ عن قصتها تحت عنوان "وادي الغجر"، وعد بعض النقاد هذه الرواية أهم عمل يكتبه الروائي جمال ناجي منذ أن بدأ الكتابة وحتى تاريخ صدورها .وحسب ما جاء في موسوعة ويكيبيديا فقد أقام الكاتب معماره الفني في هذه الرواية على نحو فريد، حيث قام بتصفير المكان والزمان، وبدأ بتشييد مدينة جديدة ببيوتها وشوارعها ومحالها التجارية وسكانها وعلاقاتهم الإجتماعية والإقتصادية والسياسية والعاطفية. وقد تميزت هذه الرواية في جدة موضوعها، حيث تناولت جوهر حياة الغجر، بعيدا عن الصورة النمطية الممثلة في الرقص والترفيه عن الآخرين. فالروائي هنا يغوص في ميثولوجيا الغجر ونشأتهم وعاداتهم وتقاليدهم وأسباب تشتتهم منذ ولادة جدهم الأول.

الناشر

فضاءات
للنشر والتوزيع
فضاءات للنشر والتوزيع والطباعة
عمان - الأردن - تلفاكس:٤٦٥٠٨٨٥ ٦ ٠٠٩٦٢
dar_fadaat@yahoo.com
9 789957 301187